

سلسلة
الأحباب
العربية

٧

دكتور شوقي ضيف

عصر

الدول والإمارات
مصر



دار المعارف



رقم التصنيف: ٥٥٦٠٦٥٩
عنوان:
رقم التسجيل: ٥٥٩٥

عصر
الدول والإمارات
مصر

٥٥٦٠٦٥٩
٥٥٦
ع



تاريخ
الأدب العربي
٧



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)
مكتبة الإسكندرية

عصر
الدول والإمارات
مصر

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مدنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانه منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفوهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أى ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلمها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سواه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متسبباً بأدبية واحدة في أزمنته المتغيرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسيماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دوله وإماراته، وهو ظن مخطئ، فقد كان بين شعوبها جميعا تواصل لا يتقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتابا عن الشعراء مثلا ساقوا فيه شعراء العالم العربى جميعا كما فى اليتيمة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني، وبالمثل إذا ألفوا كتابا عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجرى يجمعون فى القرن علماء العالم العربى وأدبائه جميعاً فى كتب مرتبين فيها ترتيبها أبجديا بحيث نستطيع أن نؤرخ فى كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية فى أى قطر عربى، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمات قبله وحدة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت فى هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسى، وأقدم الأزمات التى خطتها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريعا من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر فى مصر ويعتنقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاة من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسى منذ أواسط القرن الثالث الهجرى فى عهد الطولونيين، وبالمثل فى عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتى عام، وتأخذ فى الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى ويستولون على بيت المقدس. ويغطُّ خلفاؤها فى نوم عميق إلى أن قيض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب فى حطين وغير حطين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينازلون المغول فى عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفترق فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويطهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحِيلُ النَّيْلُ مِصرَ من قديم إلى جنات وزروع وغروس شتى، وأهلها ذلك لرخاء

واسع - على مرّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائمًا كان بها - في العهود الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا، وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراع والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمنية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى في حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون في الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيراً من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنظرون. وتلقى مصر بكنوزها في حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيهارستاناً ضخماً، ويغرق ابنه خمارويه في ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية بثناء مصر، ويتضخم في عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترّف وأدواته، ويتسعون في الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر في العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. ويخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم في رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربى* النازحين من وجه النورمان والإسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، ويزيلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى في العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسك المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهبت أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السننى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم في نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدمت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الاتقاد تدريجياً بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة في الدراسات الدينية ونشرها في العالم العربى، فهى

تنشر قراءة ورش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب روايةً للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، أحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهر. ومع خمود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والمشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرفان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوائل، وألمت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علم مصنفاته القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفات بالغة القيمة، وذكرت في كل علم من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلماؤها الأفاضل في كل علم وفن مرسوماً رسماً بيننا دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سريعاً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري تمَّ تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدودًا زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمينية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضرية والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزها المتنبي وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العباد الأصهباني مجلدين في كتابه «الخريدة» ترجم فيها مائة وأربعين شاعرًا، ويطرّد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدورى منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرُباعيَّات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. ولابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعدوية، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده في مصر على ألسنة الشعراء مثل العزّازي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكارهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفتن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها الناهيون مثل علي بن النضر بملكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانئ الشاعر الفاطمي، وللغزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللفخر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن العز وابن الذروري المقذع في هجائه، وللطبيعة وبجاس اللهب أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائج النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللفكاهة أعلام توج أشعارهم بالتندير والدعايات والتوريات والهزج مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الأفاذاذ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعراً، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعراً ناهياً من الشعراء أيام العثمانيين. و أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح له مجداً أدبياً كثيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بر طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. ويعني الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصبح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها النابيين. ويعني بعض الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلما تقوى على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكه، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صورت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هي: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه في نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتبأله، وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً في حكم القاهرة، وصورة ابن ماتي في طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادر لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور يؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنتره، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها في العالم العربي منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر في البلاد العربية من قديم ما ألفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنتره وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير في تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربي في مصر أثناء حقبة طويلة تمتد من فجر تاريخها العربي إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعها وطبقاته وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخي لعلائها الأفاذاذ في علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواعظ والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب النابهيين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزعم أنى صورت تاريخ الأدب العربي في مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى^(١)

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشامخة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهي أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، واثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعاً ، وتسوّء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد من لا يعتنقون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودي وحسن المحاضرة السيوطي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ١٠٦/١ وفتح العرب لمصر لبتلر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١/٩٩ .

(١) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري وابن الأثير والمغرب لابن سعيد قسم القسطنطينية (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقرئزي (طبعة دار التحرير) ١/٥٥١ والتجوم الزاهرة لابن تغري بردي : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحاداً في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قبرس (المقوقس) بطريقاً للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى العُلل الدينية غللاً اقتصادياً .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرّون في زحفهم حتى حصن بابلون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابلون ، ويضطر قبرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابلون والإسكندرية جميعاً سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصاً لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولايمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يريدون لهم استقلالهم الديني .

ودائماً الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليحقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحرمتهم الدينية ، حتى لقد قرَّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبباً حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أجهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعياً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييداً منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥ هـ ومن بقي منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية^(١)

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيًا من آثاره في القاهرة مسجده الذي يحمل اسمه والذي بناه في الفسطاط : موضع معسكره في حصاره لحصن بابلين وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إبدانًا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . ويلى مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعلى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولّى مصر بعد عمر وبن العاص ابنه عبد الله أشهرًا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ اتّبع الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الوالى يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حيثشعبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شدّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب
الولاية والقضاة للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول
والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولاريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجرّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيّان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يديهم صاغرون) . ويبدو أن حيّان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضررك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، فبجّ الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يعنه جاييا » (١) .

واضطر حيّان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفي لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرّمه من الظلم والعسف . وظلت الفسطاط حاضرة الولاة الأموى منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان يتزها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتقاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتقاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط الميرزى ١٤٢/١

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتفاض يلقانا - للعرب - انتفاض دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلي فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلبُ من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس والجمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظّل نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرقي ، ويستغل الفرصة الجري في تئيس وبنو السري الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الربضي الأمير الأموي ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيزلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتفض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ما بها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ . أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندجون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويفزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، ويُنَى له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر فُرْسًا ، وبالمثل من كان يُسندُ إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمينيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حيناً للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمينيين في رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون^(١)

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقاً كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ فغنى بتربيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكسب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل ، فقوّض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بايكباك ، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولجواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرا يُلعبُ فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينار ، وبنى مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعنى في دولته بأن ينقل إليها الأئمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠ .

المقريزي ١ / ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها وخطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يُؤمّل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما ينقصد بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخّم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحوّل الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساق والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع إصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرشًا أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قدّر له أن يقتل بأيدى غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولا يدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشعب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيبهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يُقدّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاية مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

(٥) الإخشيديون^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُغج بن جُفّ الفرغانى التركى خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُلّوه

تراجم الإخشيد وكافور وخطط المقرئى ١/٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتور سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاية للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنطينية) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاء الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدابير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمئة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتراه الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يبنى الشعراء ويكثر من عطايمهم ، وزار مصر حيثئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأماج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المناير فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمى صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ ففقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صبيبا فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فساداً ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطميون - الأيوبيون

(١) الفاطميون^(١)

تتنسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرّاً لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملماً بالفلسفة والمثل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سلمية بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاءة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغرب العراق ، مما هياً لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هياً لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمروه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشاً قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سلمية عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدي ويعلن نفسه خليفة شرعياً ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانبهم مستودعين هم رعوس الدعاءة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماماً

الزاهرة لابن تغرى بردى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقلي والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت العصرية لعارة اليمنى وصيح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميثر.

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دارالكتب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقريزي وكتابه المخطوط ٢/٢١ وما بعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقي والرفي والرضي بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المخضر الذي كتبه الخليفة القادر العباسي سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشرف العلويين بالطعن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن وما يطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسي ماعدا مدينة سبتة ، لأنها ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافر وشعر كأنما انهار السد الذي كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل ما يلزمه من المال والسلاح . ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل الفسطاط والبر الشرقى بجميشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ ثوبا يحتط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - حِطَّة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والحراشفت . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أديبا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أُقيمت فيه دعوته وخطب له في جمعته وجماعته إلا «سبَّته» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلْكَيْن بن زيरी الصنهاجي . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفِّي المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطَّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده بتوارثونه نحو مائتي عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشييزر وحلب ، وخطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كلِّس وكان يهوديا وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزي إنه ولَّى عيسى بن نسطوروس النصراني ومنشا اليهودي فكتبت إليه سيدة مصرية بالذي أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بآبن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت في أمري ، فقبض عليهما وأخذ من آبن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضبياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي » .

وما زال العزيز رفيقا برعيته حتى توفي سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوى العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحينما يحب العلماء والصلحاء ، وحينما يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبُّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمرس والجرجير والسّمك لاشر له والزبيب . وحرّم الخمر وشدّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جرّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والحفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحرّم - فيما حرّم - الغناء ولعب الشطرنج والترهه على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لايزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعواته ، وفي مقدمتهم داع دُرزي من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانساب من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التّصيرية في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر منزع حيكمت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التّصيرية والدُرزية جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلابي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوي وإلى مدينة الرّملة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتهما جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحا حلّما محببا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقُتلا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن علي الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعوه على المنابر هناك ، وتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توفى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قُضِيَ عليه وعلى فتنته أو دعوته السلطان طُغْرُبُكُ السلجوقي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف يبع بمخمين ديناراً وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةً نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لا تبقى في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وقوض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تديره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوفاص بعد وفاة المستنصر حَبَّيهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلى . وأحدث ذلك انقساماً بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلى كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالته هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فنار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلى مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري وللصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنوناً أو مجبولاً ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرَّ بنا ، وكأنما جرىء بالخلافة أرجوحة للصبى ، وتوفى المستعلى سريراً سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طائفة الصليبيين أن تجتم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفري في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصرى غائب عن حماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستورز أحمد بن الأفضل الجالى وكان هو وأبوه وجده سنين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ مما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيها وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفائز وهو في الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو في الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصبية والغلمان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا في أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفسد في أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم في مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرا للرماد في العمون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجداً به ويهجم حينئذ أميرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور في الوزارة ، وسرعان مايقب ظهر المجن لشيركوه وجنوده ،

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصلبيين ، ومحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغياته ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويلبّيه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تّيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقدان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوبن في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذي جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكي ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكي ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفتح القسى في الفتح القدس والبرق الشامي للهاد الأصهباني وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكرب لابن واصل والروستين وذيل الروستين لأبي شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومرة الزمان لسيط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مررنا ، فقضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية ، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجدَّ في إصلاح أحوال مصر ، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها ، وبذَّل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد ، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلفه قائلاً عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن .. يقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزع ، وتأتيه التشريفات الشريفة » . ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرقى ، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه ، ومع ذلك كان يعدُّ نفسه تابعاً له ، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرّك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة) . وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعمارة اليمنى الشاعر ، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة .

وفي هذه السنة توفي نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . وأعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسكَّ النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو الفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر . ومرَّ بنا آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسير عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطنطية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين . وما هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصلبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصلبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْنَى له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حماية لهما ، ويُنْطَلُ المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدّة ويعوّض صاحب مكة عنها آلاف الأرداب قمحا تفرّق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجع كفته رجحانا واضحا ، ويمضي إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايچنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقّب العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فُعيِدَ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حدب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقي إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبارية الطائفتين اللتين نذرنا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقتلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطّين المشهورة في غربي طبرية ، ويُمنَحَقُ جيشهم محقا ، ويولى هاربا ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع في الأسر قادتهم وزعمائهم جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهيو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تينين إلى الجنوب الشرقي من صور وجبرار مقدم الداوية ورايچنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبوشامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك محمد صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلب خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة . وطمأن بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والإسبانية لحسبهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغبين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيّن المسجد بالفُسَيْفِساء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمالى أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجاً عزَّلاً من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لَبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزير . وسنقف في غير هذا الموضوع عند عنايته بالعارة والبيمارستانات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مديراً لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالريعية عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهز لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيَّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرَّحد سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيّاً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر ، فقبه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية ؛ وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحده . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلحها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها لواء صلاح الدين ، وكان محثًا محسنًا لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسًا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُرَدون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيًا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون يدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فسادًا ، وتسوّل لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في فقة فيضانه ، فسلبت المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يومًا مشهودًا ، تفتى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء المالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسراً ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقاءهم والمرض يثقل عليه وحُمِلَ إلى مصر في حَفَّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمهله المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مَرَّقَهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بين الأسمرى يُجرِّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرماً على أكبر حملة صليبية وُجِّهت إلى مصر باغتيال ممالكك أبيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فافتدى نفسه وفلول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئاً ذليلاً .

واجتمع رأى الممالك على تولية شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق الممالك على أن تلى شئون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقرض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسَّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتاكب العسكر وأن يتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صبيّاً أويبياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى الممالك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزيحوهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن نَرَاها وجَمَاها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

المماليك - العثمانيون

(١) المماليك^(١)

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء المماليك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيين لم يتعظوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المماليك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيبك قائدهم . وظل المماليك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما المماليك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء المماليك ويتزولونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المماليك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت المماليك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيبك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى . وحدثت جروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

(القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص وروص للسويطي (طبع فينا) والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للشخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المالكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

(١) انظر في المماليك السلوك والحطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداً والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للشخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة المماليك لابن زنبيل ونشرى الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شكّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعهد قُطز إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بيسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأعراس والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار هولّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، وبقسّم شرفها بحق قُطز وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المين ظن أن قُطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطز لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتبه لظهور أمير عباسي بدمشق فر من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بنى العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يطله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آباؤه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم الممالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملاً إلى مكة سنويًا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائماً إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام .

وظل طوال حكمه يُعِدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصدف وتبين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفاء والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الزها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر بيبرس ذاهباً آيماً من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضياً ، وظل العمل بذلك جارياً في عصر المماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجداً كبيراً بالقاهرة لا تزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعَدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وأُلقت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تريد فيها إيماناً بفروسيته الخارقة . وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنه لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابعاً له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزمًا وعزماً وتديباً وبأساً ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مراراً وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورماً ما بها من شغب . وتوفى سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعاً وبطلاً مغواراً ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسّر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فأثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيदा وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتظهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خليلاً على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كاتباً نائباً له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجع كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فساداً . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشاً كثيفاً سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقاً ، وتولّى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطة ويخشي الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطنته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حباً شديداً ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قدمنا ، على الصليبيين نهائياً ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصاراً حاسماً ، وعقدوا معه صلحاً سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبنائه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثياً . ويكنى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهوس وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاماً ، وكثير منهم كان صبيّاً ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سوّلت لحاكم قبرص بطرس لوزيجنان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولّى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكى .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطأخوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديباً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ ورسباى وحققم وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفى سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعدها عن الحكم وهى سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . ويكثر في زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . ويهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تتارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليداً أومرسوماً بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حاة وحمص وبعليك ، وكان مالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة يهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صوره ابن عريشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجاً إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبَيِّن في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويغ ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبيعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومراً بنا غزوا حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحاء ، وعادت الحملة بفنائم وأسرى كثيرين وبهاكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبّل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم أن يؤدى لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حرياً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات والمنازعات بين أمراء المالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء المالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يتراءى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمالك بالخطر الجسم ، أولها خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ما كانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

في جنوبي الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغوري نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، ارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

تهدد مصر خطرًا أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم يعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوي بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة قاتلته فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوي سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغوري كان يد معه حلقا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غالبًا عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى شمالي سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالي حلب سنة ٩٢٢ تال الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار ، ولم تكن تنقص جيش المماليك عة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يدع للمماليك مصر ويكتفي بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باي عليه أن يترك مصر له وللمماليك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة . ولكن طومان باي أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحس بتخاذل المماليك من حوله ، بينما سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها وانجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باي بالقرب من ية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وقرَّ طومان باي . ودخل سليم في اليوم التالي وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسَلَّم طومان باي بعد قتال عنيف أما هو ففرَّ إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلَّم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . انتهى حكم المماليك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون^(١)

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المماليك حتى الرخام كانوا يتزعمونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جُرِّدت مصر من علمائها وقنّانها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبة سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أوشيتنا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من المماليك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار (مدير الخزانة) والروزنامجي (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المماليك أو كبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا (نائب الوالي) والدفتردار والروزنامجي ومدوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

القومية في مصر وظهور محمد علي لعبد الرحمن الراجعي ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرابية والخطط التوفيقية لعلى مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٤٦/٨ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨.

(١) انظر في العثمانيين آخرة المماليك لابن زنبيل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول للإسحاقى وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى والحملة الفرنسية وظهور محمد علي لمحمد فؤاد شكرى والجزء الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير يعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلى إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقاً : اسماً تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسئى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضاً لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف الملتزمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعترضونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصيبون عرفاً لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويُرهبونهم من أمرهم عسراً ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه . وزاد الأمور سوءاً أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاماً وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاية بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئاً من مال ، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن تعرف أنه حكم مصر حتى مجئ نابليون مائة وخمسون والياً عثمانياً .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقوى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشؤون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيماً لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا مناظراً أو مائثاً للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد وماليكه أن كانوا أحياناً يعزلون الولاية ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بداً من حمل حقايبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م . وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر و خاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالي العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يرُدَّ لها استقلالها وحريةها ، وظل شيخا للبلد ، يولَّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد ستين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على المشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل مجاهدتها جهاداً عنيقاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشئون الحكم .

لم يعرَّ هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مظامعه الاستعمارية ، وما زالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومي . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجبه التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد علي سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدعوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجتمع (١)

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كرم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخاطون سكانها لا في مدنهم فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصرى . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . ويجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أوساط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرّ ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومى وكافور الحبشى القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط . ويمد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدّيها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم ومبيد النعم للسيسى والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة والمجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في العصور الوسطى لستالى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاية والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسميه عن القسطنطين والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند القندسى وابن حوقل وناصر خسرو والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالى في ابن حلكان والخلف للقرزبى والجزءين الثالث والرابع من صحح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن ممان وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب . وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينس ودبيق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الدقيق مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنظرون ، وأيضاً على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . ومما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خير رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شئ كثير . فأخذته المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريتها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القضاة موضع الزهد والتقصيف إذ يذكر الكندي في كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون في سنة ٢١١ رسم لقاضي الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحياناً قحط أو أوبئة أو تدمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التي يفرضها بعض عيال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك في الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص في رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء في مصر ، فهي تملج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت توجر ، ويوجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهي من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروي الكندي أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحياناً بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولا بد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبي الليث الخوارزمي قاضي المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء : وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضي لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناءها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف في لحنه . وكان الناس يخرجون للتزفة في جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسي لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّناً بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر في حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازماً بعيد النظر ووفاء بالبيعة ، فألقى عن كواهلها كثيراً من الضرائب التي كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقل بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأعدت عليه من طبياتها ، فكُون جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج القسطنطينية وقطائع لساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامع الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبنى بیمارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعْمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل ستة بعد نفقائه مليون دينار ، وخلف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خجرويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خجرويه يفرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عيون المياه وتنحدر إلى فساقى يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقِي سائر البستان ، وسرَّح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة ، وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياهم ومغنياتهم وعلى رؤسهن الأكايل من الذهب والجواهر المرصعة . وجعلت فى هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خجرويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ التُّدَى حين زَوَّجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملة دكة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أفرط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خجرويه - كما مرَّ رأينا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج ووزير خجرويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤديه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتحلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاها ، ويفضل ثرائها استطاع أن يعيد لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعده بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كاهور الإخشيدى . وكانت مصر تتم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خنارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيم وحاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من يصب السماط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .
وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلى . وكانت المكوس تُفرضُ على
كل شيء حتى قال المقرئزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجسبى من
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والنطرون . وكانت تُفرضُ
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعدُّ بالمئات في الفسطاط والقاهرة ، وعلى الخوانيت ، ويذكر
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيهما نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الخانوت يتراوح بين دينارين
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التي يدفعها أهل الذمة .
وكانت - كما يقول ابن نمانى في كتابه قوانين الدواوين - تُفرضُ مكوس على المتاجر الصادرة
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العرُوض أو البضائع . وكانت هناك جبوس كثيرة أو بعبارة
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في
القرن الثانى - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسي : « هى الإقليم الذى افتخر به
فرعون على الورى .. أحد جناحى الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، منصره (يريد الفسطاط) قبة
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراتهُ تُعمَّرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ، وبِرّه يعمُّ الشرق
والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره فى الخافقين ، حسبك أن
الشام - على جلالتها - رُستاقه (قراه) والحجاز - مع أهلها - عياله . »

وطبعي أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل فى مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية
وزررائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تملك يورث وإقطاع
استغلال يمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويروى أن يعقوب بن كلس أول وزراءهم
بمصر كان راتبه فى العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم فى أوائل القرن

السادس الهجري الأفضل بن بدر الجمالي ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقايق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجماليس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حول كل أموال مصر في عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكي في عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحقا كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النيل والقحط ، كما مر بنا في عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريرا إلى رخائها الذي أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكفي لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمي ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئزي : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق في الآخرة » .

ولعل في كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبدخ في أيام الدولة الفاطمية ، ويذكر حديث المقرئزي وغيره بملايس الخلفاء وعمائمهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة في أثاثهم وأواني طعامهم وفي قصورهم وبساتينها وأروقها وأقنيتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو في القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور في نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقانا في كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار في سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، ومما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدر ، تُوجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فلمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا في النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجناني

والأجير والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنا حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسى كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتون وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزىن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والساجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما الساجات فأشخاص يتراءون فى صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكى نفر منهم شعوبا أجنبية وكان ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاحى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، وردت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يتقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خفف الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتنع شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُتفقُ فى الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين كسبى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعدّر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخلفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأضحية من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يعنون بالعمران ، مما أنعش الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتبئس وغيرها . وقد عنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الري عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلّى بها الإمام فى مجمع حقل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أُنخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها يجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده هوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعَن

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسمة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية مجربهم مع الصليبيين وما كانت تَسْتَفِيدُ منهم من أموال ضخمة . ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر بما عُرِفَ في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طَهَّرَ جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والخواطئ والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاة المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عَيَّنَ قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمِّيَ في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز ويعروضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المالك ، ويكسبون مصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وما وراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتتمزق دولته . وتُعَدُّ أيام المالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فآرئين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أديباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأديباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موثلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامه . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المالك البحرية والبرية ، وقد ظلوا محافظين على طبيقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المحلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعِدُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء المماليك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مربنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المماليك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرب بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المماليك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئى . ويعجب السبكي في كتابه معبد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يبدل لآدمى عليه . وكأما حرم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المماليك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذى يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المماليك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور وبنظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التى يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا ازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشرط الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضاً فإن الجبوس. أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضوع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدراً أساسياً من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُضمُّ إليها ضميمه أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلاً ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشاخنة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للترهه فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأربكية وكان يمر بها قديماً ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للترهه بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و«خوى» أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحايبية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثُر من يتورطون فى تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاحيمهم حينئذ النرد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً تاماً ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاحيمهم سماع سيرة عنزة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يودى ثمناً باهظاً لمرحه ولهوه فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يجتاحون دياره . وثُغمت سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلاً ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان ووصولاً إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جردّها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهزة صناعاتها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من نُحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حينئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثانيون والمماليك يعتمرون خيراتها وطيباتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والضنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ليوسف الشربيني وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جرأ فظع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القريش (الخالي من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكاهي يحمل كثيرا من السموم .

٥

التشيع : الدعوة^(١) الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن مصر دخلت في بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاة من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتنقة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية ، وبرزها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم

الإسلام لجولدتسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المنجي) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربي) وكذلك الهمة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة في

في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن تردت معهم إلى المغرب. وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقومون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومرّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرّ بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القدّاح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعايتها هي لعبيد الله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالمنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدّ حدودها شرقاً إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعلى وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصي لسلفه طبقاً للترتيب الإلهي في خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «على منى بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تتابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثانٍ قرره هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرّاً أو علانية وجهاً، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويبدلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه وبوالونه أصدق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرّئين من الذنوب مطهّرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما ينتقل في أصلابهم - حسب اعتقادهم - من نور الله يتقى أرواحهم

وَيُخْلِيا من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنا أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال يتقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستلدين بمثل قوله تعالى : (وكذلك يَجْتَبِيكَ رِبْكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خُصَّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يقضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يُدْعَمُ عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهي في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعلا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح على عقلا فعلا . ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصيح مثله عقولا كلية مديرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يدعون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى فى المسيح . وزعموا أن الله - جَلَّ جلاله - ينبغى أن يتره عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - يزعمهم - إن أسماء الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

سمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى نية التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس كتابه « مطالع الشموس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يتخلو منه زمان يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يتأنس إلى معرفته بالحدود والصفات كان للخلق إلى معرفته وضول . » وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذي لا يحدّه الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعرف إلا بأسمائه وصفاته . لا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سؤلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد إلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طفق الكيل قُتل في ضواحي فاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوماً إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلغون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نوما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، الحكم إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام وجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بغض آراء خالفوا فيها لجماعة مثل المناذرة في الأذان بجي على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أيها إذا لم يكن لها خ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُغن بالدعاية كما عُني فاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام فهوها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعائها ، وللدعاة جميعاً رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب لأبواب ، ويليه الحججة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة يتلو على الناس علوم أهل البيت ويأقن وراء ذلك الدعاة والبقاء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تُقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سنيةً مبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها ثرا . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيِّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتنق مذهباً من مذاهب الشيعة، فضلاً عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

٦

الزهد^(١) والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ؛ وما أهواماتها إلا رموز ضخمة لديها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في خطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من الجون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زبئداً أوقشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوي المادى وتعلق بما عند الله من المتاع الأخرى الروحي .

وابن خلكان وابن شاعر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغري بردى وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الجبري وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة وإبراهيم الدسوقي وأحمد البدي في دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقصة للكندي ، والمغرب ، وحسن الحضارة للسيوطي ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني . وكذلك كتاب لواقع الأنوار ، والخطط للمقرئ في الخانقاهات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويري ترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل وأخبار الحكماء للقمطى وتهذيب ابن عسكرو

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتبذ طياتها ، وأقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنيفة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يحتم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم العزني صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السرجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة » . ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبناً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدها اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصَلَّأها بغير فراش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعاً التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السري بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرهم بالمعروف ويعارضون السلطان في امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر . ويروي الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكان التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجري . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفي ، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هي من الصُّفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجح القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفيا بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طئناً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجري حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصري أستاذ أبي تراب النخشي المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصري المتوفى مع أبي تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمي . كان أوحده وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه في أول حياته فتمتلمذ لليث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والتسك فتمتلمذ لشُقْران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - في العالم الإسلامي . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذي يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودانما كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين . يمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقته عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفي على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره الهجویری في كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمر الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيري في رسالته والهجویری في كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازي شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخراز وهو أول صوفي تكلم في الفناء وسهل بن عبد الله التستري شيخ الحلاج الصوفي المشهور . وفي ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر في التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفي بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيّتها وهو بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيّتها أبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد في المغرب قسم القسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيراً ما كان يلم بأبي سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء في خشوع متبركاً به .

وتدخل مصر في أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطني ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفي هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة في المشرق : في العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم في الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيري والغزالي إلى خطورة هذا الصدع في بيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملاً بقوة على رأيه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدّى الفرائض والسنن الدينية ، ولا بد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بنينا مرصوفا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دارعبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ ، ورُتب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردى فلسفي ، واتجاه جماعي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجده وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رفع حقيقته الحمدي لواء يتجمع حوله المسلمون ليسدوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المنزع الصوفي الفلسفي الفردي المنزع الصوفي الجمعي ، وقد هيأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نخصى في القرن السابع طويلا حتى يتزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي دُمِّرت في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حاسة ملتجة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويعدُّ المقرئ من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهي أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعائة صوفي ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوي وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى لها مسجدا وحماما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخاري وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاها بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعوثن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنسك وكانت ترتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاها الأطلعة والخلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعيا أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسعت في رعاية المتصوفة وولتقى في أوائلها بأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفائية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وولتقى بإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوي المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقریزی إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المالك الطريفة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحفنى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له في غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها وزد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمرديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تتلاشى إرادته في شيخه تلاحيا تاما وفي ذلك يقول الشعرانى في كتابه : « لواقح الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقي : « المرید مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المرید شيخا ، وكانوا يرسلون بالمریدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون في وطنه وفي الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة في نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاهاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون في معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها ، وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا في وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة في الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة في كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يخشونهم ومحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم وينفّذون لهم ما يريدون . وبما يدل على مكاتبتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السنّي وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزيب دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغني الحسني من الأسرة الحسنية بينع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مسرّاً إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خانقاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا ووسعت كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سمّوا بالمجاهيب وال دراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي ان لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنّية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشعراfi المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفي والسنّي ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السنّي وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا غيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الأستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه تَوًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينس بينت شفة . ويقول الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفني قطب رحي الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحي والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرقي بفن الزراعة وشرق الترع وتدبير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والحرف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلال الحروف الهيروغليفية التي اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها في الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجنوة المتقدة لا تخمد مهما تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شرا كثيرا من هذه الجنوة في عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعائة ألف كتاب أو أكثر . وطبعي أن تكون اليونانية لغة الدولة هي نفسها لغة العلم في تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرق المكتبة في أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرابيوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى ينور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرابيوم ويهدموه ويدمروا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية في مصر أى عناية ، فقد عدّوها مخزنا يدمهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة في لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس في الإسكندرية » (١) .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتاحها ، فقد دحضَ هذا القول بتلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقَت تاريخيا في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف (٢) ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أي أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرّدون لإقراء المسلمين القرآن وعرض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والحدّثين والفقهاء

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح

العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

(٢) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١) بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتوى فيما يجادلهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدّثين ، وكان يُسندُ إليهم الوعظ . وداًئماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدّثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(٢) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(٣) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكوّن بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفي بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدّثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدّكبه الأعيان والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذا سعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان والي أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخولاني القاضي ألف^(٤) دينار كل عام ، ومربناً في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القضاة الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا ثراء طائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدبر عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويًا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرًا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدّثين والفقهاء^(٥) . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفًا ثانية ومن رجلين آخرين ألفًا ثلاثة^(٦) . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة / ١ / ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان / ٤ / ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان / ٣ / ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة / ١ / ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٩ .

بأمواهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أعباس^(١) (أوقاف) . وكان طبيبات مصر وخيراتها صبّت في حجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيا للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه . وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي ، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقهاء واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسبغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورّش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوغا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدوّنة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويبيّن أحمد بن طولون جامعته المشهور ويرتّب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادي ومحمّل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢) . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة^(٣) . ولا بد أن عطايا مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدّثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ١ / ٢٧٩

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٢) عطل القرزي ٣ / ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصحيح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخارى وأبو داود ومسلم وابن ماجه والنسائي^(١) وأقام فيها الأئمة واتخذها مسكنا ودارا له ، وكان ينزل في زقاق القناديل ، وأملى بها سننه ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكامها يبرون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن جرير الطبري المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو في نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبي بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعي عن تلميذه : المزني والربيع بن سليمان المرادي إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعي إلى سمرقند عن المزني وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الروياني المحدث وله مسند . جاءوا جميعا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يموتهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار^(٢) . وإذا كان طلاب العلم تُعَبَّق عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُعَبَّق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعي في خراسان عن طريق أبي بكر بن إسحق النيسابوري ومحمد بن نصر وأيضا عن طريق عبدان المروزي الذي تفقه على المزني والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطي إنه هو الذي أظهر مذهب الشافعي في خراسان^(٣) ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعي المصريين أبو القاسم الأنماطي عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه في بغداد والعراق

(٢) معجم الأدباء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة

٣١٠/١ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكي (طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ،

أبو العباس بن سُرَيْج^(١) . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لافي الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس^(٢) . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تخرج منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٣) . ويمضي السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتمضى مصر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٤) . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمة هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطرداً في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إثناء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُعَدَّق على العلماء ويجزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يمليه فيه على الناس ، وعُني بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٤ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم القسطاط) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطْنِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانته في تأليف مسنده مع من كان يُعينه فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالغ ابن حنّابة في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير^(١) .

وظل ابن حنّابة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعي ومثله يقوم على ذلك أن تمضى في النمو والنشاط . ومن نزل مصر حينئذ السعودي على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقبلا بها حتى لبى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتباً لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٢) الذي كانوا يتخذونه مقراً لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقهاء مالكيين التدريس في هذا الجامع^(٣) ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجرى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين^(٤) ، مما يدل على أنه نشأت حينئذ حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يروى من أن العزيز عُني بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف^(٥) ، وكان أمينه القائم عليها الشابشي^(٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، ومائة نسخة من معجم الجوهرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعنى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز

٢٥٠/١ نقلًا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠١/٤ والخطوط ١٢٨/٢ .

(٦) ابن خلكان ٣١٩/٣ .

(١) ابن خلكان ١/٣٤٧ ، ٣/٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣/٣٦٣ والخطوط ١٥٧/٣ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنفائس المجلدات في الحديث النبوي والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزم من المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضي الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلال الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين^(١) . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحَقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب^(٢) . وإنما نُصِّبُوا على إزال المصاحف لجلالها ، ولا بد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وَتَوَسَّسَ في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمِلَ إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوي على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئ « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِلَ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَفْقِيَّةً كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين دينارا سنويا . ومن المؤكد أن الحاكم كان يبتغي بهذه الجامعة أن تكون مركزا للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيسا لها أحد دعاة من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعي المشهور وأكبر حُفَّاظ

(٢) . لخطوط ٣ / ١٤٦ ، ١٦٣ .

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطوط

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجبالى إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلى بالله الخليفة الفاطمى بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذى كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعلى . غير أن الجامعة أودار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية (١)

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أسست إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجد جامعها كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسى الذى زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بن العاص سنة مائة مجلس وعشرة (٢) للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً (٣) ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بُدأً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ لأى لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ للإمام مالك (٤) ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخجل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن على بن النعمان كبير قضاته ، ووُلّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذى أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة المخطوط

ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر المخطوط ٣١/٣ .

٢١٨ ، ١٩٤/٢ .

(٤) المخطوط ٢٧٥/٣ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ هـ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارقي ، ولم يلبث أن سفك دمه ^(١) . وإذن فقتل الحاكم لجماعة من أهل السنة ليس دليلا كافيا على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يُتَّقَى ولا يذَر من كبار دعاة وقضاة ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد ^(٢) الفقهاء المالكية من مصر أي الفسطاط سنة ٤١٦ هـ . ويتنص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون عليا وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آباتنا وأجدادنا منكرنا من القول وزورا ، ونسبونا بخلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفزع إلى مالا يبلى بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضالّين » ^(٣) . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفيهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ هـ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جدا ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا ^(٤) » . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزا كبيرا للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، ينزلها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، وينزلها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلا بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ هـ والمولود سنة ٣٥٤ هـ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ هـ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ هـ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ هـ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ هـ ثم عاد سنة ٣٨٢ هـ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس ^(٥) . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ هـ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره ^(٦) . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدوا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ هـ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ هـ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٥) ابن خلكان ٢٧٤/٥ .

(٢) المخطوط ٣١/٣ .

(٦) معجم الأدياء ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الداني في

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد المنعم بن غلبون الحلبي

(٤) حسن الحضرة ٢/٣١٤ .

نزىل مصر .

الحديث في عصره. الإمام السُّنْفِي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الدَّبِيلِي المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائهم ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا » . ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعي حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندي يشهد لهم بذلك شهادة بيّنة إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(٢) » . وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوما .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترصّون أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم : ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيّنوا على رأس القضاة فقيها شافعيًا هو أبو عبد الله محمد^(٣) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ١ / ٤٠٤ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .
(٢) صبح الأعتنى للقلقشندي ٣ / ٥٢٠ .

شافعيين أو مالكيين . ويتولى الوزارة بدر الجمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان وليي الأمر ومحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل (١) السنة ولا يتعصبان ضدهم . وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة : شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا (٢) . ويظهر أن هذا أصبح تقليداً منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥ .

وينزل في الإسكندرية السلفي أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه ، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر ، ويتولى الإسكندرية العادل بن السار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) . وكان شافعي المذهب مثل السلفي فاحتفل به وزاد في إكرامه وبني له مدرسة قوضت تدرسيها إليه ؛ يقول ابن خلكان : وهي معروفة باسمه إلى الآن أي في زمنه (٣) . وفي صبح الأعشى سجل^٤ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفي والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقداً أو غلة ، مع بيان أنه أعد لهم جميعاً فيها المثوى والمسكن . وبذلك يكون ما ذكره المقرئ وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح (٤) ، فقد كانت بها مدرسة السلفي المذكورة ، وكانت مدرسة سنية شافعية . ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذي كان لنظامية بغداد ، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى .

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى التحلل وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام ، وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي ، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب ، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم ، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته ، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب . وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة ، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوبا بها وخاصة بالحديث النبوي مما جعله ينزل الإسكندرية ليلتقاها على

(١) المغرب ص ٢١٦ .

(٣) ابن خلكان ١٠٥/١ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ .

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/٢٥٦ .

السلفى أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطروشى المالكى^(١) ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذاهب ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قُوض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية^(٢) . والمهم أنه رتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدنين ، فقد كان نظام الإجماعة معروفا حينئذ ، ورتب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكان كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فتح كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراءهم وأمرأؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقرري - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٣) . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفة توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقرري عن المدارس في الجزء الثالث من الخطط .

(٣) انظر حديث المقرري في ذلك بالخطط ٣/٣١٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكرب في تاريخ بنى أيوب ١/١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه : العزيز والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسباع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢/١٩ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقهاء المالكي بجانب المدرسة القمحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التي بناها له صاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقهاء الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأركشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقهاء الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤمنة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهي أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها بمصر بدراسة الفقه الحنبلي . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملة نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغري بردي أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رُبِّ لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة^(١) .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه في أي مذهب لا يتم تكمينه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمي ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفي ذلك يقول ابن جبير الذي زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال^(٢) » .

وكانت الإسكندرية في عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السُّلبي الشافعي ، ويبدو أن

(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدس) ص ٥٢ .

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرّساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ^(١) . وأخذت المدارس تعمّ مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية ^(٢) ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة ^(٣) ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية ^(٤) بها . ويبدو أنه لم تكن تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعاً الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بجامع العطارين الذي بناه بدر الجلى ، وظل به نشاط علمي وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والحملة وطنطا والمينا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعدّها المقرئ ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التي رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نساءهم وأمهاتهم ، وقد عدّ للشافعية منها أربعة : المدرسة ^(٥) الطبرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والجمالية والمهندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقبغاوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل النكوترية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذي زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣ / ٤٥٦ .

(٣) الطالع السعيد للإدقوى (طبع مطبعة الجمالية)

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر فيما يلي من حديث عن هذه المدارس خطط

المقرئ ٣ / ٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية ^(١) فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكين لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أهميات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبة لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرِّبع أو الحى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوًا بالدور والخوانيت . أما المدرسة المنصورية ^(٢) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرِّسا وثلاثة من المعيدين ومقرئا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبة لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقهاء القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرئا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أميئًا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب ^(٣) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكين لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرِكُهَا الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلبي نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثًا لإيملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة ^(٤) . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فغدا أكبر جامعة

(١) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣/٣٤٠ .

وما بعدها .

(٢) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣/٣٤٢ والسلوك

(٣) المخطوط ٣/٣٤٦ .

(٤) المخطوط ٣/١٦٠ والسلوك ١/٥٥٦ وما بعدها . للمقرئ (طبعة القاهرة) ١/٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠ .

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره ^(١) » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين ^(٢) سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتخفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبرس الجاشنكير بعارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب ^(٣) فيه دروسا لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرِك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحفيهما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية وأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسندهم إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهاني ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد نزها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والملكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يجئ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(٣) الخطط ٣ / ١٦٥ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقافا

كثيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(١) الخطط ٣ / ١٦٣ .

(٢) الخطط ٣ / ١٤٨ وحسن المحاضرة ٢ / ٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونَهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حرروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمتى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جديرٌ بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإنجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروىها أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دونه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيتها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستطرف » لمحمد بن أحمد الأبيشيى^(١) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبيشيى الضوء اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنفضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمي ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما أحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوا السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . ووجد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضي العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تنقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوداك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقبغاوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئ في خططه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغوري ، ومثل المدرسة السنانية ^(١) ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلطية والأشرفية ^(٢) ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا فضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادي صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمساني أكبر مؤرخي الأندلس ، وبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول . وعرّبت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاليته مؤلفاً أديباً مثل راغب باشا واليها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدي اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادي . وبذلك ظلت مصر في العهد العثماني المظلم حامية للتراث العربي المتبقي بها وراعية لعلماء العالم العربي ، بفضل مصابيح العلم التي كانت تضيء بها خاصة في الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى في العالم الإسلامي إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدّد الجبرتي شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن انتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا في أول هذا الفصل أن مصر أسهمت في نشأة العلم بمعناه العالمي سواء العلم الهندسي أو الرياضي أو الطبي ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسي ، وتشهد لعلمها الرياضي^(١) برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبي برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمي العالمي نشأ في ديارها ورقيا رقيقاً بعيداً^(٢) . وكان من الممكن أن تستمر مصر في حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبي ، واستطاعت أن تمصر البطلمة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فهضمت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس في القرن الثالث قبل الميلاد ، مكوناً بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّسُ كتبه في العربية وفي أوروبا حتى القرن الماضي^(٣) ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

(٢) ألدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لولدبورانت

. (نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميل (ترجمة الدكتور

عبدالحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم)

ص ٣٣ وما بعدها .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(١). وغزا نصر الرومان، كما أسلفنا، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيليني في العلوم. ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه «النظام الرياضي للنجوم» وقد سماه العرب «المجسطى» أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان. وله كتب أخرى منها موجز جغرافي، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٢). ويلقانا هيرون، وهو أرشميدس صغير كما يقال، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية، وتاريخه غير معروف من العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٣). ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفي كان تجديداً لفلسفة أفلاطون، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة. وظل نشاط مصر في الطب عظيماً، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتب بمقامه فيها بالإسكندرية، فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبيها والنوبة وبواديها^(٤)، وما لاريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً^(٥). وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرَّغ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكان حسب الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية^(٦). ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من «رأس عين» بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) للقفطي (طبع

ليدن) ص ١٣٢.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببوت) ص ١٥١ والقفطي ص ٧١.

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة

١١٠/١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦/٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥.

(٢) قصة الحضارة ١٠٦/١١. وألدومبيلي ص ٤٥

وما بعدها.

(٣) ألدومبيلي ص ٤٥، ٤٧ وقصة الحضارة

١٠٨/١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثله في القرن السادس للميلاد يحيى النحوى شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباي (١) . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكَت اليونانية لزمان الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرُّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرُّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستين قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران (٢) فعلة من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول مايرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتزلون بمصر وتفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي (٣) . فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينتقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه فعلا ينقل كتاب أهرود القس الإسكندري في الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرة كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطوقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(١) انظر مقالة مايرهوف في كتاب التراث اليوناني

(٢) الفهرست ص ٣٥٢ .

ص ٣٧ وما بعدها .

(٣) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح للحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً . والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبقريطيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده^(١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) يستدعي منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان^(٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدومبيلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أوعلماء - كما يقول - من القبط^(٣) . ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧ هـ) باتخاذ المارستانات^(٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مازستاناً جديداً أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه^(٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف^(٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط المقرئى : مارستان المفاقر ٣/ ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣/ ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١

وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبقريطيب

الإسكندري وابن أبقريطيب آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤

وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدومبيلي ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات (١) مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس (٢) بن جريج ، ويشئى كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعده عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالمى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور (٣) .

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نقّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر ألدومبيل أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطوائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكارينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل (٤) . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما سخاذا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمم فى بغداد والقاهرة وغيرها من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتنتيخ جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتنقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدومبيل ٢١١ ، ٢١٦

وبروكلمان ١٩٣/٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التتقيح في كتاب مستقل نوه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محتدما في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز واينه العزيز محمد^(١) بن عبد الله العتقى وأبى^(٢) عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفى المصرى ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تتقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وإنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول^(٣) منه ، وقد سماه الزيج الحاكمى الكبير ولم يلبث أن توفى سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو على الحسن بن الهيثم البصرى^(٤) ، وفرح الحاكم يقدمه وخرج للقائه على باب القاهرة . ولما وقف على خجل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب الجسطى في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبييعها جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويبدو أن نبوغه الفلسفى والرياضى والفيزيقي إنما تحقق في مصر التى اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » فى العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمى عالمى بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده فى الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بندروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء فى كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط فى الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السِّنْدِي من أنه رأى^(٥) فى خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطى ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطى ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم فى الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العربى ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ .

والدومبيلى ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطى ص ٤٤٠ .

(٣) انظر فى على بن عبد الرحمن الصدفى الدومبيلى

٢١٣ ، ٢١٩ ، وبيروكلمان ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ٣ / ٤٢٩

والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنيلنو ١٨٦ ،

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعضد الدولة البويهى .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضى متفلسف هو مبشر^(١) بن فاتك ، ويقول القفطى قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجرى لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمى وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم فى كل سنة^(٢) » ثم يذكر أنه فكر فى عمل مرصد ضخم فنشط فى إقامته ، ويذكر المقرئى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين. ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعى وأبا نصر تلميذ سهلون . وينزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبى الصلت المتفلسف والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النضر ، وقد ترجم لها القفطى^(٣) ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة فى القفطى^(٤) .

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى^(٥) بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى^(٦) وأحمد^(٧) بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان^(٨) بن عثمان وأعين^(٩) بن أعين ومنصور^(١٠) بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل إسحق^(١١) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١٢) وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

وبروكلمان . ٢٩٠/٤ .

(١) القفطى ص ٢٦٩ وابن أبى أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .

(٢) خطط المقرئى فى ذكر الرصد ٢٣٣/١

(٨) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٨ .

وما بعدها .

(٩) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ .

(٣) القفطى ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(١٠) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ .

(٤) القفطى ص ٤١٠ .

(١١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(١٢) ألدوميل ص ٢٤٠ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطى ص ١٠٥

مار^(١) بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثث ابن^(٢) رضوان توفي سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة وخمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه يكاتبونه ويرحل بعضهم إليه لظرفته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيبا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في جزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب ظنا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطباً وأعلم بالعلوم الحكيمة ما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه مقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ هـ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(٣) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان إلى^(٤) بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه راثيم^(٥) بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوقا بكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما ما يخبأ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب أتى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمّ بجمعها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في م وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر ، يقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ راثيم سلامة^(٦) بن رحمون الطيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسجع عن أطباء في العهد الفاطمي لافي القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطي ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ والدوميل ص ٤٨٨ وكلمان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطي ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ والدوميل

٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين^(١) بن منصور طبيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(٢) العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(٣) بن المعروف . ولحقت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن القاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتقدوا هذه الدعوة ، وكان دعواتها يلتفتون لتلاميذهم الفلاسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعواتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطي سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(٤) الدين الخونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بغض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(١) حسن المحاضرة ١/٥٤٠ والطالع السعيد للإدوفى

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/٥٤١ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرجع في عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر^(١) بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيهاً حقيقياً عالماً بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمر حاة نواعير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشاهق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظراً بالغ الروعة . وكان فلکياً مبدعاً ، فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن فى المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام بتأخذه مارستاناً ضخماً فى القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً^(٢) » ويذكر أنه عين له قِيماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وُضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسماً خاصاً بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسماً خاصاً بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستاناً آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان فى القاهرة وبغداد جميعاً كان دائماً مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثاً كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد^(٣) أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيساً على سائر المتطهين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(٤) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعبة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكخّال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون فى عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر فى قيصر حسن المخاضرة ١/٥٤٢ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدوميل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

١/٥٤٠ .

(٤) انظر فى ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي^(١) البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال^(٢) الدين ابن أبي الحوافر القيسي وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رياسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح^(٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون ، ويقول الدوميلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتار اکت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رياسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن^(٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتين لزمته ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدل قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقي الأندلسي بجهوه العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلإنها أتاحت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكون فيها علميا ، ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء . وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعي واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا^(٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

٥٤٢/١ وألدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٦) نشر كتابه « أزهار الأفكار » في القاهرة الدكتوران

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميلي ص ٣٢٢ ،

محمد يوسف ومحمود بسيوف خضاجي بالهيئة المصرية العامة

٣٢٦ .

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها وما بها من مراجع .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكوينه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١) بن بعزة الذهبي الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل ينزها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة^(٢) ، ويذكر السيوطى حشدا^(٣) من متفلسفيها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصهبانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصهبانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجي محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، وممن اهتم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبيجى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كنز التجار في معرفة الأحجار » ويقول ألدومبيلى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(٤) » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعتها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة في البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها في عصر المماليك يغدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانئ إيطاليا وغزورهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٥٣٩ وما بعدها .

(٤) ألدومبيلى ص ٣١٤ وما بعدها .

(١) انظر فيه ألدومبيلى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحييط لأبى حيان ٥/ ١٤٨ - ١٥٠ في

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للوصول إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد^(١) بن موسى الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ ، وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنّ المعماري وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس ، وفي مبانیه يقول ابن تغرى بردى : « بُني في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبني في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات^(٢) » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثر من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لانزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . ويتوّه السخاوي بمهندس مصري بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولوني ، ويقول : « كان المول عليه وعلى أبيه في العمائر السلطانية^(٣) » . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم^(٤) الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل مصر نشاطها زمن المماليك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة^(٥) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشذرات ١٠٩/٧ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدوميل ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة في النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ والشذرات ٥/٣٢٧ وأيضا ألدوميل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الدميري حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧/٧٩ والبلد الطالع ٢/٢٧٢ وألدوميل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦ .

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربي ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلتصقين بالظاهر بيبرس مثل شهاب^(١) الدين بن فتح الدين القيسي ورشيد^(٢) الدين أبي حليقة النصراني . وما يلبث أن يلي السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بیمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البهارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا^(٣) » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحي ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلتقى فيها دروسه على طلاب الطب^(٤) . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعيدَ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذكر أن مجبّاه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم^(٥) . وتلقانا في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التي كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة^(٦) المهديّة نسبة إلى منشئها الطبيب مذهب الدين محمد بن أبي حليقة المار ذكره في عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبي أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(٧) .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب^(٨) ، ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطبيب شمس^(٩) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠/١

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٦) خطط المقرئى ٣/٣٧١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

(٨) خطط المقرئى ٣/١٤٨ .

(٤) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ .

(٩) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

وما بعدها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبعة الأزهرية)

ويكنى لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمانه علاء الدين على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمانه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدومبيلي وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمانه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المهذب في الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن^(٢) المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجري . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(٣) بن الأکفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمذ « كشف الغين في أحوال العين » وله كتاب في الطب المترلى سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجور في المكتبة الهندية . واشتهر بعده في طب العيون صدقة^(٤) بن إبراهيم الشاذلى ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . وبما يدل على شهرة مصر لأيام المماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(٥) . ويظل هذا النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقى في زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قدم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/٤٤٣ وما بعدها .
 (٣) البدر الطالع للشوكاتى ٢/٧٩ وانظر ألدومبيلي ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .
 (٤) ألدومبيلي ص ٥١٠ .
 (٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/٣٧٧ والسبكي ٨/٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/٤٤٢ والشذرات ٥/٤٠١ وتاريخ ابن الوردى ٢/٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/١٣١ وألدومبيلي ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليوبجى عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام الماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما ألف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر^(١) بن المنذرين بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين : الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثا فرونر. ولأيدمر^(٢) الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقبل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الديمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان^(٣) الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . وينوّه الجبرى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن^(٤) أفندى قطعة ، فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرى بأبيه في الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(٥) الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاويل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كثر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(٤) الجبرى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرى ١٦٤/١ .

(١) ألدومبيل ص ٥٠٥ .

(٢) ألدومبيل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وينوه طويلاً بمجسّم^(١) المحلي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنّفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد^(٢) بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبرتي في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبرتي وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفاً مثل شهاب الدين بن سلامة^(٣) القليوبي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي^(٤) داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبرتي وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجري يراه يذكر طبيياً يسمى قاسم^(٥) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبرتي يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذي مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائماً طوال أيام العثمانيين ، وظل قائماً معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من الماليك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية . ولعاصره محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(٦) سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتابه التاريخة وحشده فيها كثيراً من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالها

(٥) الجبرتي ٢/٥٤ .

(١) الجبرتي ١/٢١٩ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ترجمة

(٢) الجبرتي ٢/١٢٥ .

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

والنشر) ١/١٦٨ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في الفسطاط نُقح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مليء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محاصيل وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابين سليم ^(١) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئى وابن إياس مرارا . وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهدها إلى العزيز الفاطمى سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان ^(٢) .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعى ^(٣) كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر ^(٤) بن عبد الرحمن الإسكندرانى المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب ^(٥) . وينزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد ^(٦) اللطيف البغدادى ويُعنى بتأليف كُتِّب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمّا أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

للعماد الأصبهانى (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وبغية الرواة
للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ١/٢٢٢ .
(٥) انظر كراتشكوفسكى ١/٣٢٣ ومقدمة وستفلد
للجزء الخامس من معجم البلدان .
(٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ١/٣٤٥

(١) كراتشكوفسكى ١/١٩٢ وبروكلمان ٤/٢٥٣ .
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز
ترجمة د . أبى ريده ٧/٢ - ٨ .
(٣) كراتشكوفسكى ١/١٦٩ وابن خلكان ٤/٢١٢ .
(٤) انظر مقلمة كتاب معجم البلدان وخريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن^(١) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه النويرى^(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها فى الحركة العلمية التى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل^(٣) الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها فى الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية فى الغرب والشرق . وتتم الدولة فى هذا القرن الثامن بعمل روكت أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك^(٤) الناصرى سنة ٧١٥ فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر فى القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى فى أوائله بابن دقاق^(٥) والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى^(٦) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى^(٧) تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاختبار بذكر الخطط والآفار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

-
- (١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .
- (٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .
- (٣) انظر مراجع ابن فضل الله فى ترجمته بالفصل الخامس .
- (٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .
- (٥) الشذرات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .
- (٦) انظر مراجع القلقشندى فى ترجمته بالفصل الخامس .
- (٧) الفوه اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكافى ٧٩/١ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .
 ويعنى خليل^(١) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة المالك في كشف الطرق
 والمسالك » يرسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المالك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع
 الهجرى بابن الجيعان^(٢) المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف
 لرحلة السلطان قايتباى في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف في سفر مولانا
 الأشرف » . وينتهى الجغرافيون في العهد المملوكى بابن^(٣) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠
 وله كتاب « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفضائه على مر
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر في عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم
 يعد أبناؤها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المالك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد
 العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا يتعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا
 إذ نجد ابن^(٤) زينبل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والراغب لما فى
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلتقى فى القرن الحادى عشر بالسهنورى^(٥)
 محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة
 أسماء البلاد : أطولها وانحرافاتهما ، وتبدو الرسالة كأنها زيغ صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية
 الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضناه مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى
 الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى^(٦) أسعد اللقيمى الدمياطى
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

- (١) الفوه اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .
 كراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى
 ٤٧٥/٢ .
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة
 المعارف الإسلامية .
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى
 لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .
 (٦) انظر فيه تاريخ الجبترى ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع
 كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأُنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الحنبلي ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني جغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرسَي البصرة والكوفة بها . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القسطنطينية والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١) الرحمن بن هُرْمُز الأعرج تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزول الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطرداً طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارسهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجم في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل القسطنطين سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحد بالقسطنطين يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في القسطنطين من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماما في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيرا من أشعار العرب^(٢) .

(١) راجع ابن هرْمُز في أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٢٨١/٤ وإنباه الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته (١) ويحدث بها ضرباً من الغناء في حياتها اللغوية إذ كان لغويًا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والمدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « التوارد في اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذي سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويوزر مضر ابن جرير الطبري في العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه (٢) .

ونلتقى في القسطنطينية في أواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد (٣) التيمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شياً كبيراً من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التي تكثف بالغيرب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على (٤) بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع النخل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغويًا لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المتضد في اللغة ، وهو معجم كبير رتب على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه الجرد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعجم الثلاثة مفقودة ، أما المعجم الرابع فسماه المنجد ، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر في القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما في معجم العين للخليل . ولم تُرد في ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرابعة كما هو معروف في المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى في معجمه تهذيب اللغة - في

(١) انظر إنباه الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ .

(٤) راجع ترجمة الهنأى في إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

ومعجم الأدباء ١٣/١٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٣/١٨ .

(٣) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزمخشري في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشري أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كراع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد^(١) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد^(٢) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحويًا ولغويًا ماهرًا ، ولم يكتف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤبة رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسنرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمدود ، وهو معجم لما مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكراع النمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماء كثيرًا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسَّر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوَّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجوزع وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تهر في لغات العرب^(٣) » ومثل صالح بن

١٠١/١ ومعجم الأدباء ٤/ ٢٢٤ وابن خلكان ١/ ٩٩ .

(٣) البيتية ١/ ٣٩٥ .

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٤/ ٢٠١

وإنباه الرواة ١/ ٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صحب المتنبي وروى شعره ^(١) ». وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي ^(٢) بن أحمد المهلب اللغوي المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى في كتابه « الرد على ما في المقصور والمدود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت في ترجمة المهلبى إنه كان إماما في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم النجيري كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان زاوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفا ، وتلميذ ثان له يسمى جنادة ^(٣) اللغوى ، وسرى عما قيل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة في رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفي المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أى في القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى ^(٤) تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحماة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجم . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المغز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لها كتباً ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبته على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والطاء وكتاب معان فى شعر المتنبي وكتاب فى المآخذ عليه .

تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى عن أبى أحمد العسكري كتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .
(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) اليتيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنن ٤١٤ ، ٤١٥ .
للمسبحى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .
(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأوباء ١٢ / ٢٢٤
وابناء الرواة ٢ / ٢٣٢ .
(٣) انظر ترجمة جنادة فى معجم الأوباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف^(١) النجيرى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محققين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للدويان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنعته فيه ، إذ أخرجها فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر^(٢) بن شاذان اللغوى البصرى نزيل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضبعان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيرى ، وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيرى عن إبراهيم النجيرى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيرى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعتها إحكاما لا يكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيرى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويطرد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على^(٣) بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١ .

(٣) انظر فى ابن القطاع مجمع الأدباء ١٢/٢٧٩ وابن خلكان ٣٢٢/٣ وإنباه الرواة ٢/٢٣٦ وما به من مراجع .

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيرى ابن خلكان ٧٥/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسمعان فى النجيرى والشذرات ٣/٧٥ وغير الذهبى ٢/٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة

وانتخبها دار مقام له وتصدّر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام وانتخبه الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره بجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّي^(١) عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوام الخواص » للحريري ، وأن له كتابا لطيفا في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّا على أبي محمد بن الخشاب ، ردّ فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريري مع نقد ابن الخشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشي على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشي فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ينبري أيضا حواشي على كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريفة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجمع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان^(٢) بن بنين الدقيق المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتّابين كتابه : « اتفاق المباني وافتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١ / ٢٤٤ وفي بغية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّي معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب ٢٧٣/٤ وبغية الوعاة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض ، والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن^(١) منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوي عربى ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير ، وهو معجم تنوع به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهي الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٣) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهري في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مرارا بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإنباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة) ١/ ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

(١) راجع ابن منظور في نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر

الكامنة ٥/ ٣١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٣٤ والبقية ص ١٠٦

وفوات الوفيات ٢/ ٥٢٤ والوفاء ٥/ ٥٤ والشذرات ٦/ ٢٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرود وشاذ . ويتحدث عن تَقْبَلُ روايته ومن تُرَدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المنتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب^(١) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريرى . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، ويزورها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزلها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمني المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبي نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلمائها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروزابادى . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرتي تقاريف كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتبع لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتبع لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب الزهر للسيوطي .

ومرَّ بنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤيدين أخذت تتكاثر في القرنين التالي والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نخاتها من أبنائها ونزلاتها في مقدمتهم ولاد التميمي الذي مرَّ ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد^(٢) بن جعفر الدينوري نزيل القسطنطينية المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقرَّ بها صنف لطلابها كتابا في النحو سماه المهذب ، وعنه حملة المصريون . ويلقبانا في زمنه محمد^(٣) بن ولاد أنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٢٢

ومعجم الأديب ١٩ / ١٠٥ وإنباء الرواة ٣ / ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأديب ٢ / ٢٣٩ وإنباء

الرواة ١ / ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأرخش^(١) الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء^(٢) نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة^(٣) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومر بنا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره التي أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٤) لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحوئي^(٥) على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العليل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً^(٦) - التزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول النفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره الدلاكر^(٧) النحوي

(٥) انظر الحوئي في الأوصاف للسمعاني الورقة ١٨١
ومعجم الأوباء ٢٢١/١٢ وابن خلكان ٣٠٠/٣ وإنباه
الرواة ٢١٩/٢ والشذرات ٢٤٧/٣ .

(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .

(٧) إنباه الرواة ٨/٢ .

(١) انظر الأرخش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣/١٢
وابن خلكان ٣٠١/٣ ومعجم الأوباء ٤٦١/١٣ وإنباه
الرواة ٢٧٦/٢ .

(٢) انظر كتابا المدارس النحوية ص ٣٣٠ .

(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .

(٤) إنباه الرواة ٣/٢٣٠ .

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ^(١) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علماءها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجماع عمرو بن العاص في الفسطاط . وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتزع منتزع البغداديين^(٢) في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٣) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي . وأكبر نخاعة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برى^(٤) الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجماع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولى نحوى المغرب والأندلس ، وقد دون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو ببغدادى^(٥) التزعة في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نخاعة المصريين لزمته . وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومرّ بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الألباب في شرح الكتاب » . ونزل مصر يحيى^(٥) بن مَعْطَى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجماع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها الفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإنباه الرواة ٧٨/٣ والشنرات ٦٢/٤ ورمّة الختان ٢٢٥/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن مَعْطَى في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ .

والبنية ٤١٦ والشنرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٢/١٧ وإنباه

الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشنرات ٣٣٣/٣

ورمّة الختان ٩٨/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على ^(١) بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى بعلي ^(٢) بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزنجشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب ^(٣) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمل ، وكتابه الكافية في النحو والشافية في الصرف طارت شهرتهما في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسهما للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليهما الحواشي والشروح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضي الإسترابادي . وينزع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية ^(٤) ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وتلتقى في أوائله بأمين الدين الحلبي ^(٥) محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين ^(٦) بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان ^(٧) هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين ^(٨) ويتصدى

- (١) راجع ابن الرماح في البغية ص ٣٤١ .
 (٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدباء ٦٥/١٥
 وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباه الرواة ٣١١/٢ والبغية
 ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨ وحسن
 المحاضرة ٤١٢/١ .
 (٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان
 ٢٤٨/٣ وطبقات القراء ٥٠٨/١ وطبقات الذهبي ٢٠١/٢
 والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٢٣٤/٥ والبغية
 ص ٣٧٣ وبر وكلان ٣٠٨/٥ .
 (٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .
 (٥) حسن المحاضرة ٥٣٣/١ .
 (٦) بغية الوعاة ص ٦ .
 (٧) انظر أباحيان في الدرر الكامنة لابن حجر
 ٢٨٠/٤ ٣٠٢/٤ والبغية ص ١٢٦ ونكت الحميان ص ٢٨٠
 وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢
 وفوات الوفيات ٥٥٥/٢ والشذرات ١٤٥/٦ ونفع الطيب
 (طبعة دوزي) ٨٢٣/١ .
 (٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمانه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم ^(١) الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه تُنسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حينئذ أكبر نحاتها ابن هشام ^(٢) جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فجّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيبويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعراب » وهو في جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بثّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يهيج في النحو متهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن ^(٣) عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدماميني ^(٤) الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنِي الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما ^(٥) بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حينئذ الشيخ خالد ^(٦) الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كلييات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع

١٥٠/٢

(٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج٧ رقم ٦٥٥

والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج٢ رقم

٦٦١ وشذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والحطط الجديدة لعل مبارك ١٠/٥٣

(١) البغية ص ٢٢٦

(٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٧

والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع ٤٠١/١

وكتابتها « المدرس النحوية » ص ٣٤٦

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والبدر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتها « المدارس النحوية » ص ٣٥٥

(٤) انظر الدماميني في الضوء اللامع ج٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منفتح الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جنى كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب همع المطامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلافاً للنحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بدیعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(١) على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين ، ومن أشهرهم في القرن الحادى عشر الشنوافى المتوفى سنة ١٠١٩ واللدنوشى المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر^(٢) البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزانة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية فى أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية فى الجاهلية وصددر الإسلام ، وتمضى إلى القرن الثانى عشر فيلقانا الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى^(٣) المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . و نلتقى بالصبان^(٤) محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى تهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر فى أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب مجده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ سماه المتصف^(٥) فى بيان سرقات المتنبى . وهو بذلك أدخل فى مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبرق ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجبرق ٢/٢٧٧ والحلطة التوفيقية ٣٠٦/٣ .

(٥) انظر فى هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبى عند

العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني فى الضوء اللامع ٥/٦

وشذرات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ١/٤٩١ وفيه

أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر فى عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر

٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكتب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين ، تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفني الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي أُلّف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لعل^(١) بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الحمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دازت على السنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس ، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيهية للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكّدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُتداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . وبلغنا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ .

وفوات الوفيات ٢ / ١٠٦ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم^(١) بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومقائمه الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزبن عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجواز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة الجواز في الذكر الحكيم ، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزبن عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أدبيا وعُنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فيعدُّ أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتبين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدماء وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلاني والجواز للشريف الرضى والموازنة للآمدى والوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيقي وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزخمشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهما وققها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه : « معالم الكتابة » طبع بيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠

وشنرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السيد للإدقوى ١٦٠

تحرير التعبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدائي ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسوق إليه أو مدخول عليه ^(١) . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتركار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وَتَشْغَلُ مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد ^(٢) بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فواتحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أني مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمته شيئا من القواعد المنطقية والمعاهد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كثيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠
وشنرات الذهب ٦/٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١
وإنباء الفمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١ .

(١) نفحات الأزهار على نسبات الاسحار (طبع

دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن الماليك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّ بنا آنفا - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده ^(١) . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فصلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجحلاً - عرضنا له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقد بما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يتبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه للغوى لبيت وقع عليه عفاها هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته ^(٢) كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » ^(٣) . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمنزلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشييعهم له ، مما جعل العميدى ^(٤) محمد بن أحمد كاتب

(٣) العمدة لابن رشيق ٢١٦/٢ .

(٤) انظر العميدى في معجم الأدياء ٢١٢/١٧ وإنباه

الرواة ٢٤٦/٣ وبقيّة الوعاة للسيوطي ١٩ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدياء ١٢/١٣٣ .

الإنشاء في دواوين القاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم « الإبانة عن سرقات المتنبي » وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير ، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية .

وماتزال مضر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله ، و ماتزال معنية بالمتنبي ، بل إنها تمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي . ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(١) لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل ، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي . ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان ، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار ، يقصد حكمه البديعة . وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه « ليس من أهل اختياره ، ولا من الفواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخّارة ، وأسوده زّارة ، ومعدن تيره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة ، يطمع ويؤنس ، ويوحش ويؤنس ، وينير ويظلم ، ويصبح ويعتم ، شذرة وبدرة ، ودرّة وآجره ، وقبلة بجانها لسعة » ، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي ، وهو نقد دقيق ، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق ، فصنعه ، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي ، يقول : « ولولم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه ، وهو يهب أشعار هذين الرجلين نها قبيحا ولا سيما ابن المعتز » . وينوّه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بآبن المعتز والبحترى . وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك ، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجا^(٢) من هذه الرسائل المتبادلة بين الأديبين الكبيرين ، إذأورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل بيت ابن سناء الملك :

صليبي وهذا الحسنُ باقٍ فرما يُعزلُ يئتُ الحسنُ منه ويُكنسُ

لذكره فيه كلمة « يكنس » المبتدلة ، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله :

(٢) انظر صبح الأعشى ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢ .

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وقوامي مثلُ القنّاة من الحنّاطِ وحنّدي من ليحّتي مكنوسُ

وكانه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصري في العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسي ، فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربي ، وستحدث بشيء من التفصيل عن ذلك في الفصل التالي .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد في زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة^(١) على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدرر في نقد الشعر » وهو في نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدي في كتابه « الغيث المسجّم » الذي وضعه في شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدي في نكت المهيان « متعتنا تعنتا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بشوكِ القنّاة يَحْمُونَ شَهْدَ رُضابِها ولا بُدَّ دون الشَّهدِ من لِبْرِ الثُّحْلِ

يصف في البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترب من حماها لبأس قومها وخشية من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت^(٢) . وقال إنه أراد أن يمدح قوم صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذي جعله كفن مبيته لأنه جعل طعن رماحهم كلبز النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدي قائلا : أما كونه يدعى أنه لا ألم في لبر النحل ولا ضرر في الزنابير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس في لبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنوراليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح القوم بلبر النحل فهو لم يعقد في البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر في ابن جبارة نكت المهيان ص ٢٠٨ وبقيّة

(٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم (طبع مطبعة

بولاق) ١ / ٢٢٤ .

الوعاء ص ٣٢٩ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شهما فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بلزاء^(١) بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضى الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرَى الضيوفَ شعاعَ نِيرٍ أحمرٍ فشعاعُ ذلك التُّبرِ نيرانُ القِرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليتهدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر ، وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك في أن النقد الأدبى المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته^(٢) يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل^(٣) من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة^(٤) نقدية

(١) الغيث المسجم ١/ ٢٦٤ وانظر ١/ ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب

(٤) انظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتدال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وولتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه «ريحانة الألبا» الذي ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثاني لحمل قراءة إمامها نافع الذي طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامي حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢) عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية ، وإليه انتهت رياضة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٣) الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطي : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجري تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء ، كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذي جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبي عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائي أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلَّف كتابا في اختلاف السبعة^(٤)

وطبقات القراء ١/٣٨٩ .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٤) حسن المحاضرة ١/٤٨٨ وانظر طبقات القراء

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ١/٤٨٥ وطبقات

٣٠١/٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

القراء ١/٥٠٢ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١/٤٨٦

المذكورين ، وقد أحصى السيوطى ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامى . وأول من نقف عنده عبد^(١) المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونمضى في القرن الخامس فنلتقى بعد^(٣) الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن^(٤) بن محمد البغدادي المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل^(٥) بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه «العنوان» . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصرى وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٦) ، ونلتقى في القرن السادس بابن الفحم^(٧) شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بابن^(٨) بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٩) الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته «حِرْز الأمانى» المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عنى بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(١٠) السخاوى المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصرى طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .
 (٧) راجع في ابن الفحم حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .
 (٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .
 (٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الهيمان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .
 (١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨ .

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .
 (٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .
 (٣) انظر في الطرسوسى حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .
 (٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .
 (٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جلال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن^(١) بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلاء . ويتوالى التأليف في القراءات وولتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب^(٢) اللابن القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن المالك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكلين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفا من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف في القراءات لزمن العمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف في زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يعنى بعرض أقرارات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف في جوانب منها ، فقد ألف كتابا في الناسخ والمنسوخ وكتابا في الوقف والابتداء وألف كتابا - كما مر بنا - في إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة في هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان في علوم القرآن لبدر^(٣) الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان في علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير ، وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت في الإسلام حتى تفهم

(٣) انظر في الزركشى الدرر الكامنة ١٧/٤ وشذرات الذهب ٣٣٥/٦ وحسن المحاضرة ٤٣٧/١ وإنباء القبر بأبناء العمر ٤٤٦/١ .

(١) انظر في الصفراوى حسن المحاضرة ٤٥٦/١ وشذرات الذهب ١٨/٥ .

(٢) راجع في القسطلانى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ والشذرات ١٢١/٨ والبدر الطالع ١٠٢/١ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَاطَها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكرم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس ^(١) . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها . وتظل مصر معنيةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدقوى ^(٢) محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن نلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى ^(٣) السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزبن عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك وملتقى بالقرطبى ^(٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن ^(٥) المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نخب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨

وشذرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .

(٥) راجع ابن المنير فى الديباج المذهب ص ٧٨

وشذرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١

وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

(١) الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ٢٢٣ .

(٢) انظر الإدقوى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن

المخاضة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .

(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥

ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشذرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .

(٤) انظر القرطبى فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بثّها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن ^(١) النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ . وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد ^(٢) العزيز الديريني المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم ^(٣) العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقي نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذي انتقل إلى حفيده ، وله كتاب في الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر في التفسير .

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداؤه في الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » مطبوع في ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع في جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب ^(٤) الشريفي المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتعرج مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزول الصحابة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبه بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرم صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته في القرن الثاني الهجري ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر في العلم العراقي حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت الهميان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع في الخطيب الشريفي شلرات الذهب

. ٣٨٤/٨ .

(١) انظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديريني في حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن هبة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله^(١) بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البويطيّ وحرملة والمزنيّ والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن جِزّابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فاجاء مصر ليعينه ، تمّول ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد^(٢) الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشتبه النسبة .. وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الحبال^(٣) الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفى^(٤) أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبني له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مر بنا ، وقوّض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨/٣ .

(٣) راجع فى الحبال حسن المحاضرة ١/٣٥٣ .
 (٤) انظر فى السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦
 وطبقات الحفاظ له ٢/٣٥٥ وابن خلكان ١/١٠٥ وتذكرة
 الحفاظ وأزهار الرياض ٣/١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن
 عساكر ١/٤٤٩ والسبكي ٦/٣٢ والأنسب ٣٠٢
 وشذرات الذهب ٤/٢٥٥ وطبقات القراء ١/١٠٢
 وميزان الاعتدال ١/٦٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيراً فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوبى مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١/٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٨٦ وبروكلمان ٣/١٥٥ .
 (٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧/٢٩٠ وابن خلكان ٣/٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ وشذرات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي^(١) بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثا عن أربعين شيخا .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث^(٢) الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد^(٣) العظيم بن عبد القوي المصري الشافعي المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطي إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحرا في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قِيما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبِعَ مرارا . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الديمياطي^(٤) شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذه معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن^(٥) جماعة الشافعي المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثارة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشائية ، صنّف تخريج أحاديث الإمام الرافي الشافعي وغير ذلك . ويعنى بشرح البخاري غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي^(٦) المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطي له أكثر

-
- (١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٤٧/٥ .
- (٢) ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبنا بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .
- (٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١ وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .
- (٤) راجع في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١ وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكامنة ٤٨٩/٢ .
- (٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر الكامنة ١٢٢/٥ .
- (٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر الكامنة ٣٥٧/١ .

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجه ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . وبلغنا بعده الحافظ ^(١) العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخرىج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألّف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجه إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخريجاته تعد بالعشرات ^(٢) . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومر بنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرئى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحفنى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرئى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمايطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه وكتاب الموطأ لمالك ومستند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك ^(٣) . » ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلّ حفاظه النابهن يعدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسحاوى ٤ رقم ٤٥٢

المحاضرة ١/ ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرئى ١/ ٢٨٩ .

وحسن المحاضرة ١/ ٣٦٠ والشذرات ٧/ ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

أبي حنيفة، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة، وكان مقرَّباً لهارون الرشيد؛ أن يكون القضاء في الدولة العباسية أحنافاً. وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(١) بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة. ولم تلبث مصر أن أُنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر، وكتبه تُعدُّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة. وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار. ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣) بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر، وتولى القضاء بها. ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطي^(٤) بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية.

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيفية لتدريسه. وقد عين بها عبد^(٥) الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤. وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٦) الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن الحنن، وقد ظل يدرس بالسيفية حتى توفي سنة ٥٩٩. ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٧) الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢. ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطي المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٨) القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣. وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر بيبرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، فكان لكل مذهب

(٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ١/٤٦٤ والجواهر المصنفة ١/٣٣٠.

(٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ١/٤٦٤.

(٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ١/٤٦٤ وشذرات الذهب ٤/٣٤١.

(٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ١/٤٦٥ والجواهر المصنفة ١/٣٥٢.

(٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ١/٤٦٥ والجواهر المصنفة ١/٣٠٤.

(١) انظر في بكار حسن المحاضرة ١/٤٦٣ وابن خلكان

١/٢٧٩ والجواهر المصنفة في طبقات الحنفية ١/١٦٨

وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩.

(٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٢/٥٤

والمنتظم ٦/٢٥٠ وحسن المحاضرة ١/٣٥٠ وابن خلكان

١/٧١ وطبقات القراء ١/١١٦ والجواهر المصنفة

١/١٠٢ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢/٢٨٨.

(٣) انظر في إسحق الجواهر المصنفة ١/١٣٦ والفوائد

قاضييه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا في مدرسته الظاهرية وأول حنفي درّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسيوفية لؤلؤ^(١) بن أحمد وأبو بكر^(٢) بن محمد الإسنوي . ومن قضاتهم النعمان^(٣) بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويُحْتَمُّ القرن السابع بابن التقيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابيين أحمد^(٤) بن إبراهيم السروجي المدرس بالسيوفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وابن^(٥) يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن^(٦) التركاني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد^(٧) المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى^(٨) المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي^(٩) المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كنز الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كنز الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقانا السراج^(١٠) الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن^(١١) أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية

-
- (١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/٢ والجواهر المضية ٤١٦/١ .
(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .
(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضية ٢٠١/٢ .
(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضية ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .
(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضية ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،
(٦) انظر في ابن التركاني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضية ٣٥٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر الكامة ٤٩/٣ .
(٧) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكامة ٦/٣ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ٦٦/١ .
(٨) راجع في ابن أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضية ٣٦٦/١ .
(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضية ٣٤٥/١ والدرر الكامة ٦١/٣ .
(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضية ١٤٩ وإنباء الغمر ٢٧/١ .

المثبوت في الهوامش . وتلتقى بأكمل^(١) الدين البابري المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البردوي .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية ، حتى وصل ، إلى^(٢) ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . وتلتقى بالقاسم^(٣) بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٤) بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كتر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلالي المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكتر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث^(٥) بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للمجيب ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والتجويد الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر الذهبي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في البابري حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البنية ١٩٥ ولبناء العمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشذرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب له جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفا ، وعبد^(١) الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد قرّع على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم .
ومن تلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٢) ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد^(٣) الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٤) المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث^(٥) بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثماني سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعدّ السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيا اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٦) بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٧) المعافري قاضيها

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والوافي بالوفيات ٣٣٨/٣ والشذرات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .
(٥) انظر في الحارث رفع الإصر عن قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .
(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والديباج المذهب ٣٧ .
(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والغبر ٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهديب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشذرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .
(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .
(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي ٣٦٦/١ وابن خلكان ٣٤/٣ وتهديب التهديب ٢٨٩/٥ والشذرات ٣٤/٢ .
(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والديباج

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكّر^(١) الأسواني قاضي مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين، وقد عدّ السيوطي من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها، منهم أبو^(٢) بكر النعالي إمام المالكية بمصر في وقته. وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقة في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. توفى سنة ٣٨٠. ومنهم أبو القاسم^(٣) الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك. ونزل بالقاهرة القاضي عبد^(٤) الوهاب فقيه بغداد المالكي وكان شاعراً بارعاً، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرائكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمانة، واجتاز بمجرة النعمان بلدة أبي العلاء فأضافه، وله في الإشادة بفقهاء وبشعره:

إذا تفقّه أحيا مالكا جدلا ويُنشَرُ الملك الضليل إن شعرا

والملك الضليل: امرؤ القيس. وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانثالت في يديه الرغائب. ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا. ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو^(٥) بكر الطرطوشي نزير الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له في السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطاحي هما سراج الملوك وسراج الهدى. ومن تلاميذه سند^(٦) بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه في حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة. وكان يعاصره أبو القاسم^(٧) بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية، تفقّه به أهل الثغر زمانا.

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٨) إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشي المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته في المذهب، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

(١) راجع في أبي الذكّر حسن المحاضرة ٤٤٩/١
والطالع السعيد للإدري ٣٦٤.

(٢) انظر في النعالي حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج المذهب ٢٥٨.

(٣) راجع في الجوهري حسن المحاضرة ٤٥١/١ والعبر ١٧/٣.

(٤) انظر في عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والعبر ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٤٤/٢ والشترت ٢٢٣/٣.

(٥) راجع في الطرطوشي حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والصلة لابن بشكوال: ٥٤٥ والمغرب ٢٤٢/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣.

(٦) انظر في سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ١٢٦.

(٧) راجع في ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١.

(٨) انظر في أبي الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ٩٥.

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومربنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاءه حينئذ ابن شاس^(١) عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين^(٢) بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفئيا وفي وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوي الذي مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بلور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣) بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل .

ونمضى في زمن الماليك ، وولتقي بابي حفص عمر^(٤) بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٥) الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي^(٦) شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/٤٥٧ والديباج المذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/٣١٦ والديباج

المذهب ٦٢ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع

دار الكتب) ١/٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/٨٦ وحسن المحاضرة ١/٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة ١/٤٥٦ والديباج المذهب ١٦٧ .

المثير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إماماً فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج^(١) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ . وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي^(٢) بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ . وله قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن^(٣) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلفية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي الملائم . وكان يعاصره الزواوي^(٤) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رياسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل^(٥) بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه^(٦) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وولتقى بالبساطي^(٧) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ . وله القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المالك وفي أيام العثمانيين . ومن اعلامهم في القرن الحادي عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

- (١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعراي ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والخطط الجديدة لعل مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب ٧٠ وتشرنات الذهب ١٩/٦ والدرر الكامنة .
- (٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ٤٥٨/١ والدرر الكامنة .
- (٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والديباج المذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٣٥٥/٤ .
- (٤) راجع في الزواوي حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والدرر الكامنة .
- (٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ٤٦٠/١ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٢٥/٢ ونفخ الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .
- (٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ٤٦١/١ والضوء اللامع ٢٠/٣ .
- (٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ٤٦٢/١ والضوء اللامع ٥/٧ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . ولتقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني^(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم على^(٢) بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من يخدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى^(٣) مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهبه الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مر بنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة من الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البويطى والمزنى ، أما البويطى فهو يوسف^(٤) بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد في محنة القول بخلق القرآن ، فأصر على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى^(٥) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١/٦٩ .

(١) راجع ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١/٤١٤ .

(٢) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات

الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٢/٥٦ ومعجم الأدياء

١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

تهذيب التهذيب ٩/٢٥ وصفة الصفوة ٢/١٤٠ وحلية

الأولياء ٩/٦٣ وألف كثيرين في سيرته ومذهبه قديما

وحديثا .

(٥) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١/٦٩ .

(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١/٤١٤ .

(٣) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات

الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٢/٥٦ ومعجم الأدياء

١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

تهذيب التهذيب ٩/٢٥ وصفة الصفوة ٢/١٤٠ وحلية

الأولياء ٩/٦٣ وألف كثيرين في سيرته ومذهبه قديما

وحديثا .

أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في
 الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمشور والمسائل المعتمدة وكتاب الوثائق
 وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه . ومن
 كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة^(١) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء
 مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة
 هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاء
 الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره
 بين أهل الحديث ومنصور^(٢) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب
 من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق^(٣) الروزى إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل
 القسطنطين وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر
 المزني ، وانتقل إلى القسطنطين وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرى إليه أكباد
 الإبل . وكان يعاصره أبو بكر^(٤) بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضي القسطنطين ،
 وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع
 المولدات الذي شرحه كثيرون . ونعنى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطي عشرة من
 الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي^(٥) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى
 سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم
 رسولا . وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم
 الحلبي^(٦) علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغني بين البسط والاختصار .

١/٣١٣ وتذكرة الحفاظ ١٠٨/٣ والعبر ٢/٢٦٤ وابن
 خلكان ٤/١٩٧ والوفاي ٢/٦٩ والشذرات ٢/٣١٧ .
 (٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/١٥٠ وابن خلكان
 ٤/٢١٢ والوفاي ٣/١١٦ والسيوطي ١/٤٠٣ والشذرات
 ٣/٢٩٣ .
 (٦) انظر في الحلبي السبكي ٥/٢٥٣ والعبر ٣/٣٣٤
 والسيوطي ١/٤٠٤ والشذرات ٣/٣٩٨ وابن خلكان
 ٣/٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة السبكي ٣/١٩٦ والسيوطي
 ١/٣٩٩ والعبر ٢/١٢٣ والشذرات ٢/٢٣٩ .
 (٢) انظر في منصور السبكي ٣/٤٧٨ والسيوطي
 ١/٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطين)
 ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/٢٨٩ ونكت الهيدان ٢٩٧
 ومعجم الأدباء ١٩/١٨٥ والمتنظم ٦/١٥٢ .
 (٣) راجع في الروزى تاريخ بغداد ٦/١١١ وابن خلكان
 ١/٢٦ والسيوطي ١/٣١٢ .
 (٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/٧٩ والسيوطي

وربما كان أهم منه مجلي^(١) بن جميع قاضي القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله في الفقه مصنفات أهمها كتابه الدخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعي ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوض القضاء بمصر للشافعية ، فامتد نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبوشاني^(٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله في الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية في عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقي المصري المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقي ، وله شرح على كتاب المهذب لأبي إسحق الشيرازي أول مدرّس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا في عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد^(٣) الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضي قضاة الشافعية في عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان^(٤) في قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبي إسحق الشيرازي ، توفي سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد^(٥) بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده في زمن الأيوبيين العز^(٦) بن عبد السلام وقد مررنا في الفصل السابق حديث عنه مع المالك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلي ، ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوض تدرّس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن المماليك إذ توفي سنة ٦٦٠ وله في الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومررنا أن له تفسيرا وكتابا في مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطي من فقهاء الشافعية زمن المماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر في عثمان السبكي ٣٣٧/٨ والسيوطي ٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .
 (٥) راجع في ابن عين الدولة السبكي ٦٣/٨ والسيوطي ٤١٢/١ والعبر ١٦٢/٥ والشذرات ٢٠٥/٥ .
 (٦) انظر في العز السبكي ٢٠٩/٨ والسيوطي ٣١٤/١ والشذرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ورمّة الجنان ١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجم الزاهرة ٢٠٨/٧ .

(١) راجع في مجلي السبكي ٢٧٧/٧ والسيوطي ٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن خلكان ١٥٤/٤ .
 (٢) انظر في الخبوشاني السبكي ١٤/٧ والسيوطي ٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤ والشذرات ٢٨٨/٤ والنجم الزاهرة ١١٥/٦ .
 (٣) راجع في ابن درباس السيوطي ٤٠٨/١ ورفغ الاثر: ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن (١) دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد (٢) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، دُرِّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القمُولي (٣) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر (٤) الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وولتقى بالزركلوني (٥) أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم الفع به وشرح ثان على المنهاج للنووي . وكان يعاصره سليمان (٦) بن جعفر الإسني المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . وولتقى بتقي (٧) الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشرح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مرَّ ذكره بين البلاغين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوي للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد (٨) الرحيم بن الحسن الإسني المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

٤٢٥/١ والدرر الكامنة ٣/٣٦٧ وفوات الوفيات
 ٣٥٣/٢ ونكت الهيمان ٢٣٥ ومراة الجنان ٤/٢٨٧
 والنجوم الزاهرة ٩/٢٩٨ .
 (٥) انظر في الزركلوني السيوطي ١/٤٢٦ والشدرات
 ١٢٥/٦ .
 (٦) راجع في سليمان السيوطي ١/٤٢٩ .
 (٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية
 ١٠/١٣٩ وانظر في ترجمته السيوطي ١/٣٢١ والدرر
 الكامنة ٣/١٣٤ .
 (٨) انظر في الإسني السيوطي ١/٤٢٩ والدرر الكامنة
 ٢/٤٦٣ .

(١) راجع في ابن دقيق العيد السبكي ٩/٢٠٧
 والسيوطي ١/٣١٧ والشدرات ٦/٥ والدرر الطالع
 ٢/٢٢٩ ومراة الجنان ٤/٢٣٦ والروافي ٤/١٩٣ والطالع
 السعيد للإدقوي ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/٤٨٤ والدرر
 الكامنة ٤/٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .
 (٢) انظر في ابن الرفعة السبكي ٩/٢٤ والسيوطي
 ١/٣٢٠ والشدرات ٦/٢٢ ومراة الجنان ٤/٢٤٩ والدرر
 الطالع ١/١١٥ والدرر الكامنة ١/٣٠٣ .
 (٣) راجع في القمُولي السبكي ٩/٣٠ والسيوطي
 ١/٤٢٤ والدرر الكامنة ١/٣٢٤ والشدرات ٦/٧٥
 والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/٢٧٩ .
 (٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/١٣٩ والسيوطي

ويلقانا ابن^(١) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفا ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني^(٢) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطى . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطى حديثه عن فقهاء الشافعية . ويعد السيوطى نفسه خاتمهم الحقيقي إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق فى الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها فى ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وولتقى بالشيخ زكريا^(٣) الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله فى الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

وغضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف فى الفقه الشافعى ناشطا . ومن كبار الفقهاء فى القرن العاشر ابن حجر^(٤) الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر فى أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربى الخطيب الذى مر ذكره بين المفسرين ، وله فى الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسليمان البحرى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجربى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملى^(٥) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلا ، ويعلل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية العالية ، ويقال إنهم اضطهدوا فى أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى^(٦) الجماعلى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام فى معالم

(٤) راجع فى ابن حجر الهيثمى مقدمة فتاويه والشذرات اللامع ١٠٠/٦ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١٠٩/٨ .

(٥) انظر فى الرملى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ١١٩/٢ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩/٤ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى فى قسم الشام ص ٥٨٤ .

(١) راجع فى ابن الملقن السيوطى ٤٣٨/١ والضوء اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر فى البلقيني السيوطى ٣٢٩/١ والضوء اللامع ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧ .

(٣) انظر فى الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع ٢٥٢/١ والنور

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولؤلف العمدة كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيباً المزي جمال الدين يوسف بن الزكى وأكمل التهذيب مُعْطَاى الذى مرَّ ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع فى مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودراسته فيها إيواناً بجانب أووين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهريبيرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، فى تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأُسرى على نحو ما مر بنا فى صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى فى حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته فى مصر مثل نجم^(١) الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر^(٢) بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق^(٣) الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر^(٤) الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين فى قضاء الحنابلة ثم استقل به ستاً وعشرين سنة ، وعهاد^(٥) الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنَّف تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزى . ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد^(٦) بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرَّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة فى الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطاً بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبْرِقى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى^(٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة فى المذهب ، ومنها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفاً بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى فى كتب التراجم من حين إلى آخر

٦ / ٣٤٣ والدرر الكامنة ٥ / ١٦٣ وإنباء الغمر ١ / ٤٦٦ .
 (٥) راجع فى عاد الدين السيوطى ١ / ٤٨٢ والضوء
 اللامع ١١ / ٦٦ والشذرات ٧ / ٤٢ .
 (٦) انظر فى الكنانى السيوطى ١ / ٤٨٤ والضوء اللامع
 ١ / ٢٥٠ والشذرات ٧ / ٣٢١ .
 (٧) خلاصة الأثر ٤ / ٣٥٨ .

(١) انظر فى نجم الدين السيوطى ٢ / ٤٨٠ والشذرات
 ٩ / ٤٢٨ والمتهل الصافى ١ / ٢٧٢ .
 (٢) انظر فى عمر المقدسى السيوطى ١ / ٤٨٠ والشذرات
 ٥ / ٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨ / ١١١ .
 (٣) راجع فى موفق الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات
 ٦ / ٢١٥ .
 (٤) انظر فى ناصر الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١.

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومرَّبنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان^(١) بن منصور التيمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأُسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد^(٢) الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهويذكر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد^(٣) في الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان ١٦٧/٦ والشترات ٤٧/٣ ومرآة الجنان ٣٧٩/٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .
(٢) أنظر في حميد الدين بروكلمان ٣/٣٥٥ ومقدمة

ومرّ بنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف^(١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مرارا وتكرارا ، ولشمس^(٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولجاء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم يتشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري . . . وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها^(٣) . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبقار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥ والشذرات

٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومرة الجنان

٢٠٨/٤ .

(٣) خطط المقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكي

٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥ والشذرات

١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال

٢٥٩/٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع أوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُتبت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد^(١) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنما لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة الحمديّة . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد^(٢) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبطي هو سعيد^(٣) بن البطريق الذي تقلد منصب بطريق الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفى سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصراني وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٣ / ٨٦ .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ٣ / ١٧٧ وشرح سيرته للسهيلى المسمى الروض الأضيق : مقدمته ، وعبر الذهبي ١ / ٣٧٤ والسيوطي ١ / ٥٣١ وإنباه الرواة ٢ / ٢١١ .

(٢) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٤٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٧٧ وما بهما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد . ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في ليننجراد في القرن الماضي .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣ / ٣٥ والسيوطي ١ / ٤٤٦ ، ٥٥٣ ، والديباج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذيل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد^(١) بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢) بن أحمد بن يونس الصديقي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغزاة الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وولتقى بمحمد^(٣) بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وولتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن^(٤) زولاقي الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيديو المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى^(٥) بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصديقي ، كما يلقانا الروذباري أحمد^(٦) بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماه « بلشكر الأدياء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاقي في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان ٩١/ ٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩١ .
 (٥) أنظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وأنظر بروكلمان ٦/ ٨٤ .
 (٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .
 (٢) راجع ابن يونس في السيوطي ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ٣/ ١٣٧ وفوات الوفيات ١/ ٥٢٦ والشوات ٢/ ٣٧٥ وعبر الذهب ٢/ ٢٧٦ .
 (٣) انظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية . وبروكلمان ٣/ ٨٢ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسبحي ^(١) الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيران إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ . ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على ^(٢) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي . وللرشيد ^(٣) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى الفسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . ويجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبد العزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مذائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وولتقي بالقرطبي محمد ^(٤) بن سعد الذي ألف لساور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله تحفة الظرفاء في أخبار الأفياء والخلفاء إلى الظاهر لإمهزاز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ . ويُظن أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١٦٠/١ ومعجم الأدياب ٥١/٤ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ٢٠٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ والسويطى ٥٤٠/١ .
(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧ .

(١) أنظر في المسبحي المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٣٧٧/٤ والسويطى ٥٤٤/١ والوفى للصفي ٧/٤ والعبر ١٣٩/٣ والشذرات ٢١٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٤ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧. وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠.

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين تلتقى بأبي صالح الأزمني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥. ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلَميُّ المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثرت ترجمة العلماء لشييوخهم ، مما يلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد^(١) بن أسعد الجَوَانِي الحسيني ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه. قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المتقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرّ بنا ذكر الحافظ عبد الغنى بين الحنابلة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي^(٢) علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في لبيزج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونمضي إلى زمن الماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير، ويلقانا المكين^(٣) بن العميد، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب الجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأهل العربي في ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وتُرجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر^(٤) تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتابات المسبّحي

(١) ١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .

(٢) انظر في الجواني الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١

(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف

ولسان الميزان ٧٤/٥ .

الإسلامية .

(٤) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٥/١٧٥ والطلع

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٥/٢٣٧ وفوات الوفيات

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولابن^(١) الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وجرى بنا أن نذكر هنا ابن^(٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محي^(٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون « باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار^(٤) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا ، وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزاءه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية ، وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار ، وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . وملتقى بالحافظ ابن^(٥) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدقوي^(٦) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ ،
٤٢٥ والبدر الطالع ٢/٢٤٩ والنجوم ٧/٣٥٦ وطبقات
القراء ١/٣٨٦ والدرر الكامنة ٤/٣٣٠ والسبكي
٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدقوي السيوطي ٥٥٦/١ والشذرات
١٥٣/٦ والدرر الكامنة ٢/٧٢ والبدر الطالع ١/١٨٢

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ٦/١٤٦ .
(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء
الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .
(٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في
ص ٤١٥ .

(٤) انظر في الدوادار الدرر الكامنة ٢/٤٣ والشذرات
٦/٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين^(١) المماليك . وتلقى بالحافظ مُعلطى المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجة في المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكي يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل معايه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن^(٢) الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق^(٣) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزء من الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثنى عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بروقوق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق في السيوطى ١/٥٥٦ والشذرات

(١) بروكلمان ٦/١٤٦ .

٧/٨٠ والنصوة اللامع ١/١٤٥

(٢) انظر ابن الفرات في السيوطى ١/٥٥٦ والنصوة

اللامع ٨/٥١ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر بقوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ولتقي بالمقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - مصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستاتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكري بتاريخها السياسي والاجتماعي والروحي والحضاري ، إذ حوّل المقرئ التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله تعاطف الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقفى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر^(١) الذي مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف في التراجم ، وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة ، وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى^(٢) بردي المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردي في الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر في السيوطي ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البيية للكتنوبي ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي محمد مصطفي زيادة

أنوار الدين الخفيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال
 أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل
 زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ،
 بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأعمراء والعلماء والأدباء في
 العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع به
 أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سؤق كثير من الطرائف الأدبية
 والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتاب
 المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو
 ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والهند
 والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأعمراء والوزراء والقواد
 والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ،
 وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في
 تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبيثوث في هوامش هذا الجزء . وولتقى بشمس^(١) الدين
 السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع
 وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على
 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئى ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثانى ابن حجر :
 رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة حياته .

ويتوج السخاوى هذا النشاط التاريخى العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »
 وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن
 التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ،
 وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والخلقية والشؤون الاقتصادية وأيضا الشؤون السياسية بما يدفع
 إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شؤون الجيش ، وبالمثل الشؤون الاجتماعية
 وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغى أن يتوفر في

والشذرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر
 للعيدروسى ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) أنظر في السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع
 وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة لغازى ١/٥٣

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويظيل في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . ويُنجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويبسط الحديث في نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو مبعوث في الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، ومسالك الخفا في والدى المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي . ويُحتمُّ زمن الماليك باهن إياس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما ألحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلمائها وصناعاتها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقى به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شمالي الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعراي المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادي عشر الهجري زين الدين بن أبي السرور البكري محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولما كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد ^(١) الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاق محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . وولتقى بنور ^(٢) الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهي مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب ^(٣) الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ربحانة الألقاب ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موثلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نضح الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣

(١) راجع المناوى في خلاصة الأثر ٤١٢/٢ والبدر الطالع ٣٥٧/١ .

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى في ص ٤٥٩

(٢) راجع نور الدين الحلبي في خلاصة الأثر

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفي عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان في الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب في الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الروماني . وطبيعي أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة في الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن ، فقد طردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطي الذي غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت في الزوال . وازمحلّت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية في الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفي كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية^(١) ، وسرعان ما هُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت في العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان في البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة - نشر دار الفكر العربي) للدكتور محمد كامل حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١٨١/١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التي نشرها جرومان في مواضع متفرقة وهي صادرة عن الولى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتناور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها للغوى وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة^(١) ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكياً لهوميروس أو غيره من شعراء اليونان^(٢) . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر باللسنة القبط عاماً بعد عام .

وعاملان قويان أخذوا يعملان بسرعة على تعرب مصر : أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله مالمسلمين وعليه ماعليهم ، يقول بتلر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحناً^(٣) . ومعروف أن الرومان أو قتل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يهبون طبيات مصر نها ، ويعتصرون خيراتها اعتصاراً ، فكان الإسلام للقبط ملاذاً وملجأً . وعدّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بتلر قائلاً : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطاً زمنياً بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقبلها كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف^(٤) ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للياقوت ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لتلر ترجمة محمد فريد

أبي حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط للمحقق برسالة

مارميثا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع الستين حتى إذا ولي حيّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأبناه يكتب إلى عمر: إن الإسلام قد أضرّ بالجزية، حتى اضطرت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا: «أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسول بضر بك عشرين سوطا على رأسك. فضع الجزية عن أسلم قبيح الله وأيك، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا يجمع الأموال^(١)». وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوي وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر.

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها. وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بني سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية. غير أنه كان وراء هذه الهجرات سبيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر. وكان كل وال في العهد الأموي يصحبه كثير من الجند. وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فترها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق. وتغنى كتب بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئزي. وطبيعي أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لاقى مدنهم فحسب. بل أيضا في ريفهم. فقد سنّ لهم عمرو بن العاص أو قل سنّ لجنده أن يرتعوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى القسطنطينية. ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات^(٢). من بينهم عون بن خارجة القرشي وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج. وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح. ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد. مع كثرة هجرة العرب. ومع اختلاطهم بالقبط. مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكي يحسنوا التفاهم معهم. وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية. وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل ما رواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعها ويستمتع إلى القبط وما قد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمه بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية^(١) . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيدر وإليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان^(٢) . وكان ذلك بدءا حقيقيا لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من ألسنة القبط في الريف والقرى وتحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقي على دينه »^(٣) . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مر بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الخفيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

(١) خطط المقرئى ١/١٤١ .

والمقرئى ١/١٧٣ .

(٢) الولاة والقضاة الكندى (طبعة سبيست) ص ١٩٣ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمريين عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشا ، وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلبث أن نلتقى بعد ورش بندي النون المصري الإحيمي وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامي . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط ، فقد أخذت العربية تشيع على السنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان غنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها^(١) . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمريين عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبحر ، وأسلم على يده ، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن الدوميلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصري أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجري ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته^(٢) في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتابا بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجري ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطي واليوناني في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها ، بل معناها أنها أخذت في الزوال وحلت محلها في السنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومي ، أما هي فأنحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(٢) راجع عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس

ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة^(١) بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية ، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على السنة اليمنيين نشاطه على السنة المضربين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حيثئذ أن ماُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندى في كتاب الولاية والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملة متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولايته عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بثينة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأمين بن خريم . ومن جديده جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة^(٢) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مُستترقا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، وردَّ إليه حريته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله العَمْر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العنصر^(٣) الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضفى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

(١) الخطط ٥٦١/٣ .

كتابنا العنصر الإسلامى (الطبعة التابعة) ص ٢٩٩ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

(٣) العنصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

لمصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه^(١) . كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذى ولى قضاء مصر فى أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط فى العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة^(٢) . وفى هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصيب بن عبد الحميد متولى الخراج^(٣) بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائحة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك عيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عفير والمعلّى الطائى ، ولسعيد أشعار فى الولاية والقضاء للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتى ١٦٨ و٢٠٩ . والمعلّى الطائى - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتى ١٩٠ و٢١٤ وروى له ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا فى هجاء القاضى العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائحة لجارية له اختطفها منه القيدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول^(٤) :

ياموت كيف سلبتني وَصْفًا قدَّمتها وتركتني خَلْفًا
وأخذت شيق النفس من بدني فقبرته وتركت لي التَّصْفًا

ونراه يتصل بالولاية ومدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة^(٥) :

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة وأظلم الناس عند الجود للهال
لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهباً لما أشرت إلى خزنٍ بمثالٍ

ونزل مصر أبو تمام فى بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصداً عباس بن لبيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخزاعى بأخرة من القرن الثانى ، ومرة ثانية

العصر العباسى الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

(١) الولاية والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ،

٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣) خطط القرظى ١/ ٣٨٥ وانظر ترجمته فى كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائي وابنه حِطَّان . إذ نجده ينشد في ديوان الحماصة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله (١) :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأوض

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإخميمي مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مقلِّداً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرَّبنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصراً ضخماً ، كما مرَّبنا في غير هذا الموضوع ، وألحق به ميداناً فسيحاً للعب الكرة . وأنشأ خمارويه ابنه بعده بستاناً كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرَّبنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعُني أحمد بن طولون ومثله ابنه خمارويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليها الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طَشُوَيْه وأحمد بن إسحق (٢) ، ويقول المقرئزي : رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمنة فهرستاً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكيف يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » (٣) . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، وما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتاباً في إخبار شعراء مصر (٤) . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) المخطوط ٦١٢/١

(٤) معجم الأدباء ٤١٥/٢

(١) الحماصة لأبي تمام بشرح المرزوقي (طبع لجنة

التأليف) ٢٨٥/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وما بعدها

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المرّبي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والحيل والصيد . وللبحتري مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه ^(١) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غيلانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائها ^(٢) ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضا أشعاراً له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله . وبدون شك التف حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور ^(٣) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلُّ مصر الدولة الإنشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويترجم الثعالبي في كتابه البيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسيني الرّسّي ^(٤) . ونزل مصر في عهد كافور المتنبّي ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُنِيَ برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جُزْزَابَة ^(٥) .

ويؤسّل الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانيء الأندلسي ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعراً ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره ^(١) ، وكان ابنه العزيز نزار الذي ولي الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً ^(٢) . وكذلك كان الحاكم ^(٣) والمستنصر ^(٤) ، فطبيعي أن يعثوا نهضة شعرية في البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدتهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كلّس ، وكان يهوديا وأسلم . ودبّر دولتهما تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه يشدونه المدائح ، ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبي وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفي سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر ^(٥) . ولا بد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلا عن كانوا ينثرون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقيد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف ، كما مر بنا في غير هذا الموضوع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر في مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمي الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مها يسوقه المقرئ عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظرة بها طاقات صوّر فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كتّب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ^(٦) . وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالي شاعراً ، وروى ابن ميسر في أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مدّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهاني في القسم المصري من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمي شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصّهم شاعره الجليس بن الحباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ١٥٨/٤

(٦) المخطوط ٢٦٨/٢

(١) النجوم الزاهرة ٧٩/٤

(٢) النجوم الزاهرة ١١٣/٤

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٦/٤

نقل منه العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه «جَنَانُ الْجَنَانِ وَرِيَاضُ الْأَنْهَازِ» وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهاني انتفع بترجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابهن في البلاد العربية أمثال أبي الرعمق الأنطاكي وصریح الدلاء البغدادى والتهامى المكى وابن حيّوس الدمشقي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسى المار ذكره آنفاً .

ويظل نشاط الشعر المصرى في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدي ، وهو يسجّل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقّى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لتنظم أشعار على البديهة دون بُطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعركان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصّ مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رزّيك والأفضل بن بدر الجالى في الدولة الفاطمية ممدّحا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين السنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب بقى شاعر نابه إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان ^(١) . ونرى فاضل بن راجى الله العطار المصرى يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمه سماه «الشعراء العصرية بالديار المصرية» ^(٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسى كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحرى والقبلى ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاکر الكتبى والوفاء بالوفيات للصفدى وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

(٢) المغرب : قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة بيروت) ٢١١/٧

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتايب السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمالِك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلى والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلّاع بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الحفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة الحجبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعقاد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . وتلقى بطائفة منهم عند الحجبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العقاد تاريخ الجبرقى ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبيديعيات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يتحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى . وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور^(١) :

رسالة من كليف عميد حياته في قبضة الصدود
بلغه الشوق مدى الجهد ما فوق ما يلقاه من مزيد

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمط مشتق من السَّط وهو قلاذة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مخمس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط^(٢) :

دَمُ العُشاقِ مطلولٌ ودينُ الصَّبِّ مَطُولٌ^(٣)
وسيفُ اللحظِ مسلولٌ ومبدي الحُبِّ معدولٌ

وإن لم يُصغِرْ للأنثى

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العباد الأصبهاني مسمطاً سباعياً^(٤) لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون فى العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزيتة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ونخصى بروكلمان من تجميعات البردة وتسييعاتها وتسييعاتها عشرات أكثرها لمصريين^(٥) .

(٣) مطلول : مهتر ولادية له .

(١) الأبيته ٣٥٦/١

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

وتظل المسمطات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ريحانة الألبا
ونفحة الريحانة وتاريخ الجبرتي . ولأبي السعود الشعراي المتوفى سنة ١٠٨٨ من مخمّس نبوي^(١) :

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الْحَقُّ - هُدَيْتَ - بركبِ ساقه الطَّرْبُ
وَقُلْ لَصَبٌّ غدا بالشوق يَتَّحِبُ لمهبطِ الوَحْيِ حَقًّا تَرْحَلُ النَّجْبُ
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو
ما قدمنا في قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرّنا في كتاب العصر العباسي الأول كثرة الرباعيات عند أبي نواس وأبي العتاهية ، والرباعية
أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر
الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي
الأول والثاني يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا في هذا العصر : عصر الدول
والإمارات وجدنا الفرس يكثرّون من استخدامها مع تسميتها باسم «دوبيت» أى بيتين .
ويشركهم شعراء العرب في ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : «فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعَلُنْ
مُسْتَفْعَلُنْ» و «فَعْلُنْ مُتَفَاعَلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ» على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عن الرباعيات في
قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما تمضى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء
يكثرّون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّاتِي^(٢) :

ياغُصْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السّواك يحتاج سيّواك
قُلْ لى أنهاك عن مجيئك نهاك لو تمّ وفاك بُسْتُ خَدَيْك وفاك

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسي الذي
زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : «كثير من أهل القاهرة من يقول الدّوَيْتِ»

السواك ، وفاك أى فك ، وسمى صاحبه غصنا لاستواء
قامتها . والنهى : العقل .

(١) نفحة الريحانة للمجى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبد الفتاح الحلبي) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أو الرباعيات . . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قَبِلْتُ ثَنَايَا كُجَّانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ
نَادَى مَاذَا؟ فَقُلْتُ: طَبَعٌ عَرَبِيٌّ يَشْتَاقُ أَقَاحَ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ» (١)

ويُسَمُّهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا
يَا مُؤَنِّسَ وَحْشَتِي إِذَا اللَّيْلِ هَدَا
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا
لَا أَسْفَرُ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحٌ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبه الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تنفطت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا (٢) :

مَا جَرَّ لَظْلٌ أَحْمَدٍ أَذْيَالُ
فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَالُوا
هَذَا عَجْبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجِبِ
وَالنَّاسِ بَظْلَهُ جَمِيعَا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : (٢) ربحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق^(١) وفي رأي أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ذلك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة^(٢) ، وكأنا اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفلاً ، ومن خُرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرقي ، وهي لعل بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط^(٣) :

يا مَنْ ألوذ بِظِلِّهِ في كل خَطْبٍ معضِل
لاؤلْتُ من أصحابِهِ متمسِّكا بيد السلاَمِ
آمنا من كل باسٍ في الحوادثِ والصَّرَفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما يتنوعون في قوافي الأدوار كما يتنوع أصحاب المسمطات . وعادة يبتدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا المعصر العباسي

الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .
(٣) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه^(١).

وكان طبيعياً أن يتعرف المشاركة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : « كان منشأ للمنشور والمنظوم » وأقام بمصر عشرين سنة ، وصنّف في الأطلان وعنه أخذها أهل إفريقية^(٢) ، ولا بد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفي سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب^(٣) ، ولا بد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الأندلسي^(٤) ، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامننا يشتمل على موشحاته : ومرّبنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجّل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشده من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ويحدثنا العماد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له^(٥) . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : « دار الطراز » الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل^(٦) بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦ هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاها وعدد شطورها وأنها تردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع^(٧) وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً^(٨) .

ويقول عن الخرجة ، وهي القفل الأخير في الموشحة ، هي « أبرز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧ .

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢ .

(٤) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦ .

(٥) أنظر دار الطراز ص ٩٧ .

(٦) قنات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة^(١)، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسبان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له^(٢)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على أسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك فى كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوى فى كتابه: «سجع الوُزُق المنتجة فى جمع الموشحات المنتجة» أربعًا وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجى فى كتابه: «عقود اللآل فى الموشحات والأرجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاققتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغمًا خالصًا يلدّ الأسع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تنقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله فى مطلع موشحة رواها ابن سعيد^(٣):

البَدْرُ يَحْكِيكَ	لولا تَتَنِيكَ
وأنت جُنَّةٌ ^(٤) الصديق	لولا تَجَنِّيكَ
	لم يلق نَعْمَى ونعيم
	حَمَلْتَنِي كُلَّ عَظِيم
	وإن لى ذنبا قديم
بالضَّمِّ أَجْنِيكَ	لِلصَّدرِ أُذُنِيكَ
لأن لى قلبًا رقيق ^(٥)	عساه يُعْديكَ
	مَنْ لَمْ يَلِاقِكَ
	يوم فراقِكَ
	على عِناقِكَ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها فى النطق والسمع وجمال وقعها فى النفوس والأفئدة، وموشحاته فى دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن فى إحدى موشحاته:

وَجْهُكَ يا أَحْسَنَ البَرِيَّةِ قد جمع المِلْحَ والمِلاحَةَ

(٤) جُنَّة: وقاية

(٥) فى الأصل رقيقا

(١) دار الطراز ص ٣٢

(٢) دار الطراز ص ٣٣

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه مستحيه ووردةً تحتها أقاحه
والخال في الوجنة المصيبة في الماء لا يُحسن السباحة

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحة ، فالعين ملأى بالخضر والحياة ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يريم .
وبذلك أعلد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر^(١) الأعمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّى يَأْسُحِبُّ تِيْجَانَ الرَّبِّى بِالْحَلْبِى
وَإِجْمَعِى سِيَّارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ

والموشحة تفيض بكنوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها^(٢) :

قَلْ لِمَنْ يَلُومُ فِي مَهْفَهْفٍ أَسْمَرَ
ثَغْرَهُ النَّظِيمُ مُسْكِرٌ وَسُكَّرٌ
أَوْ لَوْ سَقَانِي إِطْفَاتُ نِيرَانِي دُرَّةٌ ثَمِينَةٌ فِي الْيَاقُوتِ مَكْنُونَةٌ

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفى نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينة وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره^(٣) وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكارهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفاية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطاً، وأنشد منه السجاوى فى سجع الورق المذكور آنفاً خمسا وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العزازى^(٤)

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيسارية جهار كس فى القاهرة

والأزجال للتراجى بتحقيق عبد اللطيف الشهاى ولا بن نباتة
فيه تسع موشحات ولمجد الدين بن مكاس أربع موشحات.

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ٣٤٠/١ وما بعدها
والنجوم الزاهرة ٢١٤/٩ وفوات الوفيات لابن شاعر الكنجي

٨٨/١ والواقى ١٥٢/٧ والدرر لابن حجر ٢٠٥/١ .

(١) انظر فى مظفر وموشحة المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٤٨ ، ٣٧٠ ، وراجع فيه معجم الادبا ١٩٠/١٤٨ وفوات

الوفيات ١١١/٢ ونكت الحميان ٢٩٠ والشلوات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبدالله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائع الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية في ذلك . ويقول ابن حجر : له في الموشحات يد طويلة توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفي دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان في خمسة أقسام : في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفي النكت والملح والألفاظ والأحاجي ، وفي الغزل والتهاى والتعازي ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعرآء زمانه ، وفي غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصوورة مبتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاعر في فوات الوفيات والنواجي في عقود اللآل في الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبحال الطبيعة استهلها بقوله :

يا ليلة الوصل وكأس العُقار دون استنار علمتاني كيف خلع العِدَار^(١)

اغتم اللذات قبل الذهاب

وجر أذيال الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كتوس الشراب

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار حيت من بين الليالي القصار

وله في مطلع موشحة بديعة :

ماسلت الأعين الفواتر من غمد أجفانها الصفاح^(٢)

إلا أسالت دما المهاجر من غير حرب ولا كفاح^(٣)

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاعر ، وهى فى الحقيقة خمس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المهاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلع العِدَار : كتابة عن الانهالك فى الجون

(٢) الصفاح : السيوف

ابن الوكيل^(١)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والمشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفي سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تدور في الهزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدَّهُ غصونَ البانِ بين الورقِ
إلا وسبًا المها مع الغزْلابِ لحسنُ الحديقِ
الصحة والسقام في مقلته
والجئة والجحيم في وجنته
ما أبدع معنىً لاتبَّح في صورته
كالورد حواه ناعم الرِّيحانِ بالطلِّ سقى
والقدُّ يميل ميلةً الأنفصانِ للمعتنقِ
أحيا وأموت في هواه كمدًا
من مات جوى في حبه قد سَعِدَا
باعاذلُ لا أترك وبجدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته في ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحار الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعًا وافتنانًا .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية
للسبكي ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في
الموشحات والأزجال للنواجي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوفى
بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات
الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُتَادِينَا مَحْكَمَا فِينَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازی ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الخفاجي وغيره ، وتلقانا عند الحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها (١) :

اعجبوا من حُسْنِ تلوينِ العيونِ تلکمُ حانَةً
بأبي مَرَّ الحَفَا بالدَّرِّ حَالِي
قَدْرُهُ قد حَطَّ من قدرِ العوَالِي
مطلي من ثَعْرِهِ كَثْرَ اللَّالِي

والموشح يسيل عدوية ، وأنشد الجبرتي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً (٢) عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

البيديات

إذا تركنا الموشحات إلى البيديات وجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) النساء في الاستواء والاعتدال

(٢) تاريخ الجبرتي ١/١٩٨

(١) نفحة الریحانة ٤/١٩٤٥ والكنانة : جمعة السهام أشار

بها إلى سهام العيون . والعوالى : الرماح وتشبه بها قدود

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله^(١) :

وشاعِرٍ شعره فنونٌ لكل بيتٍ له طنينٌ
تُسخن عينَ العدوِّ منه قصائدٌ كلها عيونٌ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة .
وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها
كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام
الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة^(٢) . ومن يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة
للعماد الأصهباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات
البيديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاقس في وصف مغن^(٣) :

لا أشربُ الرَّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنٍ
قُسمٌ يانديمي فأنصتُ والليلَ داجٍ لداجينِ
طاوِغٌ على القصفِ والعزِّ في كلِّ حاسٍ مُحاسِنِ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أي مغن
تسبق كلمة شادن أي غزال ، وكلمة داج أي مظلم تسبق كلمة داجن أي مغن ، وكلمة حاسٍ أي
للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من
الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف^(٤) :

ومهندٍ سبَحَ الفِرْدُ بِصَفْحِهِ وطفًا فَيَحْسَبُ مُعْمَدًا مَسْلُولًا

والفردن ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ديبب الخمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى
عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمنين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس (١) :

لام العواذل مغرماً في حبّ مُلهيةٍ وقينةٍ
ولو آتتهنَّ رأينَ تآثيرَ الغرام به وقينةٍ

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمّى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد لها مبنوثة في أشعارهم ، ويذكر العباد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة (٢) .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حجة الحموي والصفدي إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه (٣) في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزائر المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن التقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الهمامي المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سبناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكائس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحزير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لابداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أبو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق)

الباغونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتاً . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوي عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد يلاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد ^(١) :

أيا ساكني مصر غداً النيلُ جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والتثني

وستذكر نقثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جواداً ممدحاً ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويوزر أبو نواس مصر لمدمح والى الخراج بها : الخصب ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن طبيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليا عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويُظلمها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن ^(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكندي أشعار متفرقة .

(١) فوات الوفيات ٢٣٦/١
(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأديباء لياقوت ١٢١/١ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

له يَدٌ كَمِ خَلَّدَتْ مِنْ يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بِأَنْوَانِهَا
انظُرْ إِلَى مِصْرٍ بِسُلْطَانِهِ تَرَى الْهُدَى فَاصَّ بِأَرْجَائِهَا

ومن شعراء الطولونيين المريمي ^(١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلوى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خمارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دائماً بمِصْرٍ وَإِنِّى لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْصَى
وكيف رحيلى عن بلادِ غدا بها أبو الجَيْشِ وَالتَّبِيلُ الَّذِى مَلَأَ الْأَوْصَا

وتوفى المريمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . واطَّرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد ^(٢) بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

يا مَلِكَ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى ثُغُورِ الرُّومِ وَالشَّامِ
وَإِلْيَمِينَ الْأَبْعَدَ لِأَنْوَالِ [مُدَّ كُكْمُ] رَفِيعًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أوجور وعلى ، ويتوفى أولها سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن خنزابه . وكان كافور ممدحا ، فقضده الشعراء من كل فجٍّ وفي مقدمتهم كشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمته وبعد زمنه وكان أول ما أنشده يائيته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاضى البقر) في المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاص المذكور في النجوم الزاهرة ٣ / ١٤١ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع في المريمي المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا متفرقة له في الولاية والقضاة للكندى في أخبار خمارويه وفي مقالات عنه بمجلة المهلة : العدد ١٤٢ وبمجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ في عددى آب وتشرين الثانى

قواصدُ كافرٍ تواركُ غيرهَ ومنَ قصَدَ البحرَ استقلَّ السَّواقيا
وعَيرٌ كثيرٌ أن يوزركَ راجلٌ فيرجعُ ملكا للعراقين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يولِّيه كافر على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق لبليلى وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعا عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقل ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلَّس وزيرا له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحهما ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه (١) :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا تحيِّفنا خطوبُ تشعبُ الأما

ولهم بن المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرِّقعمق الأنطاكي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلَّس وغيرهم من أعيانها » (٢) وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مديحه (٣) :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتليا نجلُ الثَّلا وسليلُ السادةِ الصِّلحا
مازلتُ مصرُ من كيدِ يُرادُ بها لكنها رقصتُ من عدله فرحا

ويلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريع (٤) الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنَّاجة الدوح حسن المحاضرة ٥٦٧/١

(٤) انظر صريع الدلاء في تمة البيمة ١٤/١ وفي ابن خلكان ٣٨٤/٣ والعبير ١١٠/٣ والشُّدرات ١٩٧/٣

(١) راجع خطط المقرئ ٧/٢٩٦ وانظر في ابن أبي الجوع البيمة ١/٣٩٥ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرَّق وتفسد .

(٢) ابن خلكان ١/١٣١ وما بعدها وانظر في أبي الرقعمق البيمة ١/٣٢٦ والعبير ٣/٧٠ والشُّدرات

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا ، ومن كبار مُدَّاحه ظافر الحداد وستترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصارى وستترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله ^(١) .

أَيامُكَ العُرُّ مصقولٌ عوارضُها كأنَّ آصالها من رِقَّةٍ بُكْرُ
أَحْمَلتَ ذَكَرَ ملوكٍ كَنتَ خاتمهم وأنجُمُ الليل في الإصباح تَسْتَبِيرُ
بعضُ الوَرَى أنتَ لكن فُقَّتْهم شرفًا إن الحجارة منها الدرُّ والمدرُّ
تخال راحته والمشرقى بها سحابةً ظلَّ فيها البرقُ يستعُرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رُزَيْك ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع ..

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالت الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالي رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصرى وليلة الغطاس وليلة الثيروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتفون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه . ويصور لنا ذلك المقرئى من بعض الوجوه في إحتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لهجد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشئت وما كان يصحبها من نقد بيديه بعض المستمعين ، من ذلك ^(٢) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(١) الخريدة للصادق الأصبهاني (قسم شعراء مصر) (٢) خطاط المقرئى ٢٥٣/٧ .

فُتِحَ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ المَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّايَةُ البِيضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفُّ الإِمَامِ فَعَرَفُهَا الإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء ، وبذلك ضيَعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمِنْ اجْتِمَاعِ الخَلِيقِ فِي ذَا المَشْهَدِ لِلنَّبِيِّ أُمِّ لَكَ يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ

فهَلَّلَ الناس لطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وتخلع عليه وزيد في جاريه . ومرَّ بنا حديث المنطرة التى بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُرَرٍ للشعراء وفى كل صُرَّةٍ خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً لمديحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتأدون أيامه فى تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرج ينشده فى إحدى مدائحه (١) :

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصراً لِمَ لا أمرتَ ندىَ كَفَيْكَ يُخْتَصَرُ
والله لأبَدُ أن نُجْرَى سوابِقنا حتى يبينَ لها فى مدحك الأخر

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة فى طرابلس وثالثة فى أنطاكية ورابعة فى الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة فى عهد وزيرها طلائع بن رزك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس يجيم على الناس إذا بهما الدين زنكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاءً مبرماً ، ويتابع جهاده أبه نور الدين ، ويستغيث به شاور فى مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فيُنهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ فى الإنقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمر مجموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التى

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصليبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العماد الأصبهاني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها (١) :

حططت على حِطِينٍ قدرَ ملوكهم ولم تُثبِقْ من أجناسِ كفرهمُ حِجْسًا
بطونُ ذئابِ الأوضِ صارتِ قبورهم ولم تُرَضَّ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسًا (٢)
سبايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شُرِّيتْ بِحَسًا وقد عُرضتْ نَحْسًا (٣)
يُطَافُ بها الأسواقُ لا راغِبُ لها لكثرتها كم كثرةِ توجب الوكْسًا (٤)
وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بربسبع) وقيسارية وحيفا وصيداء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر (٥) :

أَثَرِي مِنَامًا مَا بَعَيْتِي أَبْصُرُ الْقُدْسُ يُثْبِتُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسِرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعدَ الرسولَ فسبَّحوا واستغفروا
فُتِحَ الشَّامُ وَطُهِرَ الْقُدْسُ الذي هو في القيامة للأنام المحشرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُنشد في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة . وتنبه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نُظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يكيل لأهداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(٤) الوكس : البيع بالخسارة .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكتر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكتر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة (١) :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ غَيْثُ غَوْتِ	وَلَا يَلْغُ السَّحَابُ وَلَا كِرَامَهُ
وَهَذَا بِشْرُهُ أَمْ كَمْعُ بَرْقِ	وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِي	وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زِحَامَةَ
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ عَبْدٌ لَدَيْهِ	يَصْرَفُ عَنِ عَزِيمَتِهِ زِمَامَهُ
وَهَذَا التُّرْبُ أَمْ حَخْدٌ لَكُنْمَنَا	فَأَثَارُ الشِّفَاهِ عَلَيْهِ شَامَهُ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحابه دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عيد لديه يصدع بأمره ومشيثه ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على حدود يرى عليها آثار الشفاه التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود الزدحمة على ثقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي تراها على الحدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول (٢) :

بِكَ اهْتَرَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّ التَّصْرِ	وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الكُفْرِ
وَمَا فَرِحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وَحِداها	لَقَدْ فَرِحَتْ بِغَدَاذٍ أَكْثَرَ مِنْ بَصْرِ
فَن مَبْلَغُ هَذَا الْهِنَاءِ لِمَكَّةِ	وَيُثْرَبَ يُنْبِئُهُ إِلَى صَاحِبِ القَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشیخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصوّر تهليل الدين الخفيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تهبأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهبأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيقتل توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أليك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وحيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالميك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالميك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مآب. ويصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على الهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالميك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوّض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكتافي - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة^(١) :

ولما ترامينا الفرات بِحَيْلِنَا سَكْرَنَاهُ مِنَّا بِالْقَوَى وَالْقَوَائِمِ^(٢)
فَأَوْقَفَتِ التِّيَّارَ عَن جَرِيَانِهِ إِلَى حَيْثُ عَدْنَا بِالْغَنَى وَالْغَنَائِمِ

وكان الشعراء ينثرون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السَّراج الورَّاق من مدحة بديعة^(١) :

وشَيْدِها للعلم مدرسةً غداً عراقٌ إليها شَيْقُ وشامٌ
ولا تذكُرْ يوماً نظاميَّةً لها فليس يُضاهي ذا النظامِ نظامٌ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومُرَّبنا
بناؤه للمارستان ضخماً وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلاً قصيدة فى مديحه بقوله^(٢) :

أنشأت مدرسةً ومارستاننا لتصحح الأديان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلاً مغواراً فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع فى أقل من
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم تبق لهم
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولَّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون
بهنئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنته
بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وفُتَّ شأؤ ملوك الأعرصِ الأوَّل

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعاراً مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية
المشهور^(٣) :

قد أخذ المسلمون عكاً وأشبعوا الكافرين صكاً
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدكُّ الجبال دكاً

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص

(١) الخطط للمقرئى ٣/٣٤١

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

ابن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانبي التي رشقتْ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً
عكاً بنارٍ وهدهتها بأحجارِ
هذي منازلُ أهلِ النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طلَّعةُ سلطاننا تبدتْ
فأعجبُ لها تيك كيف أبدتْ
بكامل السَّعدِ في الطلوعِ
هلالَ شعبانَ في ربيعِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للأدب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

للملك الأشرفِ المنصورِ سيِّدنا
له خلَّاتقُ بيضٌ لا يغيِّرها
مناقبٌ بعضها يبدو به العجبُ
صَرَفُ الزمانِ كما لا يصدأ الذهبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغري بردي طائفة في الجزء الحادي عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر بقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاءِ ابتدا
وبالشُّرِّ قد تَمَّ وكل امرئِ
بالظاهرِ المعتزِّ بالقاهرِ
منشُحُ الباطنِ بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباي لجزيرة قبرص إذ كانت موثلاً لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فساداً في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فساداً في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباي حملات ثلاثاً انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب الدُّست ، وفيها يقول (١) :

بُشْرَاكَ يَا مُلْكُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بِفَتْوحِ قَبْرِسَ بِالْحَسَامِ الْمَشْرِفِ (٢)
فَتَحُّ تَفْتَحُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا مِنْ أَجْلِهِ بِالنُّصْرِ وَاللُّطْفِ الْحَفِيِّ

ولا نعود نسمع عن انتصارات حرية مجيدة أيام المماليك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العثماني رضوان كتخدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأراجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وتدماء منهم عبد الله الإيكاوي ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » . ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها (٣) :

مَلِكُ سَعْدٍ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِ مَوْبِدِّ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ
مَعْرُزٌ كِيَوْسُفٍ فِي قَصْرِهِ عَلَيْهِ مَنشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم (٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَمَّهِ الْغَيْثُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْيَبْسِ
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهريين ، ويلقانا ابن الصلاحى (٥) السيوطي كلفا بأستاذه الشمس الحففي ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرق : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،

والسيوف المشرفية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .

إمام الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبة عنها الثوابُ تقعدُ
وما شئتَ قل فيه فانت مصدقٌ مزاياه تقضى والمحسنُ تشهدُ
وأكثرُوا حيثنذ من التاريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والى أو مناسبة من المناسبات فى آخر
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهين على مر الحقب .

المهذب^(١) بن الزبير

هو الحسن بن على الغسانى ، ولد بأسوان فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وبها ثقف ع
العربية ، وأوتى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ -
نزاه يتصل ببني الكثر سراة بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المدائح طرقت مديحكم فإني بها من سائر الناس أعلم
وهل لى حمد فى الذى قلت فيكم ونعماكم عندى التى تتكلم

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبى إلى النزوح عن بلده
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونزاه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخلفاء
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذى أنفذه فى مهمة إلى اليمن ، فأكب على كتابة
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع فى أكثر من عشرين مجلدا .
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع
رؤيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) . وكان يعد أكبر شاعر فى زمنه ، وقد ترجم له العماد الأصبهاني ترجمة
ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن فى زمانه أحد أشد
منه ، وله شعر كثير ومحل فى الفضل أثير » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهى تقوى

(١) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر (قسم
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١
ومعجم الأدباء ٤٧/٩ والنكت المصرية لعارة اليمنى ص
٣٥ والطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ فى ترجمته
أنحبه الرشيد وفوات الوفيات ٢٤٣/١ والنجوم الز
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٦٣ .

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغنّوها ، وهي تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزلفى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى في سيف الدولة وانتصاراته الحجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وتزلقا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن زُرَيْك في الضرب الأول ، لأنه ملاً أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين في العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفزعهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبتها بمثل قوله :

لما أبوا ما في الجفان قرّبتهم	بصوارم سلّت من الأجبان ^(١)
وثلّت في يوم العريش عروشهم	بشبا ضراب صادق وطعان ^(٢)
أجائهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معا بحرّان
ولأنت تكحّيب كلّ بحر زاجر	ممنّ تحارب بالتجّيع القانى ^(٣)
حتى ترى دمهم وخضرة مائه	كشقائق نثرت على الرّيحان
وكان بحر الروم خلّق وجهه	وظفّت عليه منابت المرّجان ^(٤)

(١) الجفان : جمع جفنة وهى قصعة الطعام :

(٣) التجّيع : الدم . القانى : شديد الحمرة .

(٤) خلّق وجهه : طيبّ بالخلوق وهو الزعفران .

(٢) شبا : جمع شبة ، وهى حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبهج بما أفاء الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دقّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هوشقائق أو ورد أحمر نثر على الرمان ، وكان المتوسط قد خلّق وجهه وطيب بالزعفران وطفقت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقي فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهْنَ بِالزُّبْرَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلْنَ فَعَلَ كَوَاسِرِ الْعِقْبَانِ
وَأَتَتْكَ مُوقِرَةٌ بِسَبِيٍّ بَيْنَهُ أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانُ (١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطفًا ولا حركة ، وينوّه بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبِرْنَسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَغْيِ وَالْعِدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَنَّا يَبْدُو عَلَى الْمَرَانِ (٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلِذَاكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفْقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمّ بقتله ، وسجّته ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حرّيته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لطفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَبِّعْ أَيْنَ تَرَى الْأَحْبَةَ يَمَّمُوا هَلْ أَنْجَدُوا مِنْ بَعْدُنَا أَوْ أَتَهُمُوا (٣)
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمَنِ الْفُؤَادِ مَكَانًا مَا أَنَا أَكْتَمُ

(١) موقرة : محثلة . (٣) أنجدوا : دخلوا نجدا . أتهموا : دخلوا تامة .

(٢) الجننا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم وَجَدُّ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مَحِيْمٌ
وتعوّضتْ بالأنسِ رُوحِي وَخَشَّةٌ لَا أَوْحَشَ اللَّهُ الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ
إِنِّي لِأَذْكُرْكُمْ إِذَا مَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الضُّحَى مِنْ نَحْوِكُمْ فَأَسْلَمُ
لَا تَبْعَثُوا لِي فِي النَّسِيمِ تَحِيَّةً إِنِّي أَغَارُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَيْكُمْ

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب اللطاعة وأنه لن ينسى أحباءه أبداً نزلوا نجداً أو نزلوا تهامة ، فهم في سويداء فؤاده والوجد يبّرح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهافة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لي إلى ماء سوى النيل غلّة ولو أنه - أستغفر الله - زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهي محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتهما بشركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شيركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعراً كثيراً في استعطافه ، ويرد إليه حرية ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن قلاقس (١)

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبي طاهر السلفي أكبر المحدثين في عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفي وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل قوله :

تَقْبِضُ بِحَارِ الْعِلْمِ مِنْ كَلِمَاتِهِ فَإِنْ كُنْتَ ظَمَانًا فِرْدُ خَيْرِ مَثَلِ
فِي أَيِّهَا الْجَمُودُ مِنْ كُلِّ نَاطِقِي عَلَى كُلِّ مَعْنَى فِي قِتْنَا كُلِّ مَثَلِ

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديماً بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر في ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٤٥/١ ومعجم الأدباء ٢٣٦/١٩ وابن خلكان ٣٨٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٢/١ والشذرات ٢٢٤/٤ ومراة

تَحَسَّدتِ الأَيَّامُ فَيْكِ فِلم تَرَلِ مَنى القَادِمِ الجَذَلَانِ وَالمُتَرَحِّلِ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراجلين في طلب الحديد من كل بقاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاضد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ) .
واتصل بكتّاب الديوان لعهد ومدحهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرر المدايح ،
ومن قوله في إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يَارِبَّ خَمْرٍ فَمُهُ كَأُسْهَآ لَمْ أَقْتَنِعْ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ
أَتَبَعْتُ رَشْقًا قَبْلًا عِنْدَهَا وَقَلْتُ : هَذَا زَمْرٌ وَالحَطِيمِ
فَافْتَرَّ إِمَا عَنِ أَقَاحِي الرُّبَى تَضْحَكُ أَوْدُرُ العُقُودِ التَّنْظِيمِ
أَوْ كَانَ قَدْ قَبِلَ مُسْتَحْسِنًا مَا حَبَّرَ الفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، ففم صاحبه كأس خمر ،
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال
أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظيم ، بل در القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خَمْرُ
وَأَخْلَاقُهُ فَرَحٌ وَدَارُهُ جَنَّةُ الخَلْدِ ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .
وليس في شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهدًا
مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاور يصطرح مع
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وضلاح
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر في مبارحة مصر إلى
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها
كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا
لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .
على كل حال نفاجاً برحيل ابن قلاقس إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكده يتزل بها حتى
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها
الطبيعية فأنشد :

بلدٌ أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه حِلَّةَ ريشه الطاووسُ
فكأنما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكانَ ساحاتِ الديارِ كئوسُ

وتنقل في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دجاج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره ، بمثل قوله :

وييمناك طَيْرٌ يُعْنِ وَسَعِدٌ أَصْفَرُ الظهرِ أَسْوَدُ المنقارِ
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فالكتِّ بُ به من كتابِ الأقدارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاص كتابا سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائح فيه ، واحتفظ العماد الأصهباني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العماد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حذقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك في الفصاحة من آيادٍ ملكتَ بها الفخار على الإيادي^(١)
تخذتكَ من صقلية خليلاً فكنت الورد يُقطفُ من قتادٍ
وشيمتكَ بين أهلها صفيًّا فكنت الجمر يُقبسُ من زنادٍ

وابن قلاص لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صلد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جرذنا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرذنا المدائح فاستقرت على أوصاف جرذنا الوزير

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالي هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوقس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الرقصات وهن يبتئين في نسق بديع من الحركات يقول :

وَمَعْنٌ تَنَاوَلَتْ يَدُهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أَسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طَرَقَ اللَّيْلِ لَوْ جَمَالًا عَلَى الْوَجْهِ الصَّبَاحِ
يَبْعَثُ الرُّوضُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالَ الرَّمَاحِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لا تزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلَك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَّرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّاحُ بِنَا رِدْوًا فَعُدْنَا إِلَى مَعْنَاكَ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وَجَاذَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقٌ يَقِينَا وَشَوْقٌ لِمُعْنِينَا عَنِ الْأَهْلِ يَقَعْدُ
وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذَكَرَاكَ رَوْضَةٌ وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعْمَاكَ مَوْرِدُ
فِي يَاسِرًا نَلْنَا بِهِ الْفَضْلَ يَاسِرًا وَيَاسِرًا وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ
دَعَوْتَ بِصَوْتِ الْجُودِ حَيَّ عَلَى النَّدَى لِأَنَّكَ تَرَوِي عَنِ بِلَالٍ وَتُسَيِّدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتنى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صورته وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سَوْدَاءٍ وَهِيَ بِيضَاءٌ مَعْنَى نَافَسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سُوْدَاوًا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْرُ
وهي صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشَّعْرَ وَأَنْ مِنْهُ مَا يَذْبَلُ سَرِيْعًا

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَدْوِي وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ (١)

أو كالعيون فهذه حَظُّها حَوَّلُ يُعْصُ منها وهذي حَظُّها حَوَّرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عَيْذاب
تغر قوص على بحر القُزْم ، وكان الموت كان في انتظاره ، فلم يكذب ينزها حتى لَبِي نداء ربه وهو في
الخامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء ^(١) الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك
السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كُتَّاب الإنشاء في
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ،
وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قَرَّبَ الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة
بينهما حتى كان ينبيه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ
نعومة أظفاره ، فعهده إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ بقرآكب
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث
على السنِّي الكبير الحافظ السلفيِّ أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً
إلى أحمد المحيي شريعة أحمد
إلى كعبة الإسلام أو عَلم العَلم
فلا عدمتُ منه أباً أمة الأُمى

للمحموى في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في
شعر ابن سناء الملك » بكتابنا : « فصول في الشعر ونقده
وابن سناء الملك : حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر » ومقدمة
محمد عبد الحق لنشرته للديوان في الهند ، ونشره وحققه في
القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدياء ٢٦٥/١٩
والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان
٦١/٦ وصبر الذهبي ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن
المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البداهة لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكتب على دواوين الشعراء يلتمها كما أكتب على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعا نهائيا بدكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكرا فتفتح راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذة كتابا بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفنه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتاب ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكاتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مداخله فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها بثناء غدقي عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسنها وبخنها ، وقلما يُجمع بين الحسن والبخت » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبى للأباء ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلّدات ، فأرهنها مجرّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمتها قلائد . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وهمننا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان نائرا بارعا كما كان شاعرا مبدعا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشاعره ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمّ المقياس من الضعف بالاستسقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالباً في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كَلُّ شَيْعِي وَسُنِّي

ولم يكن القاضي الفاضل شيعياً ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصهاره إلى نوم
الخلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأسي له
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعاً ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم
حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدُوْتُ فِي حَبِي لَهُ مَتَشِعًا مِنْ ذَا رَأَى مَتَشِعًا مَتَسُنًّا

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٍ شيعيٍ غالبٍ في تشيعه .
ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه
لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبَعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَاها فِجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، ولّه فيه أهاج مختلفة كما يشهد
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيداً له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعاً ، ولم
يخص على بن أبي طالب بتنويه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره .
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة
بستاناً ومرة فندقاً . وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مداخمه وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل
كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُعَدَّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا متعيا . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقته وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامة المألوفة في ألسنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُعجَبِ وفي سوى العَيْنِ لم تُكسَفِ
مُعَمِّدَةٌ المُرْهَفِ لكنها تفتِكُ بالغمْدِ بلا مُرْهَفِ (١)

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينها كسوف ، ونورها يغمركل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينها لإطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعا - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أشرى الشّامَ ومُلكَهُ وغُوْطَتَه الحِضْرًا بِشْبْرين من شَبْرًا
فغُوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه ووصولجانه ، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلا في مراثيه لأمه وأبيه وجدّه وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن معاليه ليشهرها البدرُ في الأفقُ يستغنى بشهرته

ذاك الذي يَسْمُ الدهرُ العَبُوسُ بِهِ تَيْسَهَا وتَسْبَحُ الدنيا بِبَهْجَتِهِ
ونَحْسٌ فِي مَدِيحِهِ لِأَبِيهِ بِسَعَادَتِهِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَنَزَلَتِهِ وَأَدَبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْمِهِ فِي
لِجَالِ وَكِبَارٍ يَفُوقَانِ الوَصْفَ . وَأَيْضًا مَا تَمَتَّازَ بِهِ مِصْرٌ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالدِّينِ لِحُجْرَتِهِ مِصْرًا فِي أَشْعَارِهِ .

وأهم من استنفد مدامحه صلاح الدين والقاضي الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق
جموعهم تمزيقاً ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه
للعرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وَبِابْنِ أَيُّوبَ ذَلَّتْ شَيْعَةُ الصُّلْبِ
وَفِي زَمَانِ ابْنِ أَيُّوبٍ غَدَتْ حَلْبٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرٌ مِنْ حَلْبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة بصور
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين ينزل بهم الدمار ويأخذ
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حطين ، وفيها جرت دماؤهم أنهاراً
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، وبهنيئ ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً :

لَسْتُ أَدْرِي بِأَيِّ فَتْحٍ تُهِنَّا	يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى
أَنْهَيْتِكَ إِذْ تَمَلَّكَتْ شَامًا	أَمْ نُهَيْتِكَ إِذْ تَمَلَّكَتْ عَدَنًا
قَدْ مَلَكْتَ الْجِنَانَ قَصْرًا فَقَصْرًا	إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنًا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ يَنْشَأُ	وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسْتَةِ يَبْتَنِي
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عَظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلَتْهَا حَمَلَاتُ خَيْلِكَ عَيْنًا (١)
لَمْ تَلَأَقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	سَكَ لَأَقِيَّتَهُمْ بِلَادًا وَمُدُنًا
وَتَصَيَّدْتَهُمْ بِحَلْقَةِ صَيْدٍ	تَجْمَعُ اللَّيْثُ وَالغَزَالُ الْأَعْتَا (٢)

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .

(٢) الغزال الأعتا : الذي يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصليبوت الذى يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبنين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصرين ولاإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائحه فى القاضى الفاضل كثيرة حتى لُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له فى الأعياد وفى القدوم من الشام ومن الحج وفى انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها فى مدائحه له ، وهو فيها يببالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الأَنَامِ مَاءٌ وَطِينٌ

وقوله :

وما الدهرُ إلا خادِمٌ أنت ربُّه وما الخلقُ إلا عالمٌ أنت فاضلُه

وقوله :

الدهر مدٌّ إليه كفَّ مفتقرٍ فدَّ للدهر منه لِحظٌ محتقرٍ
فى كفه قلمٌ إن شئتَ أو قدرُ يصرفُ الخلق بين النفع والضرِّ

وهو يكرر معنى البيت الثانى ويظيل فيه ، وله يقول :

بمِمْونٍ رأيتُ كان الفتحُ ومنصورٍ عزمك كان القلبُ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضى الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لا يستقرُّ المال فوق بنايه حتى كأن بناه مخروقُ
يا طالبين ذرى علاه توقفوا ومؤمنين ندَى يديه أفيقوا

وهما بيتان رائعان فى وصف الجود ، وبحق كان القاضى الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحق ، يقول له :

شكرى لنعماك شكر الأرض للمطرِ أولا فشكر سواد العين للنظرِ

فهو يشكره شكر الأرض المحدبة للغيث المدرار الذي يجي مواتها ، بل شكر سواد العين لنور
البصر الذي يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله في جوده المنهر على
الناس :

وقَصَّرَ البحرُ عنه فهو مكتئبٌ أما تراه بكفى موجهُ التظما
وولتِ السحبُ - إذ جارته - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها أنسجاً

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجّه ، وإن الغيث
ليكي بدموع غزار لاتزال تهمل . ونحسُّ بفرحة تسرى في كثير من مدائحها للفاضل كما نحس نخفة
الظل التي يشتهر بها المصربون وخاصة في تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضنّتْ بطرفِ ظلِّ يُعدي سُقمه أرايتُم من ضنٍّ حتى بالضنا
إني رأيتُ الشمس ثم رأيتها ماذا عليّ إذا هويتُ الأحسنا
وسألتُ من أيّ المعادن تُغرّها فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا
أبصرتُ جوهرَ تُغرّها وكلامه فعلمتُ حقاً أن هذا من هنا

وضنَّ صاحبتّه بالطرف وعدواه وضنّها حتى بالسقم أو بالضنا غريب ، وتلطّف في التخلص
من الغزل إلى مديح القاضي الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة ونخفة الروح وعدوبة
الكلم . وله في غزله كثير من هذه التصاویر المبتكرة ، كقوله :

أفتِ على عاشقك القيامة بورِدٍ لخدِّ وغُصنٍ لِقَامَهُ
فمِنْ وَرْدٍ خدِّك كيف النّجاة ؟! ومن غُصنٍ قدِّك كيف السلامة

وقوله :

وأشكو إلى ليل العدائر غدّرها وأملى عليه وهو في الأرض يكتب

وقوله :

ألقى حباتل صيّدٍ من ذوائبه فصاد قلبى بأشراكٍ من الشّعِر

وقوله :

لا تحشّ مني فإني كالنسيم ضنّا وما التّسيمُ بمخشى على العُصن

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعَقْدُ وَحَدَّهُ فَيَا عَجَبًا يَا قَوْمُ هَلْ يَقَلِّقُ الْعَقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رَبَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِي

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نبأته^(١)

هو جمال الدين محمد بن محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نبأته خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

مواضع متفرقة وكتاب ابن نبأته المصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مخطوطات كثيرة في مكنتات العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نبأته وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٣/٩ والوافي بالوفيات للصفدي ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشذرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموي في

حوالى سنة ٧١٠ وينزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث^(١) ، ويستقر بها ويتولّى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حبّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حيننا متصلا بمثل قوله :

أو لمصرَ وأرضَ مصرَ وكيف لى بديار مصرَ مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفاء فى الأقرين مشاربًا وأصحابا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولته لا مثلُ دهري فى دمشق محاربا

وفؤاده يهفو إلى مصروتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء فى الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحهم ، وظل يقد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزمكلى وابن صصرى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السرى فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الوافى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر

طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعزّل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِّعا للدسِّت وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدسِّت ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَبِيعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه «القطر النبائي» وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه «سوق الرقيق» . وديوانه الكبير يكتظ بالمدائح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه «خبز الشعير» يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم ، واستهمل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفخاخ يمدها وشبالك
قالت لي العين ماذا يصيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ بـكراكي غزالٌ للبدور يحاكي
فقلت ارجعي يا عينُ عن وِردِ حسنهِ ألم تنظريه كيف صادَ كراكي
والكرى: النوم ، والكراكي طير مفردة كركي . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلاً :

فديتُك أيها الرامي بقوسٍ ولحظتُ يا ضنًا قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ وشيهُ الشيء منجذبٌ إليه

ويقول الصفدي :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فذُبْتُ وَجَدًا فَقَالَ وَقَدْ رَأَى جَزَعِي عَلَيْهِ
عَقِيقُ دَمِي جَزَى فَأَصَابَ خَدِّي وَشِبْهُ الشَّيْءِ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ

وتشبيه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبعي ، أما انجذاب الدم إلى الخد وتشبيهه به فنافر منه

بعيد .

وابن نباتة في شعره بمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والرشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الأزملاكي بثانية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه»^(١) . وأروع مدائحه ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في

السلطان حسن ، وقد دَبَّحَ في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لَوْ أَنَّ لِلْبَحْرِ جَدَّوَاهُ لِفَاضٍ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى بِنَفِيسِ الدَّرِّ مَنْصُودٍ
وَلَوْ أَمَرَ عَلَى صَلْدِ الصِّفَا يَدَهُ لِأُنْبِتَ العُشْبَ مِنْهَا كُلَّ جُلُودٍ
يَاجِبِدًا الْمَلِكُ السَّارَى عَلَى شَيْمٍ تَرَوَى وَتُنْقَلُ عَنْ آبَائِهِ الصَّيْدِ
أَغْنَى العُفَاةُ فلولًا نَاهِيَاتُ تَقَى - أَسْتَغْفِرُ اللهَ - سَمَّوهُ بِمَعْبُودِ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار مدّوه في أعلى السموات ولايزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقّه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العالمُ الملكُ السيارُ سوُدُّهُ فِي الأَرْضِ سَيْرَ الدَّرَارِي بَيْنَ أَفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفُ بدتْ فَعَدَّتْ نَعْمَ السَّوَارُ عَلَى الإِسْلَامِ وَالسُّورُ

وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مدينته حاة عن الحياة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمتُ ما الملك المؤيدُ في الورى إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ
هو كعبةٌ للفضلِ ، ما بين التدي منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورى في كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المعبر ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذي تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ معنٍ بجوده ونشئ له لفظاً فينشئ لنا معنًا

ومعن بن أوس المزني مشهور بجوده في مفتتح العصر العباسي شهرة حاتم في الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت في مدلول كلمة معن ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنًا المزني .

وممدوحه الثاني في الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنته بسلطنته وتبزية له عن أبيه ، تُعدُّ من فرائد الشعر العربي ، وفيها يقول :

هناك محاذك العزاء المقدما
فما عيسَ الخزون حتى تبسما
ثغورُ ابتسامٍ في ثغورِ مدامعٍ
شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
مليكان هذا قد هوى لصرحِهِ
برغمي وهذا للأسرة قد سبَا
كانَ ديار الملك غاباً إذا انقضى
به ضيَعُمُ أنشأ به الدهرُ ضيَعِمًا
فإن يكُ من أيوبَ نجمٍ قد انقضى
فقد أطلعتْ أوصافك الغرَّ أنجما
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضتْ
فقد جددتْ عليك وقتًا وموسما
هو الغيثُ وليّ بالثناء مشيعًا
وأبقاك جمرًا بالمواهب مُنعما

وعلى هذا النحو تلمح تهنته الأفضل جامعة بين النقيضين في كل بيت : بين المدح والثناء ، وفي ذلك ما يصور براعة ابن نبانة وحدة ذهنه وذكاؤه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهي سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أوقطر نبات . وله في مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قومٌ لذكراهم على صُحف العُلا
 الملكُ بعضُ ديارهم فليتزلا
 إن يَبْقَ ماضيهم على سننِ الوفا
 ملأتْ مواهبهُ القلوبَ مهابةً
 وكأنا أفلأُسه بسوادها
 لا عيبَ فيه سوى العزائمِ قصرتْ
 أصلُ الفخارِ وكلُّ ذكْرٍ مُلحَقُ
 والنجمُ بعضُ جدودهم فليرتقوا
 فلأنهم ببقاء أفضلهم بقوا
 فالقلبُ قبل الطرفِ فيها مُطرقُ
 غربانُ بينَ في الخزائنِ تنعقُ
 عنها الكواكبُ وهى بعدُ تحلّقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضها مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هية ، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق في أموالها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتني محلقة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تحليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماسة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهى المرتمى
 بينا تراه ذاهبا لصيدو
 حتى تراه عائدا من أفاقه
 وكلُّ صقيرٍ مُسبلِ الجناحِ
 ذو مقلّة لها ضرامٌ واقِدُ
 كأنما الخلبُ منه منجلُ
 وكل منسوبٍ إلى سلوقِ
 طاوى الفؤادِ ناشرِ الأظافرِ
 يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا
 كبارقٍ طار وصوبٍ قد هَمَا^(١)
 معتصما بأيديهِ وكيدو^(٢)
 ملتزما طائرَه في عُنقهِ
 مواصلُ الغدوِّ والرّواحِ^(٣)
 يكاد يشوى ما يصيد الصائد
 لحصد أعمار الطيور مرسل
 أهرتْ وثاب الخطا ممشوقِ^(٤)
 ياعجبا منه لطاوٍ ناشرِ
 ويسبق الوهم لإدراك المنى

(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصوب : المطر . هما : سال

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسبل : مرسل

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لتدل على أن أرجوزة الطرد والصيد الملية بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمله بصور بديعة ، فقلعة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبة كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوقى بعض بأسنانه الحادّة ويخطو بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمديح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

وممدوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مديحه له الحرارة التي ألفتها في مديح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

يناصر الدين والدنيا لقد نفذت أقلام مدحك في الدنيا بسلطان
دانت لك الخلق من بدو ومن حضر وفاض جودك في قاص وفي داني
هذي المدائن من أقصى مشارقها لمنتهى الغرب في طوع وإذعان

وله وراء مديح السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مديح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحا لها بقوله :

أفي كل يوم منك عتبٌ يسوء في كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « حبز الشعير » السالف . وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وابن نباتة كثير الشكوى في شعره من بؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذى غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لقد أصبحت ذا عُمُرٍ عجيبٍ أقضى فيه بالأنكاد ووقى
من الأولاد خمسٌ حول أمٍّ فواحرباه من خمسٍ وسيت

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى سته أو سيدته . وكان مرزاً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي إن كثيرين من أولاده توفوا في سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مرثى كثيرة ، وله رثاء حار في السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكاني : هو أشعر المتأخرين ولاسيما في الغزاليات .

عبد الله^(١) الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرقى ، ولد في سنة ١٠٩٢ ومضى في نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق في الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر في سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومنزلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم في مدة مشيخته للأزهر مقام على^٥ وهيبته وتجلمة عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإنحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاف في مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرقى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأيدي الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح في ولاية مصر العثمانين ، وأهم وال دُيِّج فيه مدائح عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحيه له ، إذ يقول الجبرقى عنه : « كان خيراً صالحاً متقادماً إلى الشريعة أبطل الحارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلاً المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصلُ الشَّهيرُ
أقام العدلَ في مصرٍ وأحياناً معالِمه بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمعت صوارمه بأرضي تسارعت العصاة إلى القبور
وإن حادثته في العلم تلقى بجوراً موجهاً درُّ النُّجور
وإن ساومته شعراً فحدث عن ابن أبي ربيعة أوجزير
وإن تسمع تلاوته تجده حكي داود يلهج بالزُّبور
أدام الله دولته بمصرٍ ومثعنا به دهر الدهور
وأفقدنا به من كلِّ كربٍ وكفَّ بعزمه أهل الفجور

ونسج القصيدة جيد ، والشبراوي يمدح الكبوري بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذي لا تصلح حياة الأمة بدونه ، ويثوه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى في القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسي ونوابغ الكتّاب من أمثال الحريري . وكثرت منذ زمن المماليك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوي من تقريظ لبديعية وشرحها لعلی بن تاج الدين :

أذاك تُغَرُّ تَبَسَّمُ أم ذاك لُطْفُ تَجَسَّمُ
أم روضةٌ قد تَغْنَى شُخْرورُها وترنم
أم الصبا حين هبَّت أزالَت الهمَّ والغمَّ
قد كنت أعتب دهری وأحسب الدهر أعقم
حتى رأيتُ عجيباً من فضلك الباهر الجَمَّ
فكلُّ لفظك لُطْفُ وكلُّ معنالك محكم

والتقريظ طويل إذ تحوّل به الشبراوي إلى مدحة يشيد فيها بعلم علي بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكاؤه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا في تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات في شطرها الأخير بحساب الجمّل أرخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوي يشارك في هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلتجاوي شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ وقد سكن الدلتجاويُّ لَحْدَهُ
فصاحَ وخرَّ مغشياً عليه وأصبح ساكنا في القبر عنده
فقلتُ لمن أراد الشعرَ أقصرُ فقد أرختُ : ماتَ الشعرُ بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائح على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أعدْ خَبرَ العُدْبِ وساكنيه وكرّرْ طيباً ذكرهمُ علياً
فلأنهمُ - وإن هجروا وصدّوا أحبُّ الناس كلَّهمُ إلياً

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياء .

٥

شعراء المراتى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وولتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاء الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرّ بنا - ممدّحاً ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصبح بنحو شهر ، فبكاهاما الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارس بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكانما عزّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونمضى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراتٍ مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلّى الطائى لجارثته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتطلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدماتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلساً سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولخطاياها وعلى رءوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأغدقت الدولة على الشعراء إغداقاً واسعاً ، فلما قضى عليها جيشُ الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكأها الشعراء وبكوا آثارها

بدموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم^(١) :

قِفْ وَقَفَّةً بِنَاءِ بَابِ السَّاحِ وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ^(٢)
 وَرُبُوعِ قَوْمٍ أَعْجَبُوا عَنْ دَارِهِمْ بَعْدَ الْإِقَامَةِ أَيْمًا إِزْعَاجِ
 فَانظُرْ إِلَى آثَارِهِمْ تَلْقَى لَهُمْ عُلَمَاءَ بِكُلِّ نَيْبَةٍ وَفَجَاجِ^(٣)

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي^(٤) في كتابه الولاية والقضاة ،
 واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرثى الشعراء للدولة وما كانت
 أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا
 من سكانه :

بِاللَّهِ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْتَنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِنَا خَبْرًا

وتكاثرت الشعراء - كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم ييكوها
 حين دخل جوهر الصقلى مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك
 إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان
 كافور مدبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى
 فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا
 شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسى ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمى بقيادة
 جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة
 فلم ييكها أحد من شعرائها على نحو ما يكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مراثٍ مختلفة لعميم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر
 أولاده ، وكان المظنون أن يتخذها ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد
 عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب
 العزيز ، ولعميم مرثية فى أخيه عبد الله مطلعها^(٥) :

كُلِّ حَيٌّ إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَالسِّيَالِي تَعِلَّةٌ وَغُرُورٌ

- (١) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وانظر الولاية والقضاة ص ٢٥٢
 (٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .
 (٣) النية : الطريق فى الجبل ، والفجاج . الطرق .
 (٤) الولاية والقضاة ص ٢٥٣ .
 (٥) ديوان عميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع دار الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

ويبكي شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقدته ، وهو شيء طبيعي لتنجيته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكي فيه الحسين الشهيد وآبائه الفاطميين . ويبكي جارية له بكاء فيه غير قليل من اللفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكي بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاء مؤثرا قائلا (١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سفك فيها من دماء البيت العلوي ، ويصف موكب النساء اللائي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأناث واللوعات الممضه . وملتقى بالمسبجي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول (٢) .

وياليتني للموت قُدِّمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وتكثر مرثى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر ، إذ يقول (٣) :

وليس رَدَى المستنصرُ اليومَ كالرَدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرُ
وقد بكت الخنساءُ صحراً وإنه ليبيكه من فَرَطِ المصابِ به الصَّحْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطي في مرثية (٤) :

يا فجعاً هي في الجنان مسرةً لقدومه تختال في عُرفاتها
إن كان في الدنيا عليه ماتمُّ فأراه عرسَ الجورِ في جنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم يبكيها المصريون ولا ودَّعوا ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عُمارة اليمنى الذى ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصهبانى في رثائه (١) :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ
لو كان في عصر النبىِّ لأنزلتْ في ذكرو من ذكرو آياته
ياراعيا للدين حين تمكنت من كل قلب مؤمن روعائه
فعل صلاح الدين يوسف دائماً رضوان ربّ العرش بل صلواته

وهى مرثية طويلة فى مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده فى الدين واستبساله فى حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم فى الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعاً . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مر بنا فى غير هذا الموضوع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تعفية آثار العزيز ويبكى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر (٢) .

وكم قد حَجَجْنَا فِىكَ لِلْمَجْدِ كَعْبَةً وكم قد أَهْنَا فِىكَ لِلْحَجِّ مَوْسِمًا
وكم قد وَجَدْنَا فِىكَ رَافَةً رَاحِيَةً إِذْ تُعْطَى حَطِيمًا وَرَمْزِمًا
ولا بن سناء الملك مرثى مختلفة فى أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله ندى رائع فى أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى ممضة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلاً (٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بكِ بَدْرُهُ فما برحتْ فى الأرض تُكْسِفُ أَقْمَارُ

وبنفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا فى عينه ، ويحس كأنما كان فى فردوس معها من فراديس الجنان وأخرج منه إلى غير أوبة يقول (٤) :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَا بَقَلْبِي مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَائِي
كَنتُ فى جَنَّةٍ فَأُجْرِجتُ مِنْهَا وَاسْتَعَادَ الْعِطَاءَ رَبُّ الْعِطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خامسة كتابة البرق

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بدوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . وبلغنا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئنّ ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وآنسى من بعدها طولٌ وحشتي وضاجعني في مضجعي بعدها كرتي
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أهذا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرَّطْبِ

ويشتهر ابن النبي بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جواهرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ
والمرءُ كَالظِّلِّ وَلَا يَبْدُ أَنْ يَزُولَ ذَاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أبوى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعَيْتَ اللَّيْلَ مِنْ سَحْرِهِ دَائِمًا يَبْكِي عَلَى قَمْرِهِ
حَلَّ ذَا وَانْدَبَ مَعِيَ مَلِكًا وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّتِ دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيي الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

قلاوون لمحيى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبي (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزَمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فكَلَّهم تُرْدِيَهُمْ من رُعبِهِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .

ومرَّ بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى دَبَّجَ فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاه بمراث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثياته :

نَعَى المؤيَّدَ ناعِيهِ فوا أسفا للغيث كيف غدتُ عنا غَوادِيهِ
واروَعنا لصباحٍ من رزِيَّتِهِ أَظنَّ أن صباحَ الحَشْرِ ثانيهِ
ليت الحِجَامَ حَبًّا الأيامَ موهبةً فكان يُفْنِي بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفدَى الأَكْبَرُونَ بها فكانت الشُّهُبُ فى الآفاق تَفدِيهِ

وهو تأبين ممزوج بندب وأتین ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تفديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولا تمم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة (١) :

أفى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدا وبدرُ أفاقِ سماءِ العدلِ قد فُقدا
وشمسُ نصرِ عبادِ الله قد كُسِفَتْ ودولةُ العزِّ ماتتْ بالذى لُجِدا
كم قد أغاثَ فقيرا من ظلامته وأبدلَ الجورَ عدلا والفسوقَ هُدَى

وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيتهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول (٢) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدينِ غوثُ الوَرَى مجتهدُ العصرِ إمامُ الوجودِ
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطرى بالوقودِ

ويروى الجبرقى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

السيد حسين الإدكاوى قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مطلعها^(١) :

ما بين حرقة أدمعى وتولّهي نَارٌ يُوجِّجها هيبٌ تولّهي
يا أرضُ ميدي ياسماء تشفقُ ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوّهى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيئارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كتبت عليهم فيها ، وبين نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز^(٢) :

أما والذي لا يملك الأمر غيرهُ ومن هو بالسرّ المكتم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا . لإعلانها عندي أشدُّ وآلمُ
صبرتُ عن الشكوى حياءً وعفةً وهل يشتكى لدغ الأرقام أرقم^(٣)
وبى كلُّ ما يبكي العيونَ أقله وإن كنت منه دائما أتبسمُ

وكان تميم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزير الفاطمي . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان ينفس بها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد^(٤) :

ولى همّة تبغى النجوم وحالة تصحف ماتبعيه فهو لنا ضيدٌ
إذا رفعتنى تلك تخفضُ هذه فكلُّ تناوٍ في إرادته الحد^(٥)
فما حالُ شخصٍ بين هاوٍ وصاعدي وليس له عن واحد منها بُدٌ
تولتني الأرزاء حتى كأنما قوادى لكفني كلُّ لاطمة خدٌ

فهتمته ماتزال تصعد به حتى يصفح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٥) الحد : المنع .

(١) تاريخ الجبقي ١٨٩/١ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقم : الأفران .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمال طنطا ويقول العماد :
 كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرقه الأدب منكوت ، وينشد له (١) :
 لقد بكرت تلوم على خمولى كأن الرزق يجلبه احتيالي
 وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلبل يرد على قذالي (٢)
 وكم علقت أطاعى رجاء بخلب بارق ووميض آل
 ولا أنا بالكفاف التزر راض ولا أنا عن طلاب الكثر سالو

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حرياً به أن يرضى بالترز القليل .

وتخف الشكوى على أسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك (٣) .

يا خَيْبَةَ الحُرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حراً
 وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينه تيرا
 والحلق تُدْرِى الدمع ما وهو يُدْرِى الدمع جَمراً
 وإذا تملكت اللسا م فإن موت الحُرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوماً ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بخفة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضرباً من الفكاهة أحياناً على

(١) الخريدة ٤٦/٢ .

(٢) القذال : القفا .

(٣) الديوان ص ٣٢٨ .

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وستترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفلكاهة .
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر
- كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيدي دعوة ذى حالة أحالها الدهر وعدوانه
تفليس في الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حرّائه
فارق أولادًا وأهلا وما تحملت للبين أظعائه

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضحك وضيق العيش ، وقد فارق
أولاده وأهله يتغنى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوتي بسطة من الرزق . ويردد ابن
نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن المالك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة
الحياة وعيشها البائس المضمئ . وساعد على ذلك أن المالك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية
الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبغون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان
نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا
نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقة العثمانية ، فزادتهم إيفالا في البؤس واليأس والشكوى
المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا
العصر .

على بن النضر^(١)

من أهل الصعيد كان نحويا أدبيا روى عنه ابن بَرِّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب
سبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد
وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية
استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان
الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمديحه الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا
للسعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للعماد الأصبهاني ٩٠/٢ والطلع السعيد ص ٢٢٠
والبغية للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت
أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وشريدة القصر (قسم شعراء

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الحية والحرمات :

بين التعزُّزِ والتذللِ مسلِكٌ بادى المثارِ ليعين كل موقِّعٍ
فاسلكه في كل المواطنِ واجتنبُ كِبَرَ الأبيِّ وذلةَ المتملِّقِ
ولقد جلبتُ من البضائع خيِّرها لأجلُ مختارٍ وأكرم مُتَّقِ
ورجوتُ خفْضَ العيشِ تحت رِواقه لا بدَّ إن نفقتُ وإن لم تنفِ
ظنًّا شبيها باليقينِ ولم أخلُ أن الزمان بما سقاني مُشْرِقِ (١)
لأقارعنَّ الدهرَ دون مروءتى وحُرمتُ عَزَّ التُّصر إن لم أصدِّقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خدhem كبيرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيموا أنفسهم ذل الملق والهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه حيبة ما بعدها حيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه . وفرغ إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتحان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْنِي للملكِ قناعةٍ لو أننى مُتَعَتُّ فيه بعِزَّةِ المملِكِ
ولكنَّزِ يأسٍ كنت قد أحرزته لو لم تَعَيْتُ فيه الحَطُوبُ وتَفْتِكِ
آلَيْتُ أجعلُ ماءَ وجهي بعده كدمِ يَهْلُ به الحَجِيجِ بِمَنَسِكِ
لا أنشأتنى الحادثاتُ لمثلها ورُمِيتُ قبل وقوعها بالمهلكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كثر يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلنى أغصن بما سقانى .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله ، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ ويا مفرجَ ليلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِيِ
قد أُرْتَجِيتُ دوننا الأبوابُ وامتنعتُ وجَلَّ بِأَبْكَ عن مَنعِ وإرتاجِ
نخافُ عَدْلَكَ أن يجرى القضاءُ بهِ ونرجميك فَنُكِّنُ للخائفِ الراجي

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ، وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يفلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يا نفسُ صبراً واحتساباً إنها غمراتُ أيامِ تَمُرُّ وتُتَجَلَّى
لا تياسِ من رَوْحِ رَبِّكَ واحذري أن تستقرِّي بالقنوط فتُخْذَلِي

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربه فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة في إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يا مُرْئُناً ذا جَدَّتْ الرُّشَيْدِ قِفْفُ مَعِي نَسَفَحَ بِسَاحِيَتِهِ مَزَادَ الأُدْمَعِ (١)
وامسَحَ بِأَرْدَانِ الصَّبَا أركانَهُ كى لا يَلِمَ بهِ شحوبُ البَلْقَعِ
وبودُ نَفْسِي لو سَقَيْتُ ترابَهُ دَمَ مُهْجَتِي ووقيتَهُ بالأضلعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب المطر محاولاً أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحها معا عليه قرباناً من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكام الصبا أركانه ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلتاعاً بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهي القرية .

لَتَنْفَسَتْ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوحَةً بِنَسِيمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ
 أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطُودِ عَزٍّ بَادِخٍ مُسْتَوْدِعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ
 وَلِخُدِّ مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْيَرْمَعِ
 وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رُبُوعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا العطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - ليمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبه .

علي بن عرّام^(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علماءها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين ، وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حتى في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حنين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فواده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارِكُ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخَنِي عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الرَّؤَالِ الَّذِي يَجْرِي
 مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَنَى ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من مائها السلسيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يمانله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

المحاضرة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله وبضاهيه في نبهه ». ويشيد به وبشعره العاد الأصبهاني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ (١) اسلحر . . . ولابن عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام (٢) ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء (٣) نار الذكاء ضلرام . . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدَامِهِ (٤) ومزوج مدامه حرام ، اعجب : بحر في الصَّعيد (٥) يُقْصَدُ بالتيميم لمائه ، ولجم في صعود السعود لا يَرْتَقِي إلى سمائه ». ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياة غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فجاج
تتبع الحلو من جنى عيشها الحلدِ بِوِ بَمْرٍ من الرزايا أجاج (٦)
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعة ثم أرهقوا بانزعاج

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحلو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومترهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مرثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لِسود الخطوب غَمَّكَ يُجْلِيهَا وقد غاب منك بدرٌ منيرٌ
مَنْ يَحْوِكُ القَرِيضَ مِثْلَكَ يُسْدِيهَا على خَيْرِ قِو به وَيُنِيرُ (٧)
ليس في العيش بعد فقدك خيرٌ حَبْدًا وافدُ الردى لو يزورُ
كان ظني إذا المنايا انتحنتنا أنى أولٌ وأنت أخيرٌ (٨)

(٦) أجاج : شديد الملوحة .

(١) حسر : انكشف .

(٧) يسدي : من السدى وهو ما يمد طولاً في النسيج .

(٢) عرام : قوة وشدة

ينير : يلحم أو يجعل له لحمه وهي ما يمد عرضاً في النسيج

(٣) إذكاء : إيقاد .

يريد أنه يحكم الشعر إحصاءاً دقيقاً

(٤) الفدَام : ما يوضع على فم الدن لتصفية ما فيه .

(٨) انتحنتنا : قصدتنا .

(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضا وجه الأرض

كيف لي بالسُّلُو عنه وطىءُ الـ قلب من فقهه جوى منشورُ
فَسَقَى قبره نداءً فيه لِسراه غِثى وريٌّ غزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط ندمه بتأينته ، إذ فقد البدر الذى كان ينير في دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعم في دنياه وكل خير ، حتى ليتمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداءه وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شأبيب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناجاة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الرَدَى للأنام بالمرصادِ كل حَيٍّ منه على ميعادِ
كيف يُرَجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعاً على الأصدادِ
فإذا سرَّ ساء حَتْمًا وَيَقْضَى بوجودِ إلى بلىً ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون في قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالها من سخرية للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شيء ، وحتى لو سره يوماً لساء يوماً أو أياماً ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى في نفس القصيدة أو المرثية قائلاً :

نحنُ في هذه الحياة كسفرٍ ربما أَعْجَلُوا عن الإروادِ (١)
عَرَسُوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدُّ فيهم مُنادٍ (٢)
كم أبٍ والهِ بِتُكْلِ يَنِيهِ كم يَتِيَمٍ فينا من الأولادِ
يَدْعَى المرءُ لِرثِ أرضِ ودارِ سَفَهًا غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ
وهو موروثها إذا كان يَبْقَى وَهِيَ تَبْقَى على مَدَى الآبادِ
وقُصَّارَاهُ أنْ يَشْعَ مَحْمُو لاً بِأَكفانه على الأجوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في التمهّل والوقوف ، لأنها لا تزيد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصيح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح ويئن أنيناً لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدراراً على أبنائه ، وأبناء أيتام يشنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترقأ على آبائهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها وملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مهما بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولاً على أعواد ، وسرعان ما يُلقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقولُ ابن عَرَّام

وإذا الأهلُ والأقارب والأخ
فالقبورُ البيوتُ مضجَعُنَا فِيهَا
كم أحال البلى إليه قديماً
شاهدُ الموتِ لائحٌ في جبين الـ

بابُ رآحُوا فَأنت في الأثر غادِ
ها وما إن سَوَى الثرى من وسادِ
جَسَدًا ناعما من الأجسادِ
حَيٌّ منا في ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائع وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملقٍ به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب^(١) : الحسن بن شاور الكنايني

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ الدمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن الحضارة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن
العقاد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب في
حلى المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات
الوفيات لابن شاکر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشامل » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحياب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغلغلين في الغوص على المعاني الخائزين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والمتاني » ويقول ابن شاکر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللائقة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاکر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماءهم على كل لسان لحفة روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُدْرِيُّ فاعذُرني وسامحُ وجرَّ عليَّ بالإحسان دَيْلاً
ولما صيرتُ كالجحون عِشْقاً كتمتُ زيارتي وأتيت ليلاً

وكلمة « ليلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبه « ليلى » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع سنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أيا ساكني مصرٍ غدا النيلُ جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقي سوى أثرٍ يبدو على النظم والأثرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السحرِ
ولا رِقَّةَ الشعر الذي كان أولا وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه آثر العزلة مكثفيا بما ورثه عن أبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغري بردي ،

مما مرَّبنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شَطِّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صَوَّر أنتصاره تصويرا رائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن	إلا	قطاعةُ	الأجنادِ	وبراياتُ	عُرِّ هذا	النادى ^(١)
نحن	إلا	حكايةُ	وخيالُ	وحديثُ	الحاضرِ	ولبادي
نحن	إلا	غُسالَةُ	لمراقِ	لقدور	تفرَّغت	وزبادي
نحن	إلا	زُبالةُ	ضَمَّها الزَّبَّ	ألُ فوق	الأكوامِ	للوقادِ
جَرَدونا	فما	قطعنا	فردُّو	نا -	وقد أحسنوا -	إلى الأغادِ
وعرَّضنا	على	براذينِ	جيشِ	ما	استعدتْ	لحملةِ وطرادِ ^(٢)
ورماحِ	لم	تعتقل	لطعانِ	وسيوفِ	ما جُرِّدتْ	لجلادِ
فَهَى لا	فرق في	يد	الفراسِ	الكشِّ	حان منَّا	أو في يدِ الحدادِ

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذي يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتاري ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متكما : ما نحن إلا نُحاةُ الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غُسالَةُ لمراق بل زبالة ، ولعله يببالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أي حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا ردهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التي ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بطل ضخم .

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضا فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للترال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرُّزْقِ ياذا الذي مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرَ
أُفْرطتَ في العُسْرِ ولا بَدَّ أَنْ تنفَسَ أو تندقَ أو تنكسرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفس وتفتح أغلاقه أو يندق أو يلكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجرَّدتُ معَ فقري وشيخوختي التي تراها فنومي عن جُفوني مشرِّدُ
فلا يدعى غيري ثيابي فلاني أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ الجردُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأضياف ، حتى ليقول :

لا تَتَّقُ من آدمي* في وداٍ بصفاء
كيف ترجو منه صفوا وهو من طين وماء

فطبيعي - في رأيه - أن لا يُصنَى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائما كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله^(١) الإدكاوي

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتّاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

٣٥٢/١ وراجع ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ .

(١) انظر في ترجمة الإدكاوي وأشعاره تاريخ الجبقي

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبهر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحفنى ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجة العصر يامنهاج كلُّ علأْ يأمُحِيَّ الدين بالآثار والسُنن

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدررة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانة سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجزئية ، وبضاعة الأريب في شعر الغريب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضا تخميس بانة سعاد والدر المنتظم في الشعر المنتزم والفرائح الجنانية في المذائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانٌ أوحُدٌ من تفرَّد بالعطا ففنائحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المقدامُ في يوم الوغى والمرهبُ الآسادُ في وثباتِهِ

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوطة ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تُقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارِعَ لَحِلُّ إنَّ أَسَا وَائْسَ لَحِلُّ إنَّ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الآيات ، وتصنّف لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائقٍ قالتْ لنا بين الرِّيا بمقدّماتٍ ما بها إيهامٌ (١)
برهانٌ سعدى الآن أنتج قاتلا دَعُ وَجَنَّةَ المحبوبِ فهى ضيرام

وله مرثى مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاته وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتضع عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، موله فيه مرثيتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامُ لرَبِّهِ حميدَ المساعى فاندبنته وبالغ

وفي خاتمتها ينشد :

ولما قضى ذلك المهدبُ نَحْبَهُ وآبَ برضوانٍ من الله سابع
دعوتُ أجبائى وقلت لهم قفوا معى عند ذا التاريخ نبكى المدابغى
ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحنُ وفي تلونه قد حارتِ الفطنُ
ويختمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرّخةً حُلّيت من حلل الأبرارِ يا حسنُ

ولم ينشد له الجربى شيئا من مرثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغى ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعرى إذا دنا يرافقى أجل ثم هينوا لى تُرابى
واغتدوا لى إلى محلّ به صبحى جفونى وليس يرّجى لىابى
هل إذا غرّبوا الترابَ أيلقوا ذرّةً من عظمى فىالمصابى
ويح هذى الدنيا التى تحرق الأكر جادَ قد مرّقت بلحدي إهابى
وبذاك الفقير اغتديت رهيناً ليس لى من زاد ولا من ركابى

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفِرَ لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكيها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازادا ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنبه الشعراء المصريين في زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخصه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يردها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله في إحدى مدائمه (١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحت في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونحصى في الديوان وفي قراءة مدائمه للعزيز ، وسرعان ما نلتقى بقوله فيه (٢) :

وهو لسان التقي ومقلته	وهو يمينُ العلاء ويسراها
صُورَ من جوهر النبوة إذ	كان الورى طينةً وأمواها
فن يُطِعه يَفْرُ بطاعته	ومن عصاه فقد عصى الله

(٢) الديوان ص ٣٨ .

(١) الديوان ص ٢٦ .

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خُلقوا من جوهر لطيف مصقَّى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفافة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً (١) :

أنت المسمَّى المرجى قبل مولدو والخامسُ القائمُ المذكورُ في الكتابِ *
وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالو وصى لسلفه كما قدر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز (٢) :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نورٌ لطيفٌ تنهى فيك جوهره تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر
والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين :

نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبه إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلا ممثلا للعقل الكلي الفعال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتمام يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في إحدى مدائحه للعزيز (٣) :

وإنَّ جميع الغيب لله وحدهُ تبارك من ربٍّ ومن صمكٍ وترٍ
وما علمتُ منه الأئمة إنما رَوَّه عن المختار جدِّهم الطَّهر

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

وتميم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جل شأنه : (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تباد في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هانئ يتبادى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيرانياً ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانئ ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النغم الإسماعيلي الغالى هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وسنترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربى وليس مصرياً ، ونرى العماد الأصهباني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً (١) :

إلى ذرورة الثور العلائى إنه إلى ذرورة الثور الإلهى ينسبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذى يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة فى الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه (٢) :

صِفْ جِرْيَالِو يَرى	تَحْرِيمِهَا	مَنْ يَرى	الْحَافِظَ قَرْدًا	صَمَدًا
بَشْرًا فِي الْعَيْنِ	إِلَّا أَنَّهُ	مَنْ طَرِيقَ	الْعَقْلِ نَوْرًا	وَهْدَى
جَلَّ أَنْ تُدْرِكَهُ	أَعْيُنُنَا	وَتَعَالَى	أَنْ تَرَاهُ	جَسَدًا
فَهَوَّ فِي التَّسْبِيحِ	زُلْفَى رَاكِعٍ	سَمِعَ	اللَّهُ بِهِ	مَنْ حَمِيدًا
تُدْرِكُ الْأَفْكَارُ	فِيهِ نَبَأٌ	كَادَ مِنْ	إِجْلَالِهِ	أَنْ يُعْبَدَا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والسمودية ، وكان دعواتهم يزعمون أن الله

ينبغي أن يتزّه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلى الأول وأسماءه . ومرّ بنا أنّهم كانوا يزعمون أنه ممثول الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسمائه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخشش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه العين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . وعلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعى دعائها ، إذ يروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين^(١) :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى فى كلِّ وقتٍ بروزه نحياته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب فى المسيح .

وعلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع^(٢) فى مدائح بنى أبى أسامة كتّاب الإنشاء فى عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأمينى فى الغدير من شعراء المستنصر فى سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهاني فى الخريدة إذ أنشد له شعرا فى ابن^(٣) رُزَيْك الوَليزِ الفاطمى من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة فى فضائل على بن أبى طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول^(٤) :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى
كبدى بكم مقروحة ومدامعى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لجنونى اجتنى لذيد كراك^(٥)
وايكى قتيلاً بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق براك

وهو يغلو فى مديح على بن أبى طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحرت له رُخاء ، ويقول إنه

(١) خطط المقرئى ٢١٤/٢ .

(٢) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطف ٣٢٨/٢ .

(٣) كراك : نومك .

(٤) الخريدة ١٠٥/٢

(٥) الخريدة ٢٣١/٢ وما بعدها

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانئ والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

ابن هانئ^(١)

هو محمد بن هانئ المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالهيم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رّوح واليهما بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانئ ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أدبيا نزع إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلي هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، غير أنه كان كثير الانهماك في اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلي متابعا في ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالفجوة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله في جعفر :

المشرقات النيرَاتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجعفرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلي ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع في مدائحه ، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يمم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

اللسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدياء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبي ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر في ابن هانئ وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطمح للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجلوة للحميدى : ٨٩ وبغية المنتس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة

رأيت بعيني فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفقَ سدًّا بمثله فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلعُ

ونوه بالجيش وعظمه ورحلته جوهر المظفرة إلى الديار المصرية ، ولم يلبث جوهر أن أرسل إلى المعز يهنئه بفتح مصر سنة ٣٥٨ فهتف ابن هانيء فرحاً مستبشراً :

يقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مِصْرُ قفل لبني العباس قد قُضِيَ الأمرُ
ومدَّ جاوز الإسكندريةَ جوهرُ تصاحبه البُشْرَى ويقدمه النَّصْرُ

وجمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر سنة ٣٦٢ وشيعة ابن هانيء ورجع إلى أسرته بالمغرب لأخذها معه واللحاق به ، وتجهز وتبعه ، غير أنه اغتيل في برقة لشهر رجب سنة ٣٦٢ ويقال إنه لم يشيع المعز بل كان في صحبته إلى أن دخل مصر ثم عاد إلى المغرب لأخذ عياله ، واغتيل ببرقة كما ذكرنا . ولما بلغت المعز وفاته حزن عليه وتأسف قائلاً : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . ولعله لم يكن يريد أن يفاخر به من حيث روعة شعره فحسب ، بل كان أيضا يريد أن يفاخر به من حيث استظهاره للعقيدة الإسماعيلية ومبادئها المفرطة في الغلو افراطا بعيداً حتى لتتحرف عن الإسلام وجمادته .

وبمجرد أن نقرأ في ديوان ابن هانيء نراه يردد أن إمامة الفاطميين ربانية وأنها فريضة مكتوبة على كل مسلم وأنهم يتوالون بترتيب إلهي وأنهم معصومون من كل زلل وأن طاعتهم من طاعة الله من أطاعهم استحق رضوان الله ومن عصاهم كان ماله الخسران المبين ، يقول في المعز :

إمامٌ رأيتُ الدين مرتبطاً به فطاعته فوزٌ وعصيانُه خسْرُ

وهم دائماً مبرأون من الذنوب مطهرون من الآثام ، بل هم نور الله ومشكاته في العباد ، يضيئون للناس حياتهم ، ويكشفون عنهم ظلمات الضلال ، وكأنهم يُتَمون نور الله أو كأنهم يشاركون فيه ، يقول في المعز :

وما كُنْتُ هذا النورِ نورُ جبينه ولكنَّ نورَ الله فيه مشارِكُ

ويكرر هذه الفكرة كثيراً في مثل قوله مادحا للمعز :

تَسْعَى بنورِ الله بين عبادِهِ لتضيءَ برهاناً لهم وتُلوحاً
وجَد العيانُ سناك تحقيقاً ولم تُحِطِ الظنونُ بكنهه تصرحاً

وقد انتقل ابن هانيء نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضيائه فحسب ، أما هو فكأنه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلاً :

أَتَبَعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَاهِنِهِ يَلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفِهِ وَتَحْدِيدِ

وقد خطأ ابن هانيء في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز مخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحتهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أوروها وجسما . وبالغوا فخلصوا - مثل ابن هانيء - أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أونورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هانيء يقول في المعز :

مَا شِئْتَ لَأَمَّا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكَمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَيَقُولُ فِيهِ أَيْضًا :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا عَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذُّنُوبِ صَفُوحًا

فالمعز الواحد القهار المنتقم العزيز القادر العفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعواتهم وشياطينهم أن ينزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبغوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانيء في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتَكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يُرَزَّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحْرِمُ مِنَ النَّاسِ يُحْرَمُ

فمن شاء رزقه ووسع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانيء فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَتَحَيَّرْتُ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا يهين على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يهين ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأ فيه من أن الإمام ممثول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ وَلَعَلَّةٍ مَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لَكَ الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ تَجْرِي صُرُوفَهَا بِمَا شِئْتَ مِنْ حَتْفِ رِزْقٍ مَقْسَمٍ

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي يهين على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أَرَى مَدْحَهُ كَالْمَدْحِ لِلَّهِ إِنَّهُ قُنُوتٌ وَتَسْبِيحٌ يُحِطُّ بِهِ الْوِزْرُ

ويستضئ ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُختَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منته آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنت نوحاً منذراً في قومه ما زادهم بدعائه تضليلاً

ويتمثل فيه قيس موسى وشعلته وهدهد :

من شُعلة القَبْسِ التي عُرِضَتْ عَلَى مُوسَى وَقَدْ حَارَتْ بِهِ الظُّلَمَاءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتي بإذن الله :

أَقْسَمْتُ لَوْلَا أَنْ دُعِيَتْ خَلِيفَةً لِدُعِيَّتِ مِنْ بَعْدِ الْمَسِيحِ مَسِيحًا

ويعثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنا أنت النبي محمدُ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحل فيه ، بل لكأنه الله ، جلَّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلَّ بقرية رَقَّادة بجوار القيروان :

حَلَّ بِرَقَّادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هانئ شاعرا فلذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبة التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا يعدُّ مستولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مستولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هانئ يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَتَقَّتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَنْبَرٍ وَأَمْدَكُمْ فَلَقُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
وَجَنِيئُكُمْ تَمَّرَ الْوَقَائِعِ يَانَعًا بِالنُّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضِرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ربحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيف شجرا مورقا مشمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيده تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيد^(١) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

(١) إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأديب ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن

المهجري لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للفاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعوة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر خسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرَّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعينه الوزير البيازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طغربك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محملا بالأموال من المستنصر ، ويحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازره أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعده الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرَّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعوة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقا ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين اقصر . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلعه بمرتبة داعي الدعوة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

في كتابه « المجلس المؤيدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي اليمنى ، وعُنى بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية (١) . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلا في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله الخضر « الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهم ووقفها على الأئمة :

ياقومُ سِرُّ الملكوتِ هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سِرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي لن تستطيع صَبِرا
تدبِّروا القِصَّةَ ماذا يَمَّا من قِصَّها إن لم تكونوا نُوما

وكان كل إمام خضر زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناء الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هانئ ، وقد مضى المؤيد وراءه بردد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبح عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجرون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنانَ والنارَ فيهم فلكل نصيبه الموجب

كبرت كلمة بل كلمات تخرج من فمه ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمَّ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا أَمِنُوا الْمَوْتَ
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبِيلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بِلَامِسْكِ دَلَّيْتِ وَوَجَّهَتَا
وَمِيزَانَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤَفَّى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتِ وَفَيْتَا
فالمستنصر وأمثاله ميزان الله في الأرض ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعضياتهم
ومقداره يكون العذاب ، وما يزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال والبهتان في ديوانه .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أمتهم وأنهم مثل العقل
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى
تُسبِّغُ عليهم ، وقد رُتِّبوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثّل من
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستنصر وآله :

سَلامٌ عَلَى الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلامٌ بَدَيْتُ عَلَى آدَمِ	أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرِ
سَلامٌ عَلَى مَنْ بَطُوفَانِهِ	أَدِيرَتْ عَلَى مَنْ بَغَى الدَّائِرَةَ
سَلامٌ عَلَى مَنْ أَتَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحْفَتْ بِهِ النَّائِرَةُ (١)
سَلامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عُصَاةً فِرَاعِنَةً جَائِرَةَ
سَلامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي	بِمَبْعَثِهِ شَرَّفَتْ نَاصِرَهُ (٢)
سَلامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ	وَلِيِّ الشِّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدِرِ	وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصِرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةَ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجْهُهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةَ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم
الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيق المشفع في الآخرة ، وعلى أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو علي والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفي المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

ظافر (١) الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكُتّاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكبَّ الصبى على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سوّت منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصهباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقَى بالمساجد ، ولكل شخص الحلق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحمّاميا ووراقا وخياطًا وكحالا . وقد

والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ وفي أدب مصر الفاطمية ،
للكنوز محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسن
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت
أمية في الجزء الأول من نواذر المخطوطات لعبد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايات له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فلان ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشي عاقبة الأمر وطلب حداذاً كي يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ فِي أوصافك العالَمُ واعترف النائرُ والسنائِمُ
من يكنِ البَحْرُ له راحةً يضيقُ عن خنصرِهِ الخائِمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أوطوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوًّا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال وأمرٍ تخطى له واعتمدُ
وأعجبُ به إذ بدًا جاثماً فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلسائه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الدباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ شيباً كما فأدركني بعضُ شكِّ
وفكَّرتُ فيما رأى محاطرى فقلتُ السِحارُ مكانُ الشبِّ

وكانت هذه الحادثة سببا في اشتهاظ ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدمه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في الفسطاط ، وأخذ يدبج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنابُ الأفضليُّ يُكِنِّي ذُرَى ظِلِّهِ إني إذنُ لسعيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطاحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حينئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائح للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون لإسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل القسطنطينية يقصر مدائح على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًا ، وكان المأمون البطاشي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكب على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدح لبيحتديه ، يقول في إحدى مدائحه للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أجادَ ابنُ هاني في المعزِّ مدائحا هداه إليها ذلك الفضلُ والمجدُ
وقد جادَ مدحى فيك لما رأيتُ ما رأى فاستوى المدحان والابنُ والجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فمن عاشَ أحياءَ نداهُ ومن يمُتْ على حبه طوعاً فسكنه الخلدُ
أطاعته أسرارُ القلوبِ ديانةٌ فما لامرئٍ لم يعتد حبه رشدُ
فطاعته فرضٌ وخدمته تقى ونصرتُهُ دينٌ ومرصاته جدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضوع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قائلاً في الأمر :

إمامٌ تبدى للورى من جبينه ضياءً به تُشفى بصائرُها الرمدُ
ونوركٌ ما يهدي الصباح لناظرٍ ولولاه ضلَّ الناسُ وامتنع القصدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانئ دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البائدة بآدم والتي ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قاتلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا بهِ آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثْلِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تَعْلِيلِهِ
ما زال يَتَّقِلُهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهْرٍ مثلِ ذَبِيحِهِ وخَلِيلِهِ
وتوارثته الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حتى حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، وما زال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والثفحة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانئ يقول في العزائمه جوهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانئ في المعز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانئ . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيثارة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانئ ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يخطون في غفلة لا تدانيها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حُرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فرغهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبهما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي أتاحا الملدحة له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صَوَّرناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجلالى السنى وزيراً له ، حيثئذ نجد ظافراً يمدحه مدحاً يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلى الذى رأيناه فى مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبة وتعصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد الحميد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ مختلف وراء الرماذ ، مما جعل ظافراً يدافع فى بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه فى الخلافة قائلاً :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً فى نقلها
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةِ فى شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه على بن أبى طالب رأس الأئمة . ولا يبلغ ظافر فيما كان يعتقد الإسماعيليون فى أئمتهم من معانٍ قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل فى بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية فى مديحه قوله .

يا حُجَّةَ الله التى أبدتْ لنا بِكَمالِها الآياتِ وألبرهانانا

وكأنما حدث انقلاب فى مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له فى الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش فى مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفى سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هى فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانىءٍ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يعد استظهاره قشوراً ، ردّها حيناً فى مديح الأمر ثم كف عنها فى مديح الحافظ إلا ما سقط عفا .

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العماد الأصهبانى فى ترجمته له بكتابه الخريدة :
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر . . حدّاد لو أنصف لسمى جوهرياً ، وكان باعترائه إلى نظم اللآلى حرياً ، أهْدَى بِرَوَى شعره

الرؤى للقلوب الصادية^(١) ربياً ، فياله ناظماً فصيحاً مفلحاً جرياً^(٢) . وحقا شعره غاية في السلاسة والعدوية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائماً في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن في خفة وإشاقة . ودائماً تلقانا عند ظافر العدوية والرقعة على نحو مانرى في مثل قوله متمزلاً :

ياساكنى مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ
أمن المروءِ أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْدمًا من قلبه

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقتلها دَمَهُ فمنهُ على وَجنتِها سِمْةُ
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضاباً لكى تُوهِمُهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم إغراقا يروع قارئه ، وسننشده قطعة من غزله في الفصل التالى ، ونكتفى بصورة واحدة من صورهِ الحاملة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة ، وهى صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بنيةَ الهرمين وأنظُرُ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعمَّارَيتينِ على رحيلٍ لمحبوينِ بينهما رقيبُ
وماءُ النيلِ تحتهما دموعُ . وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهى صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحاملة ، فالهرمان كأنهما عماريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهمنى تحت أقدامها نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولها تتحجب وتئن أنيباً لا يتقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تعنى به الشعراء مصورين حبهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلدع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو حميم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِمَ حتى من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويعيد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا يججلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى جار ، حب نقى صاف ، حب يمتلى إحنائا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلد النفس ويمتعتها ، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما سنراه واضحا عند ابن النبية والبهاء زهير .

ويجئ إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبداً في قلوب الشعراء ، فهم دائماً يَصْلَوْنَهَا وَيَصْلَوْنَ مَعَهَا البعد والفرق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هانئ^(١) .

فَتَكَاتُ طَرْفَةَ أُمِّ سَيْوْفٍ أَيْبِكُ وَكُتُوسُ خَمِيرٍ أُمِّ مَرَأَشْفُ فَيْكُ
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتَكُ مَحَاجِرِ مَا أَنْتِ رَاحِمَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ
يَا بِنْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكِ أُمِّ مَعْنَاكِ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكِرَى أَلْقَاكِ أُمِّ وَادِيكَ
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاثَةً طَارِقًا حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
مَنْعُوكِ مِنْ سِنَةِ الْكِرَى وَسَرَّوَا فُلُو عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُّوكِ

وهو لا يدرى كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أُمّ الشبه فتكات سيف أبيها ، وإنما جميعاً لتصبيه في الصميم دون أى رافة ، وإنه لياتس بأساً شديداً من رافة أبيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائهما ورؤيتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألماً شديداً ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبيت خائفاً منهم حذراً ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحمران واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسى والتباعا ، يقول^(٢) :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى رَمَى الْبَيْنَ بِالتَّفْرِيقِ أَلْفَتْنَا وَحَلَّ مِنْ وَصْلِهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِدَا
فَإَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى فِي الصِّدْرِ لَمْ يُتَقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدًا
قَالَتْ وَعَبَّرْتَهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا
لَا تَطْلُبُ النُّطْقَ مَنَى بِالسَّلَامِ فَمَا أَبْقَى فِرَاقَكَ لِي رُوحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستعر بين جوانحه ، ويبتالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدرارا مرسله

(١) ديوان ابن هانئ (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتبهة ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحبياته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالت وقد نالها للبين أوجعُه والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُه
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ ما فيه وأضلَعُه
كأنني يوم وُلْتُ - حَسْرَةً وأسَى - غريقٌ بَحْرٍ يرى الشاطي وَيُمتَعُه
فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، ونحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتحمي يادها نفس المشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطي ولا يستطيع وصولا إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدراان الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ اسْمَحْ لي بتقبيلِ أعيش به قالت : وأئى محبٌ قَبْلُ القمرَا
ومرَّبنا في ترجمة ظاهر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بحفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجرى على هذا النمط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَادُه ماسحٌ وابلٌ دمعُه ورَدَادُه
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الخدقِ الجراض عيَادُه
لا تخدعَنَّك بالفتور فإنه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِكَ اسْتِلْدَادُه
يا أيها الرِّشَاءُ الذي مِنْ طَرَفِهِ سَهْمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُه
دُرٌّ يلوح بِفَيْكِ مَنْ نِظَامُه خمرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَادُه (٤)
وقناةُ ذاك القَدِّ كيف تقوِّمَتْ وسيناً ذاك اللَحْظِ ما فولادُه
رَفَقًا بجسمك لا يذوبُ وإنني أخشى بأن يَجْفُوَ عليه لادُه (٥)

(٤) النباذ : صانع النبيذ

(٥) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٥/٣٧٦ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعلوية ، حتى مع قوافيها الذاتية ، وتملأ صورته النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حَبِّ القلوب وسويدائها ، ويخال دُرًّا ملء فمها ويتساءل من نظمه في هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخمر حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامته صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتَّخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة . وإن جسد صاحبه ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهافته . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكة فيه (١) :

عتتْ ولكنى لم أع وأين ملامك من مسمعى
وما قدر عتيك حتى يزيل غراما تمكّن من أضلعي
وما دام لومك إلا وأنت تقدر أن جناني معي
مضى كى يودّع سُكَّانَهُ غداة الفراق فلم يرجع
قوادى في غير ما أنت فيه فخذ في ملامته أودع

والقطعة تموج برقة الحسّ ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللفظ اللذين يشتهر بها أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة الفاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعدهى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذى سنعرضه عند ابن التّيبه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كنى عتابا فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئا مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائيمهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود اريق .

وربما كان من تنمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدياتى يتغزل بجمارية سوداء ، محاولا بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظنّ من قبح السواد ، يقول (٢) :

وعاذلٍ مُخْتَفِلٍ مجتهدٍ في عَـذْلِي
 يلومني في ظُـبِيَّةِ مخلوقةٍ من كُحْلِ
 إن السَّوَادَ عَـلَّةٌ من نورِ هدى المُقَلِّ
 والحَجَرُ الأسودُ لم يُخَلِّقْ لغير القُبَلِ
 والقارُّ - مذ كان - وعاءُ السَّلْسِيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تزدان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المنبثق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذها في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يستندون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم بمبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير^(١) :

إذا أحرقت في القلب موضعَ سُكْنِهَا فمن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثْوَاهَا
 وما الدمعُ يومَ البَيْنِ إلا لآئِيٌّ على الرَّسْمِ في رسمِ الديارِ نثرانها^(٢)
 وما أطلعَ الزَّهْرَ الرِّبِيْعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ العُصُونِ فحلَّاهَا
 ولما وقفنا للوداعِ وترجمتُ لعينيَ عما في الضمائرِ عَيْنَاهَا
 بدتُ صورةً في هيكلِ فلو أننا ندينُ بأديانِ النَّصَارَى عبدانها

وهو يشكو من النار التي دلعتها صاحبتة في فؤاده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، قلبه ملئٌ بها فتوتا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفرق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلم سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جاهلها بفؤاده ، حتى لتبدوله وكأنها صورة في هيكل تقدّم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري ، إذ يستحيل وجدًا وصباية ورقة وخفة من مثل قوله^(٣) :

(٣) الخريدة ١/٢١٦ .

(١) معجم الأدباء ٦١/٩ .

(٢) على الرسم : على العادة .

هُمُ نُصِبَ عَيْنِي أَنْجِدُوا أُوغَارُوا وَمَتَى قَوَادِي أَنْصَفُوا أُوجَارُوا (١)
 فارتقتهم وكانهم في ناظري مما تمثّلهم لى الأفكار
 تركوا المنازل والديار فهاهم إلا القلوب منازل وديار
 واستوطنوا البيد القفار فأصبحت منهم ديار الإنس وهى قفار
 فلئن عدت مصر فلاة بعدهم فلهم بأجواز القلا أمصار (٢)
 أوجاوروا نجداً فلى من بعدهم جاران: فيض الدمع والتذكر
 والدهر ليلٌ مذ تناءت دارهم عنى وهل بعد النهار نهار

لانه لن ينساهم أبداً مها أنجدوا أو غاروا ومها شرقوا أو غربوا ، ومها أنصفوه أو ظلموه ، لقد
 فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم
 منزلا عظيما ، لا تزيله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبه . وينظر إلى الديار والمنازل
 حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها قفرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة
 فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الحرب إلا جاران : تذكراهم ودموعه المنهلة
 التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلا داجيا ، فقد أخذوا معهم
 كل شيء حتى النهار وضياؤه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله (٣) :

لم يهن قط علينا بعدكم مثلها هان عليكم بعدتنا
 لم تبالوا إذ رحلتم غدوة أى شيء صنع الدهر بنا

وقوله (٤) :

أحببنا مابآلكم فينا من الأعداء أعذنى
 وحياة وذككم وتر بة وصلكم ماخنت عهدا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصرى ، فالوصل مات وقبر
 والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وترتهم أو قبورهم - بترية الوصل العزيز
 وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ١/٢١٩ .

(٤) الخريدة ١/٢١٤ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أى

تهامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة^(١) :

يساربُ إن قَدَرْتَهُ لِمُقَبَّلٍ غَيْرِي فَلَئِمْسَاكٍ أَوْلَاكُؤُسٍ
وَلئن قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَارَبُّ فَلَئِكَ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلْتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفقتها سوى المسواك للوضوء والأكؤس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لا بد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ينجح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله^(٢) :

يَاظْرَفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقَلْبُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ
مَنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرَّخِيسَ جَمِيعَهُ مِنْ وَصْلِكَ الْعَالِي يَوْمٍ وَاحِدٍ
عَاتِبْتُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَاتُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو وواله بها واجد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالحنجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلتين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله^(٣) :

تُرَى لِحْنِي أَوْ حَنِينِ الْحَمَائِمِ جَرْتُ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دَمَوْعُ الْعَمَائِمِ
وَهَلْ مِنْ ضَلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكَلُّ أَرَاهَا دَارِسَاتِ الْمَعَالِمِ
لَقَدْ ضَعَفْتُ رِيحَ الصَّبَا فَوصلْتُهَا فَمِئِي لَامِنَا هَيُوبُ السَّمَائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أيحاكى السحاب في قطره المنهل حنينه المتناع أو هو يلي

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحائم وما ترسل من حين شجى ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارّة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سماء لافحة .

ونلتقى بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يوج بوجد لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يدوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيارانا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يمانله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمِهِ أنا أحنى عليه من قلب أمّة
ضنّ عنى بريقه فتحيدّ ت إلى أن سرّفته عند كئيبه
وإلى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فمى حلاوة طعمه
إن قلبى لصدره ورقادى ملك أجفانه وروحي لجسمه
يكسّر الجفنَ بالفتورِ ومالى عمل عند كسرو غير ضمه

والأبيات توج بالعدوية والظرف ، فكله حنان لصاحبته ، حتى ليفرق حنوه عليها حنو الأم . ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحسّ فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعم المشوق وأنعم المشوق فالعيش كالخضر الرقيق رقيق
خضر أدير عليه معصم قبلة فكان تقبيل له تغنيق
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا خدود العاشقين طريق
فرشوا الخدود طريقه فكأنما زفراهم لقدمه تطريق (٣)
وأفى وصبح جبينه متنفس وأنى وجيد رقيب مخلوق

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للبارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوهّان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء ، وأحس باحتياج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجبينها المشرق إشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله ^(١) :

سَعِدْتُ بِبَدْرِ خَدِّهِ بَرُجُ عَقْرِبِ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمِ
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَعِ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لَوْعِي
وَلَا سَمًّا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِهِ كَفَضَلَةِ صَبْرٍ فِي قَوَادِمِ مَتَمِّمِ
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعْدَ أَرَاكَةِ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْءُ مَبْسِمِ ^(٢)
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثْمِ مَبْسِمِ شَهِيٌّ لِقَلْبِي لَثْمٌ آثَارِ مَسْمِ ^(٣)
بِكَيْتُ بِكَلْتِي مُقَلْتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدَ فَاتَ عَيْنِي مَتَمِّمِ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصح برهان له عند لائمه ، أنصح من الصباح في وضوحه وضيائه . وقد مرّ بمنزها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوهّان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلّق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لألائه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبة يقتطفها أو ما يشبه القبة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يلنّب لطفًا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحثل في غزله بين على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن ، من مثل قوله ^(٤) :

فَتَنَنْتَنِي مَكْفُوفَةٌ نَاطَرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(٣) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الحية .

(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) مبسم : نعر

فَهِيَ لَمْ تَسَلِّ الْفُتُورَ حُسَامًا لَا وَلَمْ تَحْمَلِ اللَّحَاظَ سِينَانًا^(١)
وَهِيَ يَكْرُ الْعَيْنِينَ مُحَصَّنَةً الْأَجْدُ فَنَ مَا افْتَضَّ مِيلُهَا^(٢) الْأَجْفَانَا
قَصَّرَتْ عَشَقَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تَعِدْ شَقَّ فِلَانًا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فِلَانَا
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَحْتَا رَ عَلَى مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا
عَمِيَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِزْدُ سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْلَى الْمَكَانَا
عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنته بحسبها ، وهي فتنة مزروجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمي سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسان اللحاظ ، ويصفها ببيكاراة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينيها ، وإنها لتفرد بالحلب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينيها ، فنحنته عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب التابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصدأوه الواسعة في غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبههم وما يدوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله^(٣) :

قَلَدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جَيْدَ مَوْدَعِي دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) اللحاظ : مؤخر العين مما يلي الصدغ .

(٢) فوات الوفيات ١/٢٣٦ .

(٣) النيل : المكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد
 يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم
 هيهات يرجعُ شملنا بالأجرع
 بحياتكم جودوا عليّ تكرّماً
 فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم
 يانازحين فهل لكم من عودةٍ
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى
 طيبَ الحياةِ ففى البقا لا تطمئنى
 ويعود أحبابى الألى كانوا معى^(١)
 ففسى خيالكم يلمّ بمصّجعى
 وتضرّمتُ نارُ الأسى فى أضلعى
 نزعَ التفرّق ما بقى من مدمعى
 هلكت من شوقى وفرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفرق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانها فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أو رجعة تردّ إليه روحه وتردّ عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .

ونلتقى بتقى الدين^(٢) السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبوحيان : كان مع زهده وعفته مغرماً بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لرقّة انسجامه وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أَنعمُ بوصولك لى فهذا وَقْتُهُ
 يا من شغلتُ بحبّه عن غيره
 بالله إن سألوك عنى قل لهم
 أوقيل مشتاقٌ إليك فقل لهم
 يا حُسنَ طيفٍ من خيالك زارنى
 فضى وفى قلبى عليه حسرةٌ
 يكفى من الهجران ما قد دُقتُهُ
 وسلوتُ كِلَّ الناس حين عشقته
 عبْدى ومِلْكُ يَدى وما أعتقتهُ
 أدرى بدأ وأنا الذى شوقتهُ
 من عَظْمِ وَجْدِى فيه ما حَقَّقتهُ
 لو كان يمكننى الرِّقادُ لحقتهُ

وهو يتضرع لمحبهه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذلاً له إنه عبده ومملك يده ولن تُردّ إليه حرّيته ، ويشكو لواعج الشوق ،

٤٦٦/١ وخزانة الأدب للحموى (طبع بولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكذب يحققه أو يتحقق منه حتى قرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاذه قليلا حتى يشفى منه غلّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزائنه على هذه الأبيات بقوله : « ما نفضت السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفضات ولا لسلاف نثر الحجاب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قصدَ الحمى وأتاه يَجْهدُ في السرى حتى بدتْ أعلامُه وقبائهُ
ورأى لليلى العامرية منلا بالجود يُعرفُ والندى أصحابهُ
قد أشرعتْ بيضُ الصّوارمِ والقنا من حوله فهو المنيعُ حجابهُ
وعلى حِماه جلاثةٌ من أهله فلذلك طارقةُ العيون تهابهُ
كم قُلبتْ فيه القلوبُ على الثرى شوقا إليه وقُبلتْ أعتابهُ

وهو يرمز لصاحبه بليل العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ البيد بأغالي حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليالي المتصلة حتى بدت أعلام حياها وقبابه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا في أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كيف شئتَ فإننى بك مغرمٌ راضٍ بما فعل الهوى المتحكّمُ
ولئن كتمتُ عن الوشاة صبابى بك فالجوانحُ بالهوى تتكلمُ
أشتاقُ من أهوى وأعلم أنى أشتاق من هو فى الفؤاد مخيمُ
يامنْ يصدُّ عن الحب تدلُّلاً وإذا بكى وجداً غداً يتبسّمُ
أسكتك القلبَ الذى أحرقتَه فحذارٍ من نارٍ به تتصنّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب

يكتمه بينما جوائحه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشاق صاحبه ويود لقاءها ، بينما هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لئمن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبتسم . ويحذرهما من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذي أحرقتة ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مندلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله (١) :

أهلاً بطيفِ على الجرعاء مُختَلَسِ والفجرُ في سَحَرِ كالثغرِ في لَعَسِ (٢)
والنجمُ في الأفقِ الغربي مُنحَدِرُ كشُعْلَةٍ سقطتْ من كَفِّ مُقْتَسِ
ياحِبُّدًا زمنُ الجرعاءِ من زمنِ كلُّ الليالي فيه ليلةُ العرسِ
وحبِّدًا العيشُ معَ هيفاءِ لوبرزتْ للبدرِ لم يَزُهْ أو للغصنِ لم يَوسِ
محروسةٍ بشعاعِ البيضِ ملتمعاً ونورُ ذلك المحيّا آيةُ الحرسِ
يَسْعَى وَرَاءَ لَحْظِهَا قَلْبِي وَمِنَ عَجَبِ سَعَى الطريدةِ في آثارِ مفترسِ
ليت العذولَ على مرأى محاسنها لو كان ثَنَى عمى عَيْنِهِ بالحرسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تليج الثغرفي لعس الشفاه ، والنجم يسقط في الأفق الغربي منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجرعاء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيته التي لورآها البدر لغضٌ من زهوه ولو رآها الغصن لغضٌ من ميسانه وخيلاته . ويقول إنها ممّعة محروسة بسيف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذي يُشِعُّه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضياءها أحال عيني العذول عشوائين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخوسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أي حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثرون من الغزل النواجي (٣) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكييت في الخمر والندماء وآدابهم ، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

(١) ٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني

(٢) ١٥٦/١ وصفحات لم تشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبتدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه . ومن كتبه « عقود اللآل في الموشحات والأرجال » .

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .

(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .

(٣) انظر في النواجي وشعره الضوء اللامع للسخاوي

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خليلي هذا ربيع عزة فاسعيا إليه وإن سألت به أدمعي طوفان
فجفتي جفا طيب المنام وجفنها جفاني ، فيالله من شرك الأجان

ونحى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني المتنازع حتى إذا أظل لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرَّجه
وتلميذه يحيى^(١) الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بدا بوجه جميل الوصف والشان يقول : سبحان من بالحسن وشاني^(٢)
كأنه روضة غناء مزهرة من دمع عاشقها تسقى بغدران
أشبهت في حبه ورق الحمى فعدا كل بيت الجوى شجوا على البان

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،
والحد بالورد والشقيق والعين بالترجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه بيت جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه
على من قامتها تحاكي قامة البان . وتخرج على يد الأصيلي يوسف^(٣) المغربي ، وغزله كغزل أستاذه
يسيل عدوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباح مباسماً ثم الظلا م صفائراً ثم الرماح قدودا
والورد خدداً والغصون معاطفاً والبدر فرقاً والغزالة جيداً
ورأت غصون البان أن قدودهم فاقت فأصحت رُكعاً وسجوداً

وتشبيه قدود الحسان بالرياح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي
والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة في رشاقة الموسيقى وجمال
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي ربحانة الألبا ٣٢/٢ وما
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي ربحانة الألبا ٣٨/٢ وسلافة
العصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشاني : زيني .

عقيقُ دمعى غداً في الجِرْع كاللِّيمِ
وانهْلُ مُنْسَجِماً من نارِ مضطرمِ
ظَبْيِي نَفُورِ أنيسِ ناعسِ يَقِظِ
إِنْ أَرْضَ يَعْضِبُ وَإِنْ أَقْرَبُ نَأَى صَلَفًا
مُهْفَهْفِ مابدتُ للغصنِ قامتهُ
وإن تبسّمَ ما بَرِقُ بِكاظِمَةِ
ما فيه عَيْبٌ سوى تفتيرِ مُقْلَتِهِ
مُدُّ بَانَ سَكَانُ بانِ الحَيِّ والعَلَمِ
مِلَّانَ وَجَدًا إِلَى خِشْفِ بَدْيِ سَلَمِ
بالليلِ مَشْخِجٍ بالصَبحِ مُلْتَمِمْ
وإن أذَلَّ يَتَهُ بِالْعَزِّ والشَّمَمِ
إلا انْتَهَى ذابِلَ الأوراقِ ذا ضَرَمِ
له وَمِضُّ يَجْلِي داجِي الظَّلَمِ
وَفَتَكَها في فَوادِ المُدْنَفِ السَّقَمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاي إنه مازال يبكي حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر في الجرع أو جانب الوادي وكأنه ديم مسكوبة مذ بُعد سكان الوادي والعلم أو الجبل وما بهما من شجر البان ، وإنه ليبكي وأحشاؤه تضطرم بوجود مبرج إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلتم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازور عنه وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشما أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتهبة . وإن ابتسامته لتضيء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق السماعا في الليالي الداجية . ويجعل عيبه الوحيد فتور عينيه الذي طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التي تصمى أفئدة المرضى بالحلب ، وتفثلك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجداني الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرج ولوعات ممهضة .

ابن النبيه (١)

هو الكمال أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقا بديعا وطبع طبع حجر في القرن الماضي . وطبع الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر بيروت .

(١) انظر في ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسين المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه وترته وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صا
الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مخ
له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كل
من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُودِ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكُم تَرْتِ
وَوَصَلْتُ السُّهَادَ أَقْبَحَ وَصَلٍ وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَدِّ

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعجَبْ بالقصيدة ، فلم يعين في دواوين صلاح الدين وأيض
يعين في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه
مدائحه إليه وإلى وزيره الصفي بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حينئذ بينه وبين الأش
موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذها كاه
وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . و
ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرقّة لموقعها على الفرات وابن النبيه
يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم
المناسبات - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانه
الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى
النبيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورٌ ونارُ الحربِ موقدةٌ وأنت موسى وهذا اليوم ميقدة
أثلجت صدرَ رسولِ الله وانكشفت عن سرحِ الدين والدنيا غمام
اللهُ أكرمُ أن تُمسي مزامرهم تُتلى وتُنسى من القرآن آي

وهو يستغل اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر
القصيدة أن عصاه تلقفت كل ما أفكوا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون
وأسرًا وسيبًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه مجزى لا يماثله خزى .

ويدل ديوان ابن النبيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبتهجة يتمتع
بالرياض ومجالس الأُنس والطرب حتى وفاته بنصيبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هناء

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حينه يترقق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكنياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة المنورة الذى طالما تغنى به شعراء الصباية والحب المتناع :

يَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجْنَهُ مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَكْنَهُ
 وَمَرْبِعُ اللَّهْوِ يَانِعُ خَضِلٌ أَمْ غَيْرَ الدَّهْرِ بَعْدَنَا دِمْنَهُ (١)
 يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنْبِي وَمَهْجِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَهُ
 بَلِّغْ حَدِيثَ الْحَمَى وَسَاكِنِهِ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ
 أَشْقَى الْمُحِبِّينَ عَادِمٌ وَطَرًّا فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ
 سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الَّتِي سَلَفَتْ كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقْتَرَنَهُ
 لَوْ بِيَعِ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ كُنْتُ بِعُمْرِي مُسْتَرْحِصًا ثَمَنَهُ

وابن النبيه في أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يعتلج في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادى النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لايزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النظرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراهه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضنّاً وسقماً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً يطمئنه عن الحمى وساكته . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالحب المقتون الذى عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضياً بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبيه بذلك يصور تصويراً رائعاً تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمئنتهم إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النبيه أحسننا بوضوح أنه يمثل في غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماعة والرقّة وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضاً في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البدئية ، فهو قلماً يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) خضل : مبتل ندى . اللمن : جمع دمنة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لغزله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن ^(١) لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفِيهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَى أَوْضِيْعًا مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَا
مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ الْحَبِيبِ كَظْلَمِهِ حُلُوًّا فَقَدْ جَهَلَ الْحُبَّ وَادَّعَى ^(٢)
يَا أَيُّهَا الْوَجْهَ الْجَمِيلَ تَدَارِكُ الصَّبَّ النَّحِيلَ فَقَدْ وَهَى وَتَضَعَّضَعَا
هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِمَتِّمْ ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ فَوَادًا مَوْجَعَا
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي أَوْ أَشْتَكِي بَلَوَايَ أَوْ أَتَضَرَّعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيَّعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسترحمه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يثبه شيئا من حبه أو من محنته فيه . ولا تقل جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانًا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطْلُ فَمَنْ جَفْنَيْكَ أَسْيَافٌ تُسَلُّ
يَزِيدُ جَالُ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَبِى جَسَدٌ يَذُوبُ وَيَضْمَحَلُّ
وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ
إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ تَرَى مَاءً يَرِفُّ عَلَيْهِ ظِلُّ ^(٣)
وَقَدْ يَهْدَى صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا لِبَلِيلِ الشَّعْرِ قَدْ تَاهُوا وَضَلُّوا

وابن النبية يتوسل إلى صاحبتة أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تُبقي عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذى يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحوها . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هى تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

(٣) الذوائب : صفائر الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعائى للدكتور محمد عبده

غانم (طبع دار الكاتب العربى ببيروت) ص ١٧٧ .

وتزداد كل يوم دلالات وإعراضا . وماذا يبصر؟ إنه لا يبصر إلا جبالا فاتنا وجسدا ساحرا رقيقا ورقة الماء يهتز عليه من الشعر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكني السفح كم عَيْنٍ بكم سَفَحَتْ نَزَحْتُمْ فَهِيَ بَعْدَ الْبُعْدِ قَدْ نَزَحَتْ
 لَهْفِي لَطِيئَةً لَأَنْسِيْ مِنْكُمْ نَفَرَتْ لابل هي الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ
 بِيَضَاءِ حَبِّهَا الْوَاشُونَ حِينَ وَشَوْا عني ولو لمحتْ صِينَعِ الدُّجَى لَمَحَتْ
 يَقْنُصُنْ مِنْ وَجْتِيهَا لِحْظُ عَاشِقِهَا إن ضَرَجَتْ قلبه بِاللَّحْظِ أَوْ جَرَحَتْ
 مَنْ لِي بِسَلْمِي وَفِي أَجْفَانِ مُقْلَتَا للحرب يِيضُ حَدَادُ قَطُّ مَا صَفَحَتْ
 وَأَسْوَدُ الْخَالِ فِي مَحْمَرِّ وَجْتِيهَا كَمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صببت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و « نزحت » العين بمعنى نفذ دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و « وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و « لمحت » في آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكني السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظبية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتص بالانظر إلى وجنتها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهي مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينها الساحرتين ، ويتصور الخال في خدها الوردى كجثة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذي يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى الله ما أَحْسَنُ شَقِيْقًا حُفًّا بِالسَّوْسَنِ
 خَدُودٌ لَثْمُهَا يُبْرِئِي مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ
 فَمَا تُجَنِّي وَحَارِسُهَا يَقْفُلُ الصَّدْعُ قَدْ زَرَفْنَ (١)

(١) زرفن الصلغ : جعل الشعر المسدل على الخلود كالخلفة .

أَبْثُ هَوَاهُ مِنْ حَرَقِ لَنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنَّ
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن افتتانه بجبال صاحبه واحمرار حدودها المشبهة لورد الشقيق المخفوفة بمحصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم حدودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من حدودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شغرها لوى على حدودها قفلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإِنَّه لَيْثُ هَوَاهُ وَمَا يَذُوقُهُ مِنْ حَرَارَتِهِ اللَّافِحَةِ لِلنَّجْمِ حِينَ جَنَّ اللَّيْلِ وَدَجَّتْ ظِلْمَاتُهُ ، مَعْلَنَا إِلَيْهِ هَذَا الْهَوَى الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ أَكْتَانَهُ . وَيَأْسَى لِنَفْسِهِ وَمَصِيرِهِ ، فَكَمْ أَسْكَنَ مَحْبُوبَتَهُ قَلْبَهُ فَعَبَثَتْ بِهِ بَلْ أَحْرَقَتْهُ وَأَتَتْ عَلَيْهِ . وَمَنْ غَزَلَهُ الرَّاعِي :

أَمَّا وَبِيَاضِ مَبْسُوكِ النَّقِيِّ وَسُمْرَةِ مِسْكَةِ اللَّعْسِ الشَّهِيِّ^(١)
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي وَأَعْطَشَنِي وَصَالِكُ بَعْدِ رِيٍّ
إِلَى كَمْ أَكْتَمْتُ الْبَلْوَى وَدَمْعِي يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْخَفِيِّ^(٢)
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهْيَةِ غَرَامِي فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنْ الْخَلِيِّ^(٣)
تَغَازَلَنِي وَتَزَوَّى حَاجِبِيهَا كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِيِّ^(٤)
وَتَخَرَّقَ الصَّفُوفَ بَرِيْقٍ فِيهَا وَهَلْ يَخْفَى شَدَى الْمَسْكَ الشَّدِيِّ^(٥)
يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجْهِتَيْهَا كَمَنْعَ الشُّوْكِ لِلْوَرْدِ الْجَنِيِّ^(٦)
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَفُهُ بِعَيْنِي تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرْعَى وَيِيٍّ^(٧)

وابن النبية يُقَسَمُ لمحبوبته بمبسمها الفاتن وسمرة شفاهها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد ريٍّ ، ويقول إلى كَمْ أَكْتَمْتُ محنتي في الحب ودمعي يبوح بسرِّي وإلى كَمْ أَشْكُو للاهية عنى ، وصدق المثل القديم : وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنْ الْخَلِيِّ . وَيَعْجَبُ أَنَّهُمَا تَغَازَلَهُ أَوْ تَمُدُّهُ أَسْبَابَ الْغَزْلِ ، يَبْنِيَانِ تَقَطَّبَ حَاجِبِيهَا وَتَزَوَّى مَا بَيْنَهُمَا ، وَيَلْتَمَسُ لَهَا عَذْرًا ، فَكُنَّ حَاجِبِيهَا قَوْسَانِ يَرْسِلَانِ السَّهَامَ ، وَلَا بَدَّ لَهَا كَالْقَوْسِ وَوَتَرَهَا مِنَ الشَّدِّ وَالْجَذْبِ فِي أَثْنَاءِ الرَّمْيِ

(٣) وَيٍّ : وَخِيمٍ .

(١) اللَّعْسُ : سَوَادُ الشَّفَةِ .

(٢) شَبَا الْقَنَا : حَدُّ الرِّمَاحِ .

بالسهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأرجحه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبية من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبته بما يحمها من الرماح تذود عن وجتها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائته أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفتيه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني يوج باللهفة والظمأ واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب الحب الهوان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتنازع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبية في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجري شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبية نزيل دياره حين كان الحاجري لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصل الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتنازع يستضيء فيه بابن النبية أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :
أى دمعٍ من الجفون أسأله إذ أتته مع النسيم رسالته
إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبية :

بَدْرٌ تِمُّ لَه مِنْ الشَّعْرِ هَالَةٌ مِنْ رَأَى مِنْ الحَجْرَيْنِ هَالَةٌ^(١)

فهي من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النبية أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسلة السائفة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدمائة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبية بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصباة

(١) حالة الأولى : دائرة القمر . وهاله الثانية : من هاله

الشيء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

البهاء (١) زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق ولإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حجّها خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكعب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه » (٢) وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهداً بالخصبِ من مئى ومادونه من أبطحٍ وحجُونِ (٣)
منازلُ كانتُ لى بين منازلُ وكان الصبا إلى بها وقربى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وبياب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهى منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خدنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى الممات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جلدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٥ .

(٣) المخصب : موضع رمى الجار بنى . والأبطح : أبطح مكة وهو واديا . والحجون : جبل بها .

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ، ٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير » :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق . وقد طبع ديوانه بأكبردج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلمر مع مقدمة وتعليقات ،

الدين إسماعيل اللمطي يهتته فيها بولايته على أعمالها ، وأعجب به اللمطي فاتخذته كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتر بينها ، ويبدو من استعفافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ . وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيه منشداً فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبَّيْكَ يَا مَنْ لَامَرْدٌ لَأَمْرٍ وَإِذَا دَعَا الْعَيُوقُ لَا يَتَعَوَّقُ (١)
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّنَقُ
سَجَدْتُ لَهُ حَتَّى الْعَيُونُ مَهَابَةٌ أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة ويهناؤها . ويتقل مع في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والعمل بجباله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيشِ وَبِرِّقَةٍ مِنْ الْعَيْثِ هَطَّالُ الشَّايِبِ هَتَانُ (٢)
بِلَادٍ إِذَا مَا جَثَّتْهَا جَثَّتْ جَنَّةٌ لَعَيْنِكَ مِنْهَا كَلِمَا شَتَّ رِضْوَانُ
تَمَثَّلُ لِي الْأَشْوَاقُ أَنَّ تُرَابَهَا وَحَصْبَاءَهَا مِسْكٌ يَفُوحُ وَعَقِيَانُ (٣)
فِي سَاكِنِي مَصِيرُ تُرَاكِمِ عِلْمْتُمْ بَأَنِّي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرَ سُلْوَانُ
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العيوق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٢) حصباءها : حصاها . العقيان : الذنب الخالص .

(٣) الشاييب : جمع شويوب وهو دفعة المطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادي من شرقيه إلى غربيه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادي جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وترابه وحصباه مسكا وذهباً خالصا ، وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبداً ويتعنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تحبف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشأؤه الموجهة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن وينزل نابلس ، غير أن مؤامرت نحاك له ، ويُعتقلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظاً لعهدده ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحاً برجوعه إلى موطنه وتعمم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خبيراً نبيلاً ففجع - كما يقول ابن خلكان - خلقاً كثيراً بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضاً ، فصمَّم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمِل من هناك في محفَّة حتى نزل إبطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلًا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن ، فأعفاه من منصبه وأسندته إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكانما عزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقيل : قبَله فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظاراً لبعض رِفده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِهِ ومَرَّهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : « كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيتُه فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودمائة السجايا . وما مرَّ من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياةً سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من يؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجاليتها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خِذْن صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرح بِمَعْنَى الحياة وطَرَحَ الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أَيُّهَا الْحَامِلُ هَمًّا إِنْ هَذَا لَا يَدُومُ
مِثْلَ مَا تَفَنَّى الْمَسْرَا تُ كَذَا تَفَنَّى الْهَمُومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمدُّ منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنَّى بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعَرِّضُ عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الايوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يَشْرِكُهُ فِيهِ - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجددها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلْسُ أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أى صعوبات ، وعلى نحو ما يجرى النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادي ينطوي على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس

طُبعت على اللين والرقه والدمائة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه . ومن الحق أن البهاء زهيراً كما خلق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عذوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفياً أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكراً - وتدور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتبارحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثه في حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستيق بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعاً ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن ستحدث عنهم في غير هذا الموضع بثوا في أشعارهم وجداً لا يضاف له ، وكان البهاء زهيراً استمد جنوة من هذا الوجد المبرح نشر شررها في غزله . وكثيراً ما نعثر عنده على أبيات تصور تأثره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد الحب بالحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إِيكَ الْمَشْتَكِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِحَالِيهِ

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعظفا ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلعت نار الحب في قواده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

غَيْرِي عَلَى السَّلْوَانِ قَادِرٌ	وَسِوَايَ فِي الْعِشَاقِ غَادِرٌ
أَشْكُو وَأَشْكُرُ فَعَلَهُ	فَاعَجِبْ لِمَا لِي مِنْهُ شَاكِرٌ
لَا تَسْكُرُوا خَفَقَانَ قَدْ	حَيَّ وَالْحَيِّبُ لَدَيَّ حَاضِرٌ
مَا الْقَلْبُ إِلَّا دَارُهُ	ضُرِبَتْ لَهُ فِيهَا الْبِشَائِرُ
يَالَيْلُ طُلُّ يَاشُوقِ دُمٌّ	إِنِّي عَلَى الْحَالِيْنَ صَائِرٌ
لِي فِيكَ أَجْرٌ بِمَجَاهِدِ	إِنْ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَافِرٌ

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المترعان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول:

لها خَفَّرَ يَوْمَ اللقاء خَفِيرُهَا فما بِالْهَا صَنَّتْ بما لا يَصِيرُهَا^(١)
 أعادَتْهَا أن لا يُعادَ مريضُهَا وسيرُهَا أن لا يُفكَّ أسيرُهَا
 وها أنذا كالطَّيفِ فيها صباةٌ لعل إذا نامتْ بلبلو أزورُهَا
 من الغيدِ لم نوقدْ مع الليل نارُهَا ولكنها بين الضلوع تُشيرُهَا
 يقاضى غريمُ الشوقِ مني حُشاشَةٌ مروعةٌ لم يبقَ إلا يسيرُهَا

والصور في القطعة دقيقة فَخَفَّرَ صاحبه أو خجلها وحيأوها يجرسها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عادتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا نحيفا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بريقاها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبا مفرعة. وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعدوية، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله:

تَعِيشُ أَنْتِ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مَتَّ عِشْقًا
 حَاشَاكَ يَانُورَ عَيْنِي تَلَقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقًا
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَى إِلَى مَنِي فِيكَ أَشَقَى
 لَمْ يَبْقَ مَنِي إِلَّا بَقِيَّةً لَيْسَ تَبْقَى
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مَنِي (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرفقة واللفظ مع جلال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يانور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ الْيَوْمَ تَعَارَفْنَا وَنَطْوِي مَا جَرَى مِنَّا
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قَلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَثْبِ فَبِالْحَسَنِ
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ تَرْجَعَ حَعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورقة ودماثة ، ودالما تجرى في غزله هذه الرقة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصَّروا مَدَّةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمْرَكُمْ
 شَرَّفُونِي بِزُورٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محمّلکم من فؤادی لسرکم
لو وصلتكم محببکم ما الذى كان ضرکم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان في البيتين : الأول والثاني من الأدعية المتداولة على السنة المصريين في لغتهم اليومية ، وإذ ليتضرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده .
لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحجران . وهو لا يتحرج من إعلان تذله في الحب .
بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادتى وإن كان فيه ذلّة وخضوعُ
أصلّى وعندى للصّباة رِقّة فكلُّ صلاتى فى هواك خشوعُ

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراويل يقدمها لمن شغفت قلبه حباً ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوته ، يقول :

لى حبيبٌ عبثته ويح من يعبد الوثن

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبداً ، فقد ظل يُتشد تراويل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف في وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى في خزائنه من حوار^(١) له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون في الغزل من أصداف التشبيهاً والاستعارات فإنه قال له إن لنا في الغزل طريقاً آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابان وادى الأجرع » وقال له : أشتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلاً وأنشد : « سُقيت غيثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل ولتَ من طربِ معنى » . وفي ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه في عصره ، وهو ما جعل معاصريه في الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفي دمشق والشام وفي القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». وما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوي الشاعر الموصلي الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونصَّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعاً طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلاوي قصيدة^(١) في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ وَلَكِنْ أَفقٌ قَلبي مَحَلُّهُ غزالٌ وَلَكِنْ سَفَحُ عيني عَقِيقُهُ^(٢)
عَلَى خَدِّهِ جَمْرٌ مِنَ الحِسنِ مُضْرَمٌ يُشِبُّ وَلَكِنْ فِي قَوادِي حَرِيقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير فضل شيوخه وذيوخه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

ابن مطروح^(٣)

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذته رفيقاً وصديقاً ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية فتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عيّن حاكم قوص مجد الدين اللمطي البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليستند عملاً إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لَكَ اللهُ إِنَّ العَفوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَمِثْلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .
 (٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعددة في المدينة ومجد .
 (٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان ٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥ والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المخاضرة ٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديماً في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومَرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَاصِرَ الدِّينِ الحَنِيفِ بِسَيْفِهِ وَمِثْلَ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطَّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهلاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومَرَّ بنا أن البهلاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرَّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيرَه مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصده مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر الحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متنكر له إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلوك جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِي نَصِيحُ

أَجْرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا نَحْسِبُ أَنْ الزَّمْر - يَاطِبِلُ - رِيحُ
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَدَمِهِمْ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَاطِرِكَ الْمَسِيحِ^(١)
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعْتَهُمْ بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنَ الصَّرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحُ
 وَفَقَكَ اللهُ لِأُمَّثَلِهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً لِأَخِذِ نَارٍ أَوْ لِقْصِدِ صَحِيحِ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَيْدُ بَاقِي وَالطَّوْاشِي صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « الله ذرّه ! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف
 والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن
 مصر قريية المنال فإذا من دونها حُرّز قاب الكثرة من جيشه وأسرّ البقية في الأغلال . ويسخر منه
 سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشثومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحزّر
 رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بمحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ،
 ويقول له ساخرا متهمكا : لاتزال دار ابن لقمان التي سُجنت فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغلّ
 باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود يشويه عليه ، مع لطف
 التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبِي نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في
 الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفي
 وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَرُّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى حَبِثْتُهُ فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والروءة والأخلاق الرضية ،
 وكانت بيني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدني أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائح من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عزَّ عليه أن يُغزل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين الهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتها ، وجيئا منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديوانها وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذ غالبا البدويات رمزا لمحباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجد مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبث في وجده وحبه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هى رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى	وذروا السيوف تَقِرُّ فى الأغادِ (١)
وحذارٍ من لحظاتٍ أعينِ عينا	فلكم صَرَغَن بها من الآسادِ (٢)
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادِ	فهنالك ماأنا واثقٌ بفؤادى
ياصاحبى ولى بِجِرعاءِ الحمى	قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى (٣)
سلبته منى يوم بانوا مقلَّة	مكحولةٌ أجفانها بسواد
ويحى من أنا فى هواه مِيَّت	عَيْنٌ على العُشاق بالمرصاد
كيف السبيلُ إلى وصالِ محجَّب	ما بين بيضِ ظبَّا وسُمرِ صِعادِ (٤)
حرسوا مُهفَهفَ قَدُو بِمُثَقَفِ	فتشابه الميَّاس بالميَّادِ (٥)

وواضح أنه رمز لخبه والقيامه فيه برامة في نجد وطلبائها ساحرات الأعين اللائى يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

صعدة : القناة أو الرمح .

(٥) الميَّاس : الشيختر . الميَّاد : التمايل ، والمنطف :

الرمح .

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٢) العين : بقر الوحش .

(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة

(٤) الظبي : جميع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع

آسر، وأحد لا يستطيع أن يصل أوليَمَ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرسَ قدها الرشيح المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد أوامبال . ويقول :

سَفَرْتُ وَجَاءْتُ فِي الْعَلَائِلِ تَشْنَى فَأرْتَكُ حَظًّا الْجَحْتَى وَالْجَحْتَى
وَرَنْتُ فَمَا تُعْنَى التَّمَامُ وَالرُّقَى وَأَيْكَ عَنِ لِحَظَاتِ تِلْكَ الْأَعْيُنِ
بِدَوِيَّةٍ كَمِ دُونِهَا مِنْ ضَارِبٍ بِالسَّيْفِ مَرْهُوبِ السُّطَا لَمْ يُوْمَنْ
لَا يَخْدَعَنَّكَ لِحْظٌ طَرْفٍ فَاتِرٍ أبدأً وَلَا تَأْمَنُ لِعَظْفَةِ لَيْلٍ
أَبْسَنَى يَا هَاجِرِي ثُوبَ الضَّنَا وَأَخَذْتَنِي يَا تَارِكِي مِنْ مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدت بصرها إليه فوقع في حبال أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التمام والرقى ، وإنما لدوية أعرابية تحمىها السيوف المرهفة . وينصح صاحبه أن لا تحذعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسببان له من آلام وأوصاب دون أن يذوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَذُوا جِذْرَكُمْ مِنْ طَرْفِهَا فَهَوَّ سَاهِرٌ وَلَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ دَهْتُهُ الْحَاجِرُ
فَإِنَّ الْعْيُونَ السُّودَ وَهِيَ فَوَاتِرٌ تَقْدُّ السَّيْفَ الْبَيْضَ وَهِيَ بَوَاتِرُ
وَلَا تُخْدَعُوا مِنْ رَقَّةٍ فِي كَلَامِهَا فَإِنَّ الْحَمِيَّا لِلْعَقُولِ تُخَايِرُ
مِنْ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفُ غَارَتْ لِحْسِنَا ضَرَّائِرُهَا وَالسَّيْرَاتُ الضَّرَّائِرُ
إِذَا مَا اشْتَهَى الْجَلْحَالُ أَخْبَارَ قُرْطِهَا فَيَاطِبُ مَا تُمَلَى عَلَيْهِ الضَّفَائِرُ

وهو يحذّر من طرف صاحبته ، فالسهم دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ، وباللعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذّر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قريناتها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحدّثه بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَدَّ تَوَقَّدَ إِذْ تَرَقَّرَ مَاؤُهُ لَهْفِي عَلَى التَّوَقُّدِ الْمَتَرَقِّدِ
حَتَّى الْحَلِيَّ لِحْسِنِهَا مَتَسُوسٌ فَاعْجَبُ لِحَسَنِ الْجَادِ مَنْطِقِي

ياشمسُ قلبي في هوائِك عطاردُ لولا تعرّضه لها لم يُحزقِ
لم انس ما قالتُ وقد لمستُ يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
وأقول ياأختَ الغزالِ ملاحَةٌ فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جاله ونضرته يتلأأ فيه ويترقق ،
مما يملؤه فتنة به وهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنطق حتى الجماد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه
بها ، وها هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة
للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيته وسلمتُ
أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شَبَّهها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال
ولابقي ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزوا القُدودَ وأرهفوا سُمَرَ القَنَا واستبدلوا بدلَ السِوفِ الأعيُنَا
وتقدّموا للعاشقين فكَلَّهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لاخيرَ في جَفَنِ إذا لم يكتجِلَ أرقًا ولا جسمٍ نجافاهُ الضَّنَا
لما انثنى في حَلَّةٍ من سُندسٍ قالتُ غصونُ البانِ ما أبقي لنا
شَبَّهتُه بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلمنا بيْنَا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهنّ وسيوفها عيونهنّ وكل من
حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب
والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون
شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها
بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلمًا بيّنًا فهي أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن
أبياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقَبَلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ
والدمائة والظرف وعدوية الروح وخفة الظل .

برهان^(١) الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُصِّمَتْ إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخاً جليلاً ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبعثه السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكبَّ على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرَّس وحَدَّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله في وصف شعره ونثره تقرير بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بخزائنه : ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرثى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أسمى ضريحك موطنَ الغفرانِ ومحلَّ وفْدِ ملائِكِ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علماءها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلةُ الحُدَّثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراقي والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والمقدّمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماء مطلع النرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣٩٨-٣١٤/٩ و٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، وما زال طلاب علمه وشعره يحكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أو كما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل
يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة
والغرام والوجد الذي لا تنطفى ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبي لحظُ غزالٍ قائلٍ في الفلوات^(١)
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلك النفتاتِ
حسناتُ الحدِّ منه قد أطالتُ حَسراتي
أعشقتُ الشاماتِ منه وهىَ أسبابُ مَماتي
إنَّ للموتِ بأقدا حِ جفوني سكراتِ
قلت قد متُّ غراما قال لي مُتْ بجياني

والأبيات تتطير عن الفم بحفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في
الفلوات ، غزال ينفث في كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخطوده التي ملأت قلب الشيخ
حسرات ، لأنه يتمنى اللذون منها ليتعلمى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه
ليذوب - أو كما يقول - ليموت وجدا والتياغا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ،
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلّة عليه قائلة له : « مت بجياني » ومن
نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك ياقرى غرىمى وذكرِك في دُجى ليلي نديمى
وملئى الحميمُ وصدّ عنى ومالى غير دمعى من حميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمّ يسائلون ولى دموعُ تحدّثهم عن النِّبأ العظيمِ
بدتُ فى خدّها شاماتُ مسكٍ كحظى أو كليلى أو همومى
إذا نيرانُ خدّيتها تبدّت رأيتُ بهنَّ جئاتِ النِّعيمِ
ومن شغفى يَحْضنُ القدّ منها أغارُ على الحُصون من النسيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهي وسط النهار ، وفعله قال

وكأني بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غير مه وذكراها نديمه طوال الليل ، والتورية في البيت الثاني بديعة فقدمه الحميم والصديق في حب صاحبته ، ولم يبق له إلا دمعه الحميم الحار يرافقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبا » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على حدودها ، ويقول إن شامات حدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هوم حبا المشتعل في حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خذاها بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارةً وجنات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النَّاضرة . ويقول :

يا مَنْ هَجَرْتُ عَلَى هَوَاهِمِ عَاذِلِي	أَيْحِلُّ فِي شَرْعِ الْهَوَى أَنْ أَهْجَرَ
طَلَعَتْ بَدْوُورُ النَّيْمِ مِنْ أَرْزَارِكُمْ	فَعَدَا اصْطِبَارُ الصَّبِّ مُنْقَصِمَ الْعَرَا
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءِ الْقَوَامِ كَأَنَّهَا	غُضْنُ يَحْرُكُهُ النَّسِيمُ إِذَا سَرَى
ذُكِرَتْ فَصَغَّرَهَا الْعَدُولُ جِهَالَةً	حَتَّى بَدَتْ لِلنَّاطِرِينَ فَكَبْرًا
وَجَهَلْتُ مَعْنَى الْحَسَنِ حَتَّى أَقْبَلْتُ	فَرَأَيْتَهُ فِيهَا يَلُوحُ مَصُورًا
لَمَّا دَرَيْتُ أَنَّ الْكَلِيمَ مِنَ الْهَوَى	جَعَلْتُ جَوَابِي فِي الْحَبِيبَةِ لَنْ تَرَى (١)
يَأْمَنُ إِذَا مَا مَرَّ حَلَّوْ حَدِيثَهَا	أَغْنَاكَ عَنْ مَرِّ الْعَتِيقِ وَأَسْكَرَا (٢)
أَرْخَصْتُ يَوْمَ الْيَمِينِ سِعْرَ مَدَامَعِي	وَتَرَكْتُ قَلْبِي بِالْغَرَامِ مَسْعَرَا (٣)

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تدينه ألم المعجران وأن تنقذه منه ، فقد نفذ صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسنن ميس الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جاهها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصورة مغرية . ولما علمت مقدار وجد المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة ، بل مضت تُدِلُّ عليه ، وتقول له : لن تراني . ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعي وأسعرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة . وفي البيتين الأخيرين طباق وجناس مندحان في هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

(٣) في مسعر تورية لأنها إما من السعير وهو المعنى المتبادر غير المراد ، وإما من السعير أي الجحيم وهو المعنى المراد .

(١) الكليم : الجريح . لن ترى : لن تراني .

(٢) يريد بالعتيق الخمر المعتقة .

علموا بأنني لا أحولُ فعدُّوا ودرُّوا بأنى عاشقُ فتغصَّبوا (١)
 قتلوا المتيمُّ في الهوى وتظلموا وجنَّوا عليه بصدِّهم وتعبوا
 ومهفهِفٍ لولا حلاوةُ وجههِ ما كان مرُّ عذابه يُستعذبُ
 إن كان يرضى أن أموت صباةً فجميعُ ما يرضاه عندي طيبُ
 يا باخلاً وله أجودُ بمهجتي رفقا على صبِّ عليك يعذبُ
 إن يلتَ فالأغصانُ يُعهدُ مئيلها أو غيتَ فالأقمارُ قد تتغيَّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولا عنها فتادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنى عليه ، ويقول إن جبال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت في سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت طبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فضلا (٢) طريقا أودعه خزائنه ، من مثل قوله :

تنفَّس الصبحُ فجاءت لنا من نحوه الأنفاسُ مسكِيه
 وأطربت في العود قُمريةٌ . وكيف لا تُطربُ عودِيه

وعودِيه لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراء كثير من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

نور الدين ^(١) على العسيلي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيًا تتلمذ لشيخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حدقة الزمان وتور (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَلَفَتْ من أدمعى ومن الوَسْمَى هَتَانُ ^(٢)
 لى فى الديار سقاها المزن صَبِيهُ غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق قَتَانُ ^(٣)
 يارَبَّ الحسَن قد بالغت فى تلقى أما لهجركِ يالَمِيَاءَ هجرانُ ^(٤)
 هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً فكان يشفع منك الحسنَ إِحْسَانُ

وهو لا يميل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبداً فى الديار غزال سحره وخلب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبه لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الذى أهوى على نفسه جَنَى قال على تلك المحاسن بالفَتَكِ
 فأغرق خَدْيِهِ بماءِ جِالِهِ وأوقع فى الظَّلْمَاءِ ناظرَه التُّركى
 وهاجتُهُ يبكى عليه من الضَّنَا وها خَصْرُهُ من نُقْلِ أردافه يُشكى

وهو يجعل المحبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جلاله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداغى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبكى

(٣) المزن : السحاب . صَبِيهُ : مطره .

(٤) الريب : القطيع من الغنم أو البقر الوحشى .
 والاستعارة واضحة .

(١) انظر فى نور الدين العسيلي وترجمته ربحانة الألبا .
 (تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات
 الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

على ضنائه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُؤَابَةٌ كَحِيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ
تَحْمِي ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِيٍّ رَدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كَلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَاهُ
فَوْصَلُهُ قَطَعُ لِدَاءِ الْأَسَى وَهَجْرَهُ قَطَعُ لِقَوْلِ الْوِشَاءِ

فهو يرتضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التطرف والرقه ورهافة الشعور مما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولاب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدها بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومرّ بنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذى شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمرورة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التى تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حربية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (١) :

لله دَرِّي إِذْ أَعْدُوْهُ عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ
وَفِي يَدِي صَارُمٌ أَفْرَى الرَّعُوسَ بِهِ فِي جَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي وَلَا يَدْرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتبية ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ناثرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر في أيام كافور الإخشيدى المتنبى ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبية . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرده له ترجمة عما قليل ، وولتقى بعده بولى الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباتة من مثل قوله (٢) :

ولقد سموتُ على الأنامِ بخاطرِ اللهُ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا
فَإِذَا نَظَمْتُ نَظَمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَاخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدى منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . وتلتقى بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتبيا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصارى (٣) :

مَنَاؤُ الثَّرِيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِن عَاصَتْ عَلَيَّ الْمَطَالِبُ
وَإِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَحِ الدَّهْرُ بِالْمَنِيِّ فَلِي فِي كَفَالَاتِ الرَّمَاحِ مَآرِبُ
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا يبأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُقَلّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعايتها فسجنه وهمّ بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردّ عليها بمجرد سماعها حرّيته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول (١) :

جَلَّتْ لَدَى الرَّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمَمِي وهل يَضُرُّ جَلَاءُ الصَّارِمِ الدَّكْرِ
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً لكان يَشْتَبِهَ الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغَرَّرَنَّ بأطماري وقبيتها فإنما هي أصدافٌ على دُرِّ
ولا تظنَّ خفاءَ النجمِ من صِغَرِ فالذَّنْبُ فى ذلك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمل الرزايا والمصائب التى نزلت به جَلْدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مها اضطرت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطماره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطمار الخلقة فلإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

وغمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حرى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محققا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكان لأبد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا الجهد البطولى الذى توجها به صلاح الدين ، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما تجمّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع (٢) :

سَوايَ يخاف الدهرَ أو يرهَبُ الرَّدَى وغيرى يَهْوَى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهَبُ الدهرَ إن سَطَا ولا أهدُرُ الموتَ الرُّؤمَ إذا عَدَا (٣)

(٣) الرُّؤم : السريع .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طَرْفَهُ
 توقُّدُ عَزْمِي يتركُ الماءَ جَمْرَةً
 وأظْمأُ إنَّ أبدى لى الماءِ مِئْتَةً
 ولو كان إدراكُ الهدى بتدليلِ
 وإنك عَبدى يازمانُ وإننى
 ولو علمتُ زُهرَ النجومِ مكانتى
 لحدثتُ نفسى أن أمدَّ له يَدَا
 وحليَّةُ جِلْمِي تتركُ السيفَ مِرْدَا
 ولو كان لى نَهْرُ المجرَّةِ موردا
 رأيتُ الهدى أن لا أميلَ إلى الهدى
 على الكُرهِ منى أن أرى لك سيِّدا
 لخرتُ جميعا نحوَ وجهى سَجِّدا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماع أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولاً يرهب الدهر ولا يرهب الموت الزوأم ، ولو مد الدهر طرفه إليه لنازله بعزم صادق يُشعل الماء جمرًا ملتها ويردّ السيف كليلاً صالداً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظماً إن أبدى له الماء مِئْتَةً ، بل إنه ليموت ظمأً حتى لو كان نهر المجرّة مورده وحقق له وروده كل ما أمّله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة بسيطرته عليه حتى كأنما ذلّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبداً مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعاضم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حامل لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُربِ عن شعري ودولته أن ابن عبادَ باقٍ وابنَ زيدونا
 إذا رأيت قوافيها وظلّعتها فقد رأيت مقلتك البحرَ والثونا
 كأنّ ألفاظها في سمع حُسنها كواكبُ الرّجم يحرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم أبيات قصيده كسهب الرّجم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح .
وقلما نلتقى في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشائتل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه -
كما مر بنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السويّ على نحو ما يصور
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندی . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود
كان كثيرا ما يهجو مزريا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقدعة
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضجّة للناس من خلف ستره تضحُّ إلى قلبٍ عن الله مُعقلٍ

قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابهِ وحرسه . ولا نشك
في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما بينا .
وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله في الفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين
ظهريائهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبي الجوع وله
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح^(١) :

هاجيك فيما قاله مادحُ فأنت في صَفقتك الراحُ
ياأيها الصَّعُو الذي لم يزل يرقص حتى دَقَّه الجارِحُ^(٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يذق عنقه صقر أو نسر
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالية الزافضة .
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصنى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضوع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم جمعة ،
فأرى ورقة كتب فيها شاعر مصري هذين البيتين (١) :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْر والحماقة
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كَاتِبَ الْبَطَاقَةِ

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس ببنت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار
حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير
من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة
والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ
أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا
غاضبا (٢) :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُ فيهم والمال عندهم ومنهمُ المستشارُ والمَلِكُ

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل
الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا
كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجائى
وزير المستنصر وكان أقطع الدين لخيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل
الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا (٣) :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودعْ الرقاعةَ والتحامقُ
أمن الأمانة والسُّقْيُ قُطِعَتْ يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى
بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول (٤) :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الخريدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِنِ بَدْرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحَنَّ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْفَةُ
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغِمَةً فَهِيَ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَةٌ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم الخلی الملقب يرضى الدولة المار ذكره
يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد في جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهِمْ أَبْدَا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)
بِأَيْدِي تَبْتَدِرُنْ إِلَى الرِّشَاوِي كَأَيْدِي الْخَيْلِ أَبْصَرْتَ الْخَالِي

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم
الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بجمتها أو إبرتها وكما يلسع الصل أو الأفعى بسمه القاتل .
ونلتقى في أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهم على الرشيد بن الزبير وكان شديد
السواد (٣) :

إِنْ قَلَّتْ مِنْ نَارٍ خُلِقَتْ تَ وَفُقَّتْ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا
قَلْنَا صَدَقْتَ فَمَا الَّذِي أَطْفَأَكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْجَا

وهي دعاية قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء مليء
بالسوموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله في مناقق ما يزال يتلون لكل شخص باللون الذي يعجبه ،
يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَائِهِ
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْ أَنَّائِهِ

ونغضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكويه
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يُصْفَعَ بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعِ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .

(٤) الخريدة ١/٢٣٣ .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

(١) الخريدة ٢/٤٧ .

(٢) حمت : جمع حمة وهي إبرة الزنبور والعقرب .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُصَفَعُ بالثعال ولا مغيث له ولا مجير ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله (١) :

رَبٌّ ثَقِيلٌ لِبُغْضِ طَلْعَتِهِ أَخْشَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ أَجْلَى
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفائزى مستغلا اسم أبيه في هجائه (٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا
وَبَيْنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر الماليك يترشون سهام الهجاء ، ويلقنا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرها البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أو كما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم (٣) :

تَكَلَّمْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَعْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَاةٌ لَقَبْضُ مُغْلَاهَا كَالْمُقْطَعِينَا
تَحَيَّلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . ومما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلبا يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا (١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضَّتْهُمُ صِدْقُ الْوَلَا تَطُولَا (٢)
وما رَعَوْا عَهْدَا وَلَا مَوَدَّةَ وَلَا وَلَا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله (٣) :

رَبِّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مَتَوَالِي
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالى مع كلمة برخيص - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظلم نلتقى بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على النمط التالي (٤) :

يَا ضَبْعَةَ الْهَمِيَانِ مِنْ عَائِلِي قَبِيلِ عِيدِ أَعْوَزِ الْفُطْرَةِ (٥)
وَيَأْقِفَا الْمَهْزُومِ مِنْ فَارِسِ أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةِ
وَبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمِ فِي لَيْلَةِ مَظْلَمَةِ قَرَّةِ (٦)
وَيَانَعِيًا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجُوزِ مَاهَا أُسْرَةَ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُصمى تكليل الذم لمهجوه كيلا وتهاز به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة (٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

- (١) ربحانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .
(٢) تطولا : تفضلا .
(٣) النجوم الزاهرة ١٢٩/١٢٩ .
(٤) نفحة الربحانة للمحبي ٦١٢/٤ .
(٥) الفطرة : النقل في لغة المصريين العامية . الحميان : كيس النقود .
(٦) قرّة : باردة .
(٧) تاريخ الجبرتي ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثور من لقاسم وأذل هامة
وكساه ثوب جناية يحزى بها يوم القيامة
ومضى يتهم بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، وردّ عليه
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الشقا لشبابة وله أدامه
بعامة لوخالها الـ قللاً توهمها برامة
موروثية عن جدّه من قبل أن تُبنى القمامة
لو كان يصلح للصلاة لحقّ للقرود الإمامة

والقللاً مقصور القلاء وهو من يقلى اللحم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلى فيه . يشير
بذلك إلى ضخّم رأسه وقذارة عامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت
حوالي سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة في الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر
والهجاء :

تميم ^(١) بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور في نفس السنة التي ولد فيها تميم
حفيدة إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار
وعقيل ، وكان المعز قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفي سنة
٣٤١ . وكان في الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصييفا سيوسا ، دانت له إفريقية من تونس
إلى المحيط ماعدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا في غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموي
صاحب الأندلس ، وسيرّ جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا في غير هذا
الموضع - ودخلها المعز في سنة ٣٦٢ وكان على الهمة يحكم تدبير الأمور حازما منتهى الخزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية).

(١) انظر في تميم وترجمته وأشعاره القيمة ٤٣٦/١ وابن
خلكان ٣٠١/١ والرحلة السرياء (طبعة د. حسين مؤنس)
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب في أدب مصر

واتضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تيمما في مجونه ^(١) .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ^(٢) ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متمسما باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عنى بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شرفذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، ففضى في سيرته ، يحيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيريثهما رثاء فاترا ، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغرته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يرد العزيز إليه حرته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يقدق عليه إغداقاً عظيماً ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيماً يعرف باسم المشوق ، غير ما كان يضي عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة ، وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطلع شبابه ، وقد عاد فصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كناية تميم بأبي عل قاطمة في أنه أنجب فعلا .

(١) سيرة جوذر (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراذقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلا في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قيانه . وفي ديوانه ما يصور كنوس اللهب والمجنون التي كان يعبّ منها عبّا ، ومرّ بنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تميم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحيانا بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ	أنا الشمسُ	أنا البدرُ	الذي يسرى
أنا المرجوُّ	في العُسرِ	أنا المرجوُّ	في السُرِّ
أنا المُسبِلُ	للنُعمي	أنا الكاشفُ	للضُرِّ
أنا الراقئُ	للفتقِ	أنا القاصمُ	للظُهرِ

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبّر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمي والكاشف للضر الراقئ للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذکر ، يريد أنه العارف لبواطن الذکر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني عليّ إن نكن نُنمى إلى	حَسَبِ أَنافَ بنا وَجَدُ أَرَوَعَا (١)
فلقد علمتم أني أغشى الوغى	وَأَنوبُ في الجَلِي قَوْلًا مُسْمِعَا (٢)
ولقد علمتم أني رُصْتُ العلا	يَفَعًا وَحاولتُ المكارمَ مُرْضَعَا (٣)

(١) القول يشير إلى بلاغته في شعره .

(٢) أناف : أشرف وارتفع .

(٣) اليغ : الفتى في إبان شبابه .

(٢) الجَلِي : الأمر العظيم . قَوْلًا : صيغة مبالغة من

فدعوا لى الشرف الذى شيدته إذ هضتموه فانكفاً وتضعضاً (١)
 لى فى المشارق والمغرب جولةً يقدو بها قلبُ الزمانِ مصدعاً
 فادفع بحدِّ السيف كلَّ ظلامه إن لم تجد يوماً سواه مدقفاً
 فيذاك أوصانى الوصى ورهطه وعلى قرص أن أطيع وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والحظ العظيم واضعاً بين يديها شجاعته ونفوذ
 فى الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلا وساسها فى مطلع شبابه وأنه
 حاول المكارم منذ كان فى المهد مرضعاً . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذى يمنونه منه ، وكأنه
 ينذرهم ويهددهم ويتوعددهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك
 وصية جده أبى الأوصياء على بن أبى طالب وأبناؤه من الأئمة وأن فرضاً عليه أن يسمع ويطيع .
 ولا ريب فى أن هذه المعزوفة التى كان يوقمها كثيراً على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها
 سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب
 طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيراً ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر فى قيثارته ، ونقصد ردوده
 العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسى بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاءه موقفان : موقف
 يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز فى فخره بأسرته وينقضها نقضاً بما يصور من مفاخر أسرته
 الفاطمية ، وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردها عليها ، وهو فى الموقف الثانى حر يختار أى
 وزن ينظم فيه وأى قافية ، أما فى الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التى يرد عليها وقافيتها على
 شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق فى نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز
 استهلها بقوله : « أى ربيع لآل هند ودار » عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها فى الوزن
 والروى ، وفيها يقول ، راداً على ابن المعتز والعباسيين جميعاً :

ليس عبّاسُكم كمثل على هل تقاسُ النجومُ بالأقار
 من له الصهرُ والموايساءُ والتضدُ رةً ، والحربُ ترمى بالشرار
 من دعاهُ النبيُّ خِدناً وسماً هُ أختاً فى الخفاء والإظهار

(١) هضتموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على
 وشك أن ينجز .

مَنْ لَه قَالَ أَنْتَ مِنْى كَهَارِو
 ثُمَّ يَوْمَ الْغَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ
 مَنْ لَه قَالَ : لَأَقْفَى كَعْلَى
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَحْتَلِفُ فِيهِ
 وَلِنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْدَى
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادَتُنَا الرُّو
 حُجَجٌ كَلِمًا تَأْمَلُهَا الْعَا
 نَ وَمُوسَى أَكْرَمُ بِهِ مِنْ نِجَارٍ (١)
 خَصَّصَهُ دُونَ سَائِرِ الْحَضَارِ
 لَا وَلَا مُتَّصِلٌ سِوَى ذِي الْفَقَارِ (٢)
 أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ
 حَامِ وَالسَّبْقِ وَالْهَدَى وَالْمَنَارِ
 حُ أَسِينُ الْمُهَيْمِينِ الْجُبَارِ
 لِمُ بَانَتْ لَهُ بَيَانُ النَّهَارِ

وتميم يوازن بين جده على بن أبى طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأمين فى الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبى عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - فى اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدير خم وهو موضع بين مكة والمدينة أتى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه على ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى فى هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيداً لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لاقى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترقاً حصاراً مسلحاً ضربته قريش حول بيته ، حتى لا تنتبه إلى خروجه ، وكانت قد بيئت القضاء عليه (يريدون أن يظفروا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول أتى كساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تميم - جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبر رددونه . ويذكر جهاد على المبرورى غزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبى فيها جميعاً بلاء عظيماً . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية على وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفاً شديداً .

وتيم في الموقف الثاني الذي لا يتقضى فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلحّ على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرًا مضطربًا بشرك كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم علي وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلّ أو عن طريق خدماته الجلّي للدين الخنيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجوه ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجناك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب ^(١) . ولعل ذلك ما جعل تيمًا يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إن قُرَيْشًا	بِعَلَا	هاشم	تفخر	في	عَقْوَةَ	عَرِيْسِهَا	(٢)
إن يك	من	ياقوتها	فعبد	شمسٍ	من	ضَغَايِسِهَا	(٣)
اسمٌ	إلى	الصفوة	أهل	معاليها	وَتَقْدِيْسِهَا		
دَعَّ	عَبْدَ	شمسٍ	فقد	بدا	اللَّهُ	بِتَنَكِيْسِهَا	
قبيلةً	ما	طَهَّرَ	شايعها	من	إِثْمٍ	تَنْجِيْسِهَا	
		اللَّهُ					

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنيه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنيه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آئمة إنما فظيعة ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسيبهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضغائيس : جمع ضغويوس : الضميف اللعيم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

طلائع^(١) بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولاً حسناً ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى ولّوه حاكماً لمنية الحصيبي بالصعيد (النيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربتة حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة وتعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تدبيرها ، حتى إذا توفى الفائز بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلاً لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاقد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدرك عام في خلافة العاقد حتى دبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاقد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيلي ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئ : « كان رجل وقته فضلاً وعقلاً وسياسة وتدبيراً » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئ إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضاً بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجوهريّة في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت العصرية عليه وعلى حياته وأجماده ومدائحه ومدائح
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،
وأودع في مقدمته ثبناً مفصلاً بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١/١٧٣
والغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر
الفهرس) وخطط المقرئ ٣/١٩٢ وبني عمارة اليمنى كتابه

يا أمة سلكت ضلالا بيّنا حتى استوى إقرارها وجُودها
 ملتم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجُودها
 لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تُقام حدودها

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن
 الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد
 العربية أمثال ابن الدهان الموصلي وعمارة البنجي ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه
 يقول العماد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،
 واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعتاء » . وقد
 أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه
 الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه
 واقتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأمين ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ،
 ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وأنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو
 مقتطفات من ديوانه الأصلي ، واتهمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من
 صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما
 كان يرجع إليهما لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانا يصلحان له شعره . وأكثر
 الديوان المنشور في مديح آل البيت وورثاتهم وورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النعم
 الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو
 يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير
 الكثير في الموت ، حتى في يومه البيهيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام
 عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربيعة في دست الوزارة :

انظُرْ إلى ذِي الدارِ كم قد حلَّ ساحتها وزيرُ
 ولكم تبخَّرَ آمنا وسطَ الصفوفِ بها أميرُ
 ذهبوا فلا والله ما بقى الصغيرُ ولا الكبيرُ
 ولشئ ما صاروا إلي من الفناء غدا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبي الغارات ، فقد كان جيشه لا يني آيبا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم في جنوبي فلسطين ودقّ أعناقهم وسفك دماهم في حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله في تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

توالى علينا في الكتاب والكتب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت
وقد أصبحت أوعارها وحزونها
ولما غدت لأماء في جنباتها

بشائر من شرق البلاد ومن غرب
عليها عتاق الخيل كالتفتف السهب^(١)
سهولاً توطاً للفوارس والركب
صبينا عليها وابلاً من دم سكب^(٢)

وهو فرح مبهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دماهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشيزرى وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يجبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضيق الخناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم في سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة في ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا في الله تمضى العزائم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
خيول إذا ما فارقت مصر تبغى
يسير بها ضرغام في كل مازق
فقولوا لنور الدين لأقل حده
تجهز إلى أرض العدو ولا تهين

وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم^(٣)
ويوطأ حياها والأنوف رواغم^(٤)
عدا فلها النصر المبين ملازم
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم^(٥)
ولا حكمت فيه الليالى الغواشم^(٦)
وتظهر فتورا أن مضت منك حارم

(٤) عقر: وسط .

(٥) الضراغم: جمع ضرغام وهو الأسد .

(٦) الغواشم: الشديدة الظلم .

(١) عتاق الخيل: كرامها . التفتف: الغلاة . السهب: المستوى .

(٢) وابلا: مطرا شديدا . السكب: الهاطل السائل .

(٣) الصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحرهم حتى يضيق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أنطراطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفد رنج ما لينا له التأميل
فحوى من عكا وأنطراطوس عده لم يحط بها التحصيل
أليغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المزجوا والمأمول
قل له كم تهاطل الدين في الكف بار فاحذر أن يغضب المطول
سرى إلى القدس واحتسب ذاك في الد ه فبالسير منك يشفى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماسياته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها لزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصّرت أيام الأفضل بن بدر الجمالى ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تهض بواجبها ، فجهّز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما يهيب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن يدا آتمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وراثه عمارة وغيره من الشعراء مرثى حارة .

ابن (١) الذُرَيُّ

هو الوجه على بن يحيى الذُرَيُّ أصله أو أصل آباه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجحاته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن. ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروري شاعرا مجيدا توه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سُكَّانُ الحِمَى بانوا ففَيْضُ شَأْنِي له في إثرهم شانُ
مَنْ لى بأقارِ أنسٍ في دُجَى طُرِّ أَفلاكُها العيسُ والأبراجُ أظعانُ (٢)
مِنْ كلِّ قانيةِ الحَدِيدِ ناهدةٍ لو كان للضمِّ أو للثَمِّ إمكانُ

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقمارا مضيئة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .
(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي تصفقه على جبهتها . العيس : الإبل .

(١) انظر في ابن الذروري وترجمته وأشعاره الخريدة ١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والفوات ١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروضتين ٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والخزانة ص ١٢٣ وابن خلكان

هفته الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر
اصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لا تَطُنُّنْ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عِيًّا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ
وَكِذَاكَ الْقِسِيُّ مُحَدَّوْدِيَاتٌ وَهِيَ أَنْكَى مِنَ الظُّبَا وَالْعَوَالِي (١)
وَإِذَا مَا عَلَا السَّنَامُ فِيهِ لَقُرُومِ الْجِجَالِ أَيْ جِجَالِ (٢)
وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَسِيرِ الْكَأ سِرِّ يُلْفَى وَمِخْلَبِ الرَّبَابِ (٣)
قَدْ تَحَلَّيْتَ بِإِنْخَاءٍ فَأَتِ الْ رَّاكِعِ الْمُسْتَمِرِّ فِي كُلِّ حَالِ
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ وَرْكِ فِي الظَّهْرِ سِرِّ فَأَمَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ
كَوْنُ اللَّهِ حَدْبَةَ فَيْكَ إِنْ شِئْتَ سَتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنَ الْإِفْضَالِ
فَأَتَتْ رَبْوَةً عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةً بِبِحْرِ نَوَالِ
مَارَاتُهَا النِّسَاءَ إِلَّا تَمَّتْ لَوْ غَدَّتْ جِلِيَّةً لِكُلِّ الرَّجَالِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجْرِ بُدًّا فَعَسَى أَنْ تَزُرُنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حُصَيْنَة على أنها ميسم جبال وصفة
صفات الحسن في الهلال ، وبأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة
سيوف والرماح ، وهي مصدر جبال كالسنام للجبال ، وما كان الانخاء عيبا في منقار النسور
قلب الأسد الهصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فينبى عنه تقواه وصلاته ، ويقول
حدبته وزر كبير مجسّد تعجل حمله في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلق
د حلمه أو موجة تعلق مياحه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها
ية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتنادى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه
جر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخز فقيها متأدبا ونخز الإير فيقول فيه :

هو في الفقه ماهرٌ لا يُبَارَى وأديبٌ في جُملة الشعراء
لا إلى هؤلاء - إن طلبوه - وجوده ولا إلى هؤلاء

(١) الظبا : جمع ظبه وهي حد السيف . والعوالى :
مباح .

(٢) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرباب :
الأسد .

(٣) قروم الجمال : عظامها

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : (مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حاما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمامٍ نعمتٌ بهِ والماءُ ما بيننا من حوضِهِ جارٍ
كانه فوق شفافِ الرخامِ ضحى ماءً يسيل على أبوابِ قصارِ

والقصار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبّه الماء بالماء . وانتهر الصديق ابن الذرؤى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يحرقه من قرطِ إذكاءِ
أقام يُجهد أياما قريحته وشبه الماء بعد الجهد بالماء

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرؤى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرؤى فعمد إلى هجائه بقوله :

ونيلوفرٍ أبدى لنا باطنًا له مع الظاهر المخضّر حُمْرَةً عندمِ (١)
فشبهته لما قصدتُ هجاءه بكاساتِ حجّامٍ بها لَوْنُهُ الدّم (٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يفتح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذي طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(٢) الحجّام : محترف أخذ الدم بالحجم .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصبغة .

حمد^(١) بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمَسَاحِي نسبة إلى شَرْمَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمالي الدلتا ، ولد في أوائل زمن المماليك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكْبَبَ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيها شهاب الدين الحَوَيْبِي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتي قال الناس : ما هذا؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطنته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحّل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يُضَع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه وهجو المظفر بيبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وناصرُ الحق وافي وهو مُتَّصِرُ
أثوابٍ عاريةٍ في طولها قِصْرُ
لم يحمدا أمرهم فيها ولا شكروا^(٢)
لا الثَّيْلُ وافي ولا وافاهم مطرُ
وابن المرحّل قُلْ لي كيف يتصر؟

ولّي المظفّر لما فاته الظفّر
فقلّ ليبيبرس إن الدهر ألبسه
لما تولّى تولّى الخَيْرُ عن أمير
وكيف تمشى به الأحوال في زمن
ومن يقوم ابن عدلان بنصرتيه

(٢) تولي الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولي الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الفوات ٨٦/١ والدرر الكامة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجدبت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامها ضده إلى بيرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومراً به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ماسرني عزلُ ابن عدلانِ

فقال له : جزيت خيراً . فأكمل البيت قائلاً :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبتزّه ، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيهاً ورعاً مثل أبيه ، وتمضى القصيدة على هذا النمط .

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ ، وأوقافها ما بين عافٍ ودارسٍ^(١)
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْعُبُ بالأوقافِ أهلُ الطَّيَالِسِ^(٢)

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعضاً مما براء ، وكلها كذب وبهتان واقتراء ، وكاد القاضي ينزل به عقاباً صارماً لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه . وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً ، وساءت حالته ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالي سنة ٧٢٠ وكانما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه .

حسن^(٣) البدرى الحجازى الأزهرى

يقول الجبرتي في ترجمته : « كان عالماً فصيحاً مفوهاً متكلماً منتقداً على أهل عصره وأبناء مصره » ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود وسنن النسائي وجامع الترمذى . وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(١) عاف ودارس : محو زائل . (٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

الجبرتي ٧٥/١ وما بعدها .

(٢) الطيالس : جمع طيلسان وهو كساء كان خاصاً
بعلماء الدين تمييزاً لهم .

مبكرة وعنى بنظم كثير من اللتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والندرة السنية في الأشكال للنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرتي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلماً تجرد في نظمه حشواً أو تكلمة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة المصاحح والباغم ضمنها أمثالا ونوادير وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع اليراس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قويم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاءً وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلك الناس حتى يدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعاقل من اجتنابهم وقر منهم فرار السليم من الأجر لا من الأبعد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أخى قَطِئًا كُنُّ واحذر الناسَ جملةً ولا تَكُ مغرورَ الظنونِ الكواذِبِ
ولا سِلمًا نوعُ الأقاربِ إنهم عقابُك في الدنيا وعُقْرُ المقاربِ (١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثريا ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم خسيساً أنحس من الكلاب . وهو على هذا النحو سبب الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

أحذَرُ أُولَى التَّشِيحِ والسُّبْحَةِ	والصُّوفِ والعُكَّازِ والسَّمَلَةِ (٢)
قد صار إبليس لهم تابعاً	يقول يا لَعُنُونَ والنَّجْدَةَ
مما حَوَيْتُمْ عَلَّمُونِي فما	لِي عنكم في المكر من غَنِيَّةِ
لكم قيادى وانقيادى وما	مثلكم في النادِ والنَّدْوَةِ (٣)
وأنتمُ تاجي على هامتي	ماهِمْتُ إلا كنتمُ إهِمَّتِي (٤)

(٣) الناد : النادي حلفت الباء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى أين يتوجه .

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) السملة : شال كالتليسان يتلفع به على المنكين

وهو طبعا يقصد نفرا من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومستولياته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطابا وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزارا ، يقول :

اليتنا لم نعيشْ إلى أن رأينا كلَّ ذى جِنَّةٍ لدى الناس . قُطِّبَا
 علَمَّا هم به يلوذون بل قد تَخِذوه من دون ذى العرشِ ربَّا
 إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يُفْرِجُ كَرْبَا
 وإذا مات يجعلوه مزارا وله يُهْرَعُونَ عُجْمَا وَعَرَبَا

وكاننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالمجدوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم الندور أمواتا . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك وراءها في مصر أثرا . على أننا نجد به وجه ذمه وهجاءه - ظلما وعدوانا - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أربابا .

٣

شراء الطبيعة ومجالس الهوى

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى نافثا لعبابه من حوض إلى حوض ، بانثا الحياة والجمال في كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرِّحون الطرف فيها والخيال ، فتتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتعمقهم الشعور بما خصَّ الله ديارهم من هذا النعيم الذى يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ويحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاية لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاية والقضاة

احتفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرمي القاسم بن يحيى شاعر خاراويه يخلص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله (١)

وَمَطَايَا لَا يَغْتَدِينُ وَلَا يَسُ سَأْمَنَ كَدُّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوْحِ (٢)
أَصْلُهَا الْبِرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْ بَحْرِ سَكْنَى إِقَامَةٍ لِأَبْرَاحِ
وَإِذَا أُوقِرَتْ فذَاتُ وَقَارٍ وَإِذَا أُخْلِيَتْ فذَاتُ مِرَاحِ (٣)
جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيَاحِ وَطُورًا كَاسِرَاتٌ بِالْجَرَى جِدُّ الرِّيَاحِ
سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِينُ سُرَى اللَّيْلِ لَ وَلَا يَرْتَقِبُنْ ضَوْءَ الصَّبَاحِ
لَا يَخْفَنُ الْغَيَارَ يُقَدِّفَنُ فِيهَا وَيَخْفَنُ الْمُرُورَ بِالضُّحْضَاحِ (٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي ، وهي من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقر على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجد في سيرها دون اعتزام جاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للسطح . ومع ضوولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثر من الصياح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابجة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول (٥) :

يَوْمٌ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصْرٌ
وَالسُّفْنُ تَجْرِي كَالخَيْولِ بِنَا صُعْدًا وَجَيْشٌ الْمَاءِ مُتَحَدِرٌ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عُنْكَ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرٌّ (٦)

(٤) الغار : جمع غمر وهو الماء الكثير العميق الضحضاح : الماء القليل لاعمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) المعن : جمع عكنة وهي ماشئ من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا عن المرمي لطلال ناجي بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع في العشى .

(٣) أوقرت : حملت حملا ثقيلًا . المراح : المرح والنشاط .

والصورة الأخيرة للتبل بديعة ، فكان أواجه عُنْكَنَ أو تَثِيَّاتٍ أمامية لأجساد عارية وكأنما قواراته أو داراته في فيضانه السُّرر أو النقر الصغيرة أو الثُّكَّت في بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولهم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناعورة^(١) :

تئنّ	وليسنّ	بمحزونة	أنينَ	الحبّ	الكثيبِ	الحزينِ
فتنطقُ	بالصوتِ	لا من فَمٍ	وتقذف	بالدمع	لا من جُفُونِ	
كانَ لها	ميتًا	في الثرى	فأدمعُها	هُمَّعُ	كلُّ حينٍ ^(٢)	
إذا زمرتُ	أطربتُ	نفسها	فغنَّت	بمخيلفاتِ	اللحونِ	
غناءً	يرقصُ	كسيزاتها	ويُظهِرُ	فيهن	وثبَّ	المجونِ
فتهوى	فوارغَ	في بثرها	وتصعدُ	منها	ملاء	العيونِ

والناعورة تن أنين الحب اليأس الحزين وتشكو لا بضم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبسره أو بلحه^(٣) :

التَّخْلُ كالهِيفِ الحسانِ تَزَيَّنْتُ فَلَيْسَنَ مِنْ أثمارهنَّ قلائدا

وكانها في خياله فانتات تتزين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلوعها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رعوسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحت البلح الأحمر فزبرجد يشر عقيقا^(٤) وكانما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر ببركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختا لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول^(٥) :

(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٢) مع : سوائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً وأعجب لما بعدها من حُمرة الشفقِ
 غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الفرقِ
 ولللهلال فهل وافي ليُنقِذها في إثرها زورقٌ قد صيغ من ورقِ (١)

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقاً من فضة جاء لإنقاذها من الفرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد (٢) :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعداتٍ بنا ومنحدراتٍ
 ولياليُّ بالجزيرةِ والجزيرةُ فيها اشتيتُ من لذاتي
 بين روضِ حكي ظهورَ الطواويجِ وجو حكي بطونَ البزاةِ (٣)
 حيث مَجرى الخليجِ كالحيةِ الرُّقْ طاء بين الرياضِ والجناتِ
 هاتِ زدنِي من الحديثِ عن النبيِّ لِي ودعني من دجلةِ والفراتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتني صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهيجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجرى في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مراراً بهذا الحنين في أشعاره . وتُظَلُّ مصرَ أيامَ المالِكِ ويُظَلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ وُصِفَ لشجرة سُرُو باسقة قصد موضعها مع بعض رفاقه ، ووَصَفَ معها القارب المطلق بالقار الذي ركبهه ، يقول (٤)

مالت على النَّهرِ إذ جاشَ الحَرِيرُ به كأنها أذنٌ مالت لإصغاء

طولة الساق والذنب .

(٤) خزنة الأدب للحموي ص ٤٢٤ .

(١) ورق : فضة .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٣) البزاة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

كَأَنَّ صَمَغَهَا الْحَمْرَا بِقَشْرَتِهَا الْـ
 لَدِّكَنَاءِ قُرْصٌ عَلَى أَعْكَانِ سَمْرَاءِ
 نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جِرْدَاءِ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءِ
 سَوْدَاءِ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعْنَاءِ

والتصوير: في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصغى إلى
 حريره ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص
 ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال
 الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على
 خد ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شهدا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ،
 وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمير وكئوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن
 يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرا أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ
 على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير
 المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمير ،
 إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليداً لأبي نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر
 أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقره الخمر ومثله ابنه خارويه ، ويقال
 إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ^(١) . فحكما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا
 يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشاشنى في كتابه الديارات ،
 وهى دير القَصِير على قبة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خارويه كثيرا ما يزوره ،
 ودير مَرْحَنًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان .
 ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن
 محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :^(٢)

أَتَرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةٌ وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَثُورٌ
 وَالْعُضُنُ يَهْتَرُ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرِبٍ . وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌّ وَمَنْشُورٌ

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الغالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيهما خاصة يتهتك في شربها ويجترئ على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه (١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلِّ بلا وضوءٍ وطُهرٍ
سُجَّدٌ للكثوس من دون تَسْيِيحِ حِ سَوَى نَعْمَةٍ لَعُودٍ وَزَمْرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون الجون مستهتره أسوأ ما يكون الاستهتار .
ونلتقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أوبينها وبين بعض صواحيبه ، ومن قوله فيها وفي الورد (٢) :

ووردٍ أعارته الغواني خُدودَهَا وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَقْتَوَةٍ
كَأَنَّ النَّدى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقٍ أَرِيقتُ غَدَاةَ اللَّيْلِ فِي خَدِّ مَعشوقه
أَدْرَنَّا كَثُوسَ الرَّاحِ فِي جَنَابَتِهَ عَلَى حُسْنِ مَرَاهِ وَرِقَّةِ تَوْرِيقِهَ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغواني وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشق تانثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله (٣) :

ناولتها مثل خَدِّيها مُشْعِشَةً صِرْفًا كَانَ سَنَاهَا ضَوْؤُ مِقْبَاسٍ (٤)
فَقَبَّلَتْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وكيف تسقى خدودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ
إِذَا تَنَاوَلْتُ خَدِّي كُنْتُ نَائِلَةً نفسى وهذا لعمرى غيرِ مَنقَاسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووجهها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدَّم لها خدودها لشرابها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

(٤) المقياس : شعلة النار .

(١) المغرب (قسم القسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٩٨ .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه القكرة ابن هاتئ
الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريه له (١) :

ومهفهف أبدى الشبابُ بجنده صدغاً فرقوق ورده في آسه (٢)
تلهبُ الصهباءُ في وجاته فسير من عينيه في جلسه
حتى إذا ملأ الزجاجه خده نوراً وفاح الخمر من أنفاسه
خال الزجاجه أقممت بمدامة فدنا ليشرّب نوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بجنده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به
الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خده فتلهب السحر في عينه فيسير منها إلى جلوسه ، حتى إذا
ملأ خده الكأس نورا ظنها ملكت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسبها .
ولابن سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله (٣) :

أين كئوسى وأين أكواي فهى وحق الجون أولى بى
يبدو عليها الحباب إن مزجت مثل عيون بغير أهداب
تأق وأنى السرور يتبعها كأنه واقف على الباب
أسجد شكراً لها إذا طلعت كأن كأسى لدى مِحْرَابِى

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومرّبنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلما كان
يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهياة له ، لذلك
لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج
والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائع شائق ، ومن طريف خمرياته قوله (٤) :

باكر صبوحك أهنأ العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره (٥)
والليل تجرى الدرارى فى مجرته كالرؤض تطفو على نهر أزهرة (٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدرارى : الكواكب الثلاثة . الحجر : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الخريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رقوق : مزج .

(٣) اللديوان ص ٣٤

(٤) اللديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذُوبٍ يَأْتُونَ لَهَا حَبِيبًا
 حَمْرَاءَ فِي وَجْهَةِ السَّاقِ لَهَا شَبَةٌ
 تَنْوِبُ عَنْ نَقْرِ مَنْ تَهْوَى جِوَاهِرَهُ
 فَهَلْ جَنَاهَا مَعَ الْعَنْقُودِ عَاصِرُهُ
 فَايْضُ خَدَّاهُ وَأَسْوَدَتْ غَدَائِرُهُ (١)
 وَزَوَّرَتْ سَحْرَ عَيْنَيْهَا جَادِرُهُ (٢)
 فَلَوْ رَأَتْ مُقَلَّتَا هَارُوتَ آيَتَهُ الـ
 سَكْبَرَى لِأَمْنٍ بَعْدَ الْكُفْرِ سَاحِرُهُ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البيجة ، وكأنما قبست بانه الوادي رشاقها ، وزوَّرت جاذره سحر عينيها الخلابتين ، ولورآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاكة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا الخط (٣) .

لِيَهْبُوا فِي مَلَامَى آيَةِ ذَهَبُوا فِي الْخَمْرِ لَا فِضَّةً تَبْقَى وَلَا ذَهَبًا
 لَا تَأْسَفَنَّ عَلَى مَا لَمْ تَمْرُقْهُ أَيْدِي سِقَاةِ الطَّلَا وَالْحُرْدُ الْعَرَبُ (٤)
 فَمَا كَسَوْا رَاحَتِي مِنْ رَاجِحِهَا حَلَالًا إِلَّا وَعَرَّوْا قَوْلِي الْمَهْمُ وَأَسْتَلِيُوا

وقد مضى يجيب فيها ويغري بها على عادة المخان ، مما جعل بعض الناس يتهمة بمحاقرتها ، وقبِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ يرهان الدين القيرواني الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكانه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(٤) الطلا : الخمر . الحرد : جمع خريدة وهي البكر

الحية .

(١) التمسق : التلام . الضائر : الضفائر

(٢) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية

للحروقة بحال صينيا .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول (١) :

كم ليلتِ نادمتُ بدرَ سماها	والشمسُ تُشرقُ في أكفِّ سقَاتِها
والبدرُ يُستترُ بالغيومِ وَيَنجلى	كتنفُسِ الحساءِ في مرَاتِها
خالفتُ في الصَّهْبَاءِ كلَّ مقلِّدٍ	وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتِها
أحركُ الأوتارَ إن نفوسنا	سكناؤها وَقَفُّ على حركاتِها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي	قامتُ إلى وصلِي برغمِ وُشَاتِها
ياخجَلَةَ الأعْصانِ من خَطَرَاتِها	وفضيحةَ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقيراطى إنما يستخدم مهارته الفنية التى صورناها فى غير هذا الموضع ، ليدل على براعته فى محاكاة الجان لزمانه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به فى مثل هذه الأبيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة فى اللبالب القمرية وبين الصهباء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهى طويلة ، وقد توه بها الأسلاف طويلا لروعتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر فى عصر الماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطْم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال فى بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات فى أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفى مقدمتها الخمر والحشيشة (٢) :

احذرْ نديمى أن تذوق المُسكرَا	أو أن تحاولَ قَطُّ أمراً مُنكرَا
ذى دولةٍ المنصورِ لاجينَ الذى	قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكلُ أخضرًا فى عصره	ياذا الفقيرُ يصيرُ جِسْمُك أحمرَا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذى سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة (٣) مقطوعات من مثل قوله :

(١) المنهل الصافي ٧٧/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر فى هذه المقطوعات كتاب دراسات فى الشعر فى

قم عطفي خضراء كافوريةً قامت مقام سُلَافَةِ الصَّهْبَاءِ
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تبةٌ على الأُمراءِ

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يُزْرَعُ منها كثيرٌ ببستان كافور في القاهرة ، ويلقانا كثيرون
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكئوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، وبما نقرأ لهم قول أبي
المواهب (١) البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوةٌ تَنْضَحُ مِسْكَاً ولا بَدَعَ فِي الفُنْجَانِ شَكْلُ الغَزَالِ (٢)
تديرها هيفاء ممشوقةٌ خُودٌ تَنْتُ فِي بُرُودِ الدَّلَالِ (٣)
بِغُرَّةٍ أَوْطَرَّةٍ وَزَعَتْ أَفْكَارَنَا بَيْنَ الهدى والضَّلَالِ
تقول للشمس وقد أقبلتْ نلغى ما أنتِ إلا خيالٌ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المالك والعثمانيين أنها
كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوتها رمزاً
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد
مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث .

ابن (٤) وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقهاء والنحو
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا في الحكم بالأهواز في
إيران لعبدان الجواليقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

ورثمة اليتيمة ٢٩/١ وحلقة الكيت في مواضع مختلفة
والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢١٦/٢ وابن
خلكان ١٠٤/٢ .

(١) ربحانة الألبا ٢٢٦/٢

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الشابة الحسنة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره اليتيمة ٣٥٦/١

بتأسيس ، وهي مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية ، وتمتد في بحيرة المنزلة ، واشتهر أهلها (١) بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة ، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تحتفظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون ، وأكثر أغذية أهلها السمك ، وهم مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكمة ، وهم يجنون النظافة والدمائة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى . ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض . وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تأسس . ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته ، وقد نشأ فيها الشاعر وثقف . ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها ، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار ، ولا ندري متى كان ذلك تماما ، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبي سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حنابلة وزير كاهن ، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبي ، حيثئذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبي سماه المنصف إرضاء للوزير ، ويقول ابن رشيق في العمدية : « سماه كتاب المنصف ، مثل ما سُمي اللديغ سليما ، وما أبعد عن الإنصاف » . ولم يكن المتنبي من ذوق ابن وكيع ، ويون بعيد بين ذوقيهما ، فالمتنبي شاعر جاد منتهى الجد ، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا الجون ، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى الجون ، فاندفع يريد أن يسقط المتنبي من عليائه وأنى له ذلك ؟ ويبدو أنه كان ثريا ، فأعانه ثراؤه على انغماسه في الجون ، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن حنابلة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم للعز والعزيز والحاكم ، فحسبه دائما كأس وطاس ، حتى ليؤثرهما على تولي منصب الخلافة الرفيع يقول :

وإن أتوك فقالوا كُنْ خليفتنا فقل لهم إنني عن ذلك مشغول
وأرضَ الخمول فلا يحظى بثلثته إلا امرؤ خامل في الناس مجهول
واسفك دم القهوة الصهباء تُحى به روحى فإن دم الصهباء مطلول (٢)

فهو يؤثر حياة الخمول والجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة ، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر فيهم نقول المقرئ في كتابه المخطوط (٢) مطلول : مهذر لأيتلب ثاره .

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السييء عنده جانب الغلغان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى بتوعده تظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه بحان بغداد تظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تنيس كما يقول المقرئزي وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلغان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلده ناعما بثرائه فيها وبمشاهدتها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدؤها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشازب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحلجة مدمنى الخمر فيه إلى اللدء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويحد فيه هنامه . ونقتطف الآيات التالية من خميرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع ووصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدَى لَنَا فَصْلُ الرَّبِيعِ مَنْظَرًا	بِمِثْلِهِ تُفْتَنُّ أَلْبَابُ الْبَشَرِ
فَالْأَرْضُ فِي زَيْ عُرُوسٍ فَوْقَهَا	مِنْ أَدْمَعِ الْقَطْرِ نِتَارٌ مِنْ دُرِّ (١)
لَمَّا تَرَى الْوَرْدَ كَحَدَيْ كَاعِبٍ	رَاوِدَهَا ، فَاْمْتَعَتْ مِنْهُ بَشَرٌ
كَأَنَّمَا الْخَمْرُ عَلَيْهِ نَفَّضَتْ	صِبَاغَهَا أَوْ هِيَ مِنْهُ تُعْتَصِرُ (٢)
أَنْجَلَهُ التَّرْجِسُ إِذْ جَادَلَهُ	فَاْحَمَّرَ مِنْ قَرَطِ حَيَاءٍ وَخَفَّرَ
وَانظَرَ إِلَى الْأَطْيَارِ فِي أَرْجَائِهِ	إِذَا دَعَا التَّاكُلُ فِيهَا وَصَفَّرَ (٣)
كَأَنَّمَا - تَصَفَّرُ فِي رِيَاضِهَا -	سِرْبٌ قِيَانٍ فَوْقَ بُسْطٍ مِنْ حَيْرٍ (٤)

(١) التَّرْجِسُ : من تفتت ابتلا .

(٢) حَيْرٌ : جمع حيرة ، وهي القطعة من نسج الحرير .

(٣) التَّرْجِسُ : ما يثر على العروس ليل الزفاف من اللباس

الفضية

(٤) صِبَاغُهَا : لونها .

وَالنَّسْكُ فِي عَصْرِ الصُّبَا كَأَنَّهُ مِنْ قَبْحه نَخْلَعُ عِذَارٍ فِي الكَبْرِ (١)
فَأَشْرِبُ عُقَارًا لَوْ أَصَابَتْ حَجْرًا لَطَارَ مِنْ خَفْتِهِ ذَاكَ الحَجْرُ
كَأَنَّمَا الأَوْطَارُ فِيهَا جُمِعَتْ فليس في العيش لجأفيها وَطَرٌ (٢)

وإنما أظننا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير
الصب المقتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت
تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانشئت جياء
وتضرجت وجنتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل النرجس جاد له فاحمراً لقوة حجته خجلا . وفي
أرجاء هذا الروض البديع يعني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من
سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران
المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه .
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لومست حجرا لمسئ السرور ، وأنها تجمع الأوطار
والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مرعوب ولا مزدجر على
شاكلة قوله :

جَانِبْتُ بَعْدَكَ عَفْنِي وَوَقَارِي وَخَلَعْتُ فِي طَرِيقِ المَجُونِ عِذَارِي
خَوْفُنِي بِالنَّارِ جُهْدَكَ دَائِبًا وَلَجَجْتَ فِي الإِرْهَابِ وَالإِنْدَارِ
خَوْقِي كَخَوْفِكَ غَيْرَ أَنِّي وَاتَّقِ بِجَمِيلِ عَفْوِ الوَاحِدِ القَهَّارِ
أَنْظُرُ إِلَى زَهْرِ الرِّيبِ وَمَا جَلْتُ فِيهِ عَلَيْكَ طَرَائِفُ الأَنْوَارِ
تَاحَتْ لَنَا الأَطْيَارُ فِيهِ فَأَرَهَجَتْ عُرْسَ السَّرُورِ وَمَاتَمَ الأَطْيَارُ (٣)
فَأَشْرِبُ مَعْتَقَةً كَأَنَّ نَسِيمَهَا مَسْكُ تَضْوَعِهِ يَدُ العَطَّارِ (٤)
مَعَ مُسْمِعِ حَلَفَتْ لَهُ أَوْتَارُهُ أَنْ لا تَنْسَافِرَ رِنَّةَ المِزْمَارِ
فَطَنَ بِمَحْرُوكِ كُلِّ عَضْوِ سَاكِنِ تَحْرِيكُهُ لِسَوَاكِنِ الأَوْتَارِ

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخفيفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أُرجمت : أثارت .

(٤) تَضْوَعُه : تذكى رائحته وتشرها .

(١) خلع العذار : كناية عن التهنك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة :

عضو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النعمة كثيرا في خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الراححة وسط مباهج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

الشريف (١) العقيلي

هو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفي قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط القرظي ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

قُمْ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ وَلَا تُضَحِّ ضَحْيَ إِلَّا بِصَهْبَاءِ (٢)
أَدْرِكُ حَجِيجَ التَّدَامِي قَبْلَ نَفْرِهِمْ إِلَى مِئِي قَصْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ

(١) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع القوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع الخليلي) . بتحقيق د. زكي المحاسني .
(٢) النحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحية . تضحي : تذبح الأضحية . الصهباء : الخمر .

(١) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع القوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع الخليلي) . بتحقيق د. زكي المحاسني .
(٢) النحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحية . تضحي : تذبح الأضحية . الصهباء : الخمر .

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنفحات حُداة الملاهي وتساقي ، حتى أتاها بعض شمس
(بجوار القاهرة) في كنيكة من الفساق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك
العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنين (١) » . وكان ذلك كان في أول عام من أعوام الجحاعة
المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ هـ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل .
والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب
على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة (للعهد الأصيلي) على
تزوجته فدل على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش
بمطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرا في القرن الخامس .

وهو من أهل القسطنطينية ، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد : كان له بها متزهات ،
وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فيها جميعا من سكانها وأصحاب البياتين والقصور بها ، غير أن
تيمما شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشغل
بجلمة سلطان ولا مدح أحد » . ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء
الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة . وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه
استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي . . ينظم أشعاره لنفسه
ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجا بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشعر كأنما يتفقد
أمامها انتفاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياها ورياضها وأشجارها وأزهارها
وبركها ، حتى لتحول أمامه مبعدا ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشفاها ، وكان
حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدعو دائما إلى احشاء هذه
الكتوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من قتها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دقانها ، مع
القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكرة تجمع
فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعيا إلى المتاع بجبال الطبيعة وشرب
الخمر العتيقة :

الْقَيْمُ مَمْلُودُ السَّرَادِقِ وَالزَّهْرُ مَفْرُوشُ التَّارِقِ (٢)
وَالْقَاشُ قَدْ نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ الْمَجَالِسُ وَالرَّاهِقُ

(٢) الطارق : الواسع .

(١) خطط للمقريزي ٥٨٢/٢ . والسنين : الجلب .

أشجاره وثماره مثل التراب والمخائق^(١)
 قد غنت الأطيّار في طرقاته كلّ الطرائق
 فاعتق فؤادك فيه من ريق الهوم بشرب عاتق^(٢)
 فالأقحوان غصونه بيض النواصي والمفارق
 ومراود الأمطار قد كحلت بها حدق الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفل بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومكآته كأنما قد قطعت وفصلت من القاش أو من نسيج حريري متعدد الأصباغ ، بينما تطلّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فائن ومعنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زينتته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراود تتمم بها زينتها وحسنا الفائن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بيّضت قبة السماء وزوّقت قاعة الفضاء

فالسما بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قبة بيّضت ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشت ونُصِّتت بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة في مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلاً الصباح بين ديات الرياح

وقوله :

السحب تُرضع من بنات الأرض ما جعل الربيع لها الغصون مهودا

وقوله :

أمهات الثمار بين الروابي تائهات بلّيس خضر الثياب
 وبنات الكروم تجلى بما قد صاغه الماء من عقود الحجاب

فطفل الصباح يجبو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ،
وأمهات الخمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من بنات
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي
بانداماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحرًا لا حدود له ،
سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى في غزله كقوله :

قامتُ قيامةً روحها لرواحي إن التَّوَى لقيامةً لأرواح
وبكتُ فصار الدمعُ في وجناتها مثل الحَبَابِ على كتوسِ الرّاح
وكانَّ صفحةً وجهها لما بكتُ روضُ يرصعُ ورْدُه بأقاحي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقَى في
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته
اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن^(١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطى المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول
من القرن السادس الهجرى ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسى نزيل مصر في رسالته التي
ألفها عن الشعراء المصريين حوالى سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالى المقتول . كما مر بنا
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، ومازال
يترقى بها حتى أسندت إليه - مع الموفق بن الخلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

المحاضرة للسيوطى ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مليكٌ تذُلُّ الحادثاتُ لِعِزِّهِ يُعيدُ وَيُبدى والليلى رواعمُ
وكم كربةٍ يومَ النزالِ تكشفتُ بِحَمَلاتِهِ وَهَى الغواشى الغواشمُ (١)
تَشيدُ بناءَ الحميدِ والمجدِ بِبُضهِ. وَهنَ لآساسِ الهوادى هِوادمُ (٢)

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهوادم » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليقات طريفة إن هورضى عن شىء ، فإنه يلتمس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبيةٍ مخلوقةٍ من كُحْلِ
والحجرِ الأسودِ لم يُخلقْ لغيرِ القَبْلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تتزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفى أشعاره توريات يصنعها تظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمير وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشرها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُمُ قبلَ تَأذِينِ النواقيسِ واجلُ علينا بنتَ قَسيسِ
عروسَ دَنِّ لَمْ يَدَعُ عِثْمُها إلا شُعاعا غيرَ ملموسِ
تُجَلِّى علينا باسمًا نَعْرُها فلاتقابلها بتغيبسِ
مُذْهَبَةُ اللُّونِ إذا صُفِّقتُ مُذْهَبَةُ لِهَمِّ والبوسِ

نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكَيْسِ
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رَيْشُ الطَّوَاوِيسِ

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دير ، وهو يعب منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرج الهموم حين يمس الحلو ، وإنما لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشربها وهو غير تأس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه آمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا كثوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلَيْلَةٍ كَاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَرَهَا	وَصَلُّ الْحَيْبِ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْأَمَلِ
بِتَنَا نَجَازِيبِ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا	كَفَتْ الْمَلَامِ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ
وَكَلِمَا رَامَ نَطَقًا فِي مَعَانِي	سَدَدَتْ فَاهُ بِطَيْبِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ
وَبَاتَ بَدْرُ تَمَامِ الْحَسَنِ مُعْتَبِقِي	وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَقِيلِ (١)
فَبِتُّ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ	لَهَا الْجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
رَاحٌ إِذَا سَفَكَ التُّدْمَانَ مِنْ دَمِهَا	ظَلَّتْ تَهْفَهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ (٢)
فَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ	مُعْرَى بِهَا مِثْلَ مَا أُعْرِيَتْ بِالْعَدَلِ (٣)

والخمرية بديعه يصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليلى وصاله ، يعاتب فيها صاحبه مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تنفّلت أشعتها من أفلاكها في الكتوس مشرقة غير غارية ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها الجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمه الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شربها كفى عدلا ، فإنني مولع بها ولوعك باللوم والعدل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

(٣) العدل : اللوم .

(١) تفل : تغرب .

(٢) جدل : سرور .

عبد^(١) الباقي الإسحاق المنوفي

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علماءها ينهل منها ، حتى أصبح من علماءها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلوة معانيه وعلوية مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف وتيف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرية مزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمثتْ لنا تُخجِلُ الكوكبا فنأديتُها مَرَحَبًا مَرَحَبًا
أدارتْ بحضرتنا قهوةً وطافتْ بكأسِ الطَّلَا مُنْهَبًا^(٢)
رَكَتْ ورمئتُ بأحاطها وقد أذكرتني عَهْدَ الصَّيَا
وغنَّتْ لنا فطرنا لها ويا حُسْنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لُبَّه ، وقد دارت عليه بكنوس الخمر ، وهو يتشكى بها ويحال للمغنية كما يقول ، مصرِّحا بذلك مجازا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يبدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعل الجرة كأسا
واسقنى بالزقِّ والطا سى غزنى طيبتُ نفسا
وأقم لهُو والبد ذات فى حانى عرما
كيف لا وهى ترينى فى دجا الظلماء شمسا
وتقيم الميِّت حيا بعد ما جاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يخالها فيه شمسا ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نفحة الرحانة
للمسجى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لِي الكاسَ تماماً واسقني جَامًا جَامًا (١)
 اسقني بالكوب والكاس سِ فرادى وَتُوَامًا (٢)
 ثمَّ بِالْجَرَّةِ فالج رَّةٌ حتى أَتَّـرَامِي
 اسقيني حينئذٍ بال زُقٌّ حتى لا كَلَامًا
 ثمَّ أزهى موضعٍ في الـ رَوْضِ فاختره مقاما

وهو صَبَّ بالخمر يريد أن يحتسيها حتى الثمالة ، بل يريد أن يشربها أرتالا جما فجاما وكنوسا وأكوابا وَجَرَّتْ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عبت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاق في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّبْنَا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكنى أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تهمل منه ، ورأيانها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أبيانا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله (٣) :

كُنْ بِمَا أوتيتَه مُغْتَبَطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ القَنُوعِ المكتنى
 إن في نَيْلِ المني وَشكِّ الرَّدَى وقياسُ القَصْدِ عند السَّرْفِ
 كسراجِ دُهْنُهُ قُوَّتُهُ فإذا غَرَّقْتَهُ فيه طُفِي

(٣) نكت الهيمان ص ٢٩٨

(١) الجلام : إناء من فضة .

(٢) توأم : توأم : من الاثنين إلى ما زاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى منى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لا بد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان منته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتتم بن المعز قصيدة في القرافة ومقاربرها وما تبعث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلاً أو مناجياً (١) :

رجوتك يارب لا أنى أطعك طوع أولى الانتهاء
ولكنني مؤمن مؤمن مؤمن بأنك رب الورى والسماء
وأنت أهل لحسن الظنون وأنت أهل لحسن الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشيء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخرم يجده يحتم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء (٢)

أيها التائه الذى ضل عما يراد به
إن للعرض وقفة أمرها غير مشتبه
فانتبه قبل أن ترى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعراً وعظ وزهد ، وإنما كان شاعراً وخطيباً ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

وتلتقى بظافر الحداد بعد تيمم ، وهو يذكر دائما بالموت كقوله (١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الأَجَلِ
تَخَدُّعُ الإنسانَ لَدَتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي العَسَلِ
أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِي فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يقتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن التضرير يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة (٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِأَدَابِ القِنَاعَةِ وَالزُّهَادَةِ
فَإِنَّ جَنَحَتْ لَدَيْكَ وَاسْتَجَابَتْ وَخَالَفَتْ الهَوَى فَمَهْوٍ الإِرَادَةِ
وَإِنْ جَنَحَتْ بِهَا الشَّهَوَاتُ فَاكْبَحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعَةِ العِبَادَةِ
عَسَاكَ تُجَلِّهَا دَرَجَ المَعَالِي وَتَرْفَعُهَا إِلَى رَبِّ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومرؤس مدلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن يتلته إلى ربه (٣) :

بِاسْتِجَابِ دَعَاءِ المَسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مَفْرَجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ اللدَّاجِي
قَدْ أُرْتَجِحَتْ دُونَنا الأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنِ مَنَعِ وَإِرْتَاجِ
نَخْلَفَ عَنكَ أَنْ يَجْرِيَ القَضَاءُ بِهِ وَتَرْجِيكَ فَكُنْ لِلنَّخَائِفِ الرَّاجِي

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى اللذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف ليلها اللداجي ، لأن يفتح له الأبواب بعد أن أغلق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلا بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا ين سناء الملك (١) :

أقولُ دارى وجيراني مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيراني
في وحشة القبر والدود المقيم به شغلٌ لنفسي عن دارى وُسْتانى
سأوسع القبرَ بالأعمال أصلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هي الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنها لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطناها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد في الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رمسه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله (٢) :

يا مَنْ عَلا في مَلِكِهِ فَاقْتَرَبْ وَمَنْ بَدَأَ في نوره فَاحْتَجَبْ
وَمَنْ هو الْقَصْدُ لأهلِ النَّهْيِ وَالْمَطْلَبُ الأَسَى وَكُلُّ الأَرْبِ
عَوْدَتِي الأَنْسَ فلا تَنْسِنِي وَهَبْنِي الرَّحْمَةَ فيما تَهَبُ

وهو يتضرع إلى ربه الذي علا في ملكوته وهو أقرب إليه من جبل الوريد ، والذي يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذي هو المقصد والمطلب الأسى وكل الأرب والأمل ، والذي عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن المالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمني القوصي المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقا بعبوره (٣) :

قالَتْ ليَ النَّفْسُ وقد شَاهدتُ
بأىِّ وَجْهِ تَلْتَقِي رَبَّنَا
فقلتُ حسبي حَسُنَ ظنِّي بهِ
حالِي لا تَصْلُحُ أو تَسْتَقِيمُ
والحاكِمُ العَدْلُ هناكَ الغَرِيمُ
يُنِيلُنِي منه النعيمَ المَقِيمُ

قالت وقد جَاهَرَتْ حَتَّى لَقَدْ حَقَّ لَهُ يُضْلِكُ نَارَ الْجَحِيمِ
 قلت معاذَ الله أن يَبْتَلَى بِنَارِهِ وَهُوَ بِجَالِي عَلِيمٌ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح
 وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله
 جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أتجهربذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار ، فيقول معاذ الله أن
 يصلية ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبوالمعالى ابن القماح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة (١) :

اضْبِرْ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرِّهِ وَاَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرُو
 وَابْتِئْتُمْ فِكْمِ أَمْرِ أَمْضِكُمْ عُسْرُهُ لَيْلًا فَبَشِّرْكَ الصَّبَاحُ بِبِسْرِهِ
 وَأَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسَلْ بَشَرًا فَبَشِّرْكَ سِوَاهُ كَاشِفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ،
 وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ
 الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج الحزن .

وتلتقى ببتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسي المالكي
 المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة (٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي فَسَامِحْ مَا لِعَفْوِكَ مِنْ مِشَارِكِ
 أَغْنِ يَاسِيدِي عَبْدًا فَقِيرًا أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه
 بيبابه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورثى تورية واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار
 الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يبأس من عفوه
 ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحتادي في الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد (١) :

تَأَنَّ وَلَا تَجْرَعْ لِأَمِيرٍ تَحَاوَلَهُ فَخَيْرُ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ مَا اللَّهُ فَاعْلُهُ
تَفِيئًا بِظُلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّفَنَّكَ فَوَاضِلُهُ (٢)
وَعِزُّ تُهْنٍ دُنْيَاكَ وَاغْنَى بَرَكِهَا وَلَا تَحْفَلَنَّ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصري ، ومراً بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه (٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهُونُ
لَكَ عِزْمٌ بَأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، ماداً بصره إلى القاع وأعمق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتلا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول (٤) :

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(١) سلافة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٤) طبقات الصوفية للسلمي ص ٢٧ .

(٢) تفيئاً : استظل .

أموت ومآماتٌ إليك صبايبي ولا قُضيتَ من صدق حُبِّك أوطاري
تحملَ قلبي فيك مالا أبته وإن طال سُقْمِي فيك أوطال إضراري

فصباياته بالحب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه الحجة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وتدخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطغى على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع ويصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجته في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا نظن أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرَّبنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية^(١) مثل ابن الترجان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخراة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزاني وسنترجم له عما قليل . ومرَّبنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهاً ، اتجاهاً فردياً فلسفياً واتجاهاً جماعياً سنياً ، ومثّل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية^(٢) :

وحجَّبَ عَنَّا حُسْنَهُ نَوْرَ حَسَنِهِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالهُدَى
فِيانَارَ قَلْبِي حَبْدًا أَنْتِ مُصْطَلَى وَيَادَمَعُ عَيْنِي حَبْدًا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعرا بن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله (١) :

حَضَرُوا فَمَنْظُورًا جَمَالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذْ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمْرٍ حَبِّكَ طَافَتْ الْأَكْوَابُ
أَنْتَ الَّذِي نَوَلْتَنِي كَأْسَ الْهَوَىٰ فِإِذَا سَكْرَتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنا طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجد لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول (٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ وَمِنْ صِفَاتٍ لَهُ مَاذَا يُكَدِّرُهُ
هِيَهَاتَ عَنْكَ مِلاَحُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفي .

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول (٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حُدُّ جَامِعٍ لِحُدُودِي
وَأَلْقَيْتُ سَيْرِي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزٍ إِشَارَاتِي وَفَكُّ قَيْدِي
فَأَصْبَحْتَ مَنِي دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِمَجْمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لاشك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

(١) انظر ترجمة كناك في الفوات ١٠٨/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها العسوب وهي ملكة النحل .
ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر
تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل
الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء
الله السكندريّ الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي ، ومن
شعره قصيدة يقول فيها^(١) :

ويأصاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودٌ ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى الخلفَ بعدهم صريعَ الأمانِ والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكونِ ينطقُ جهرَةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قواطعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ؛
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ما تزال مهاجرة تتبعه .
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله
كثيرا ليلتوهم حماسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح
القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أن تركَ الحبِّ ذنبٌ آثمٌ في مذهبي مَنْ لم يُحبِّ
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهوى فهو عَذْبٌ وعذابِ الحبِّ عَذْبٌ
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبْوَةٌ عَذْرِيَّةٌ ماذا قلبٌ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ،
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان بقوق وابنه السلطان فرج ، وله في
الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله^(٢) :

رأى عقلي ولبّي فيه حارا فأضرمَ في صميمِ القلبِ نارا
ألا يالائمي دغني فإني رأيت الموتَ حَجًّا واعتارا
وأهلُ الحبِّ قد سَكروا ولكنْ صحا كلُّ وفرقتنا سُكاري

(٢) المنهل الصافي ١/١٥٤ والنجوم الزاهرة ١٤/١٢٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٨/٢٨٠

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حبهيم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبداً في أثناء حبهيم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجاً وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يداينه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامعة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويمجى الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية، والسادة البكرية في أيام الماليك وأيام العثمانيين من مثل قول علي بن وفا :

تغيبت عن عيني فغيبتك شاهدي ووجهك مشهودي وما عنك عاتق
فإن غبت فالأشباح منى مغارب وإن لُحِتَ فالأرواح منى مشارق

ويتلو الشهاب الخفاجي البيهقي بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أبيضت عليها العلوم اللدنية^(١). ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم يريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يببالغون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوي والصلاح^(٢).

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدح الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة بمجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرّض وأن يكون دائماً معيناً لهم ونورا هادياً . وما زال الشعراء المصرّيون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنّون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعارا يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لثق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصري حيثئذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيري أنه مادم مصري للرسول ، بل أنه مادم عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكتيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢. وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه عليه السلام (١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإن يفتُ . ودعتُ أيام الحياة وداعا
لأستلذُّ لغير وجهك منظرا . وسوى حديثك لأريد سماعا

وكان العوازي معاصره للمار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم (٢) :

أفنى النبيين برهانا ومعجزة . وخير من جاءه بالوحي جبريلُ
سلُّ الإلهُ به سيفاً للتيه . وذلك السيف - حتى الحشر - مسلولُ
وَيْلٌ لمن جحدوا برهانه وتنى . عنان رُشدهم غيُّ وتضليلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اليب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نياته وبرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويتردد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجي وغيره (٣) ، كما يتردد التوسل به وطلب الشفاعة ، نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوي من مثل قوله متوسلا (٤) :

(١) الفوات ٤٨٧/٢ . الخليلي (٤) ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أشد المهني في كتابه قطعا

كثيرة من المدائح النبوية .

(٤) تاريخ الجبرقي ١/٣٥٣ .

(٢) المنهل الصافي ١/٣٤٣ .

(٣) وانظر نعمة الرضاعة للمسيحي (طبعة عيسى البابي

ياربُّ بالهادى الشفيح محمدٍ منْ قد بدا هذا الوجودُ لأجله
 كُنْ لى معينًا فى معادى واكفنى همُّ المعاش وما أرى من نِقْلِهِ
 واسترُّ بفضلِكَ زَلَّتْى واغفرْ بعدُ لك سَيِّئَتى واشفِ الحشا من غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيح يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له فى معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا فى الحديث عن بعض شعراء التصوف والمدبح النبوى :

ابن الكيزانى ^(١)

هو محمد بن إبراهيم الكنانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد دون منه العماد الأصبهاني فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عدوية وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلُّ بها اعتقاده ، وزلُّ فى مزالقتها سداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة « وهم أشباه الكرامية بخراسان » فهو عالم

والواقى بالوقيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة
 ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى
 مجلة الثقافة ، العدد ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن
 سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ،
 وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة (قسم مصر) ١٨/٢
 وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقہ والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العباد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، وما دام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومر بنا آنفا أن العباد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهدده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتقد نحلته ، ويقول القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقاله » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لاتفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغرى بردى : « لا يلتفت لقول الخبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشاني معروف » . وتجميع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العباد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسبيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

لأن في ذكرها بردا على كبدي
لأنها أودعته باطن الجسد
لأنها أوقفت جنفي على السهد
بالمجر لم أشك ما ألقى إلى أحد
أنا الذي سقت حنفي في الهوى يدي

تلذ لي في هوى ليلي معاتبتي
وأشتهي سقى أن لا يفارقتي
وليس في النوم لي ماعشت من أرب
ولو تمادت على الهجران راضية
اللوم أشبه بي منها وإن ظلمت

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد
 والمجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلي ، ويتأدى في العتاب ، نعلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض
 نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزاني مثله مثل شعراء الحب الإلهي جميعا فقد رفعوا كل الحواجز
 بينهم وبين أصحاب الغزل العذري ، معبرين بما في غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان
 صوفية ، حتى لرى ابن الكيزاني يقول :

أترعم ليلي أننى لا أحبها	وأنى - بلا ألقاه - غير حمول
فلا ووقوفى بين ألوية الهوى	وعصيان قلبى للهوى وعدولى
لو انتظمتنى أسهمُ الهجر كُلهما	لكنتُ على الأيام غير ملول
ولست أبالى إذ تعلقتُ حبها	أفاضتُ دموعى ثم أضرتُ نحولى
وما عبئى بالنوم إلا تعلُّلٌ	عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذري ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى
 وعصيانه للعدول أو العوادن وصبره على آيات العناء والكاء والنحيب والسقم
 والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهري للأبيات فابن
 الكيزاني إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لانهاى غير
 محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلح شرره فى كل
 جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى ألمه ، حتى
 ليبدل دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنات قلبه وفؤاده ، وهو الخمر
 الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جر كيف شئتُ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ الحبةِ فى محبتهِ سقى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهي الذى لا حدود ولا ضفاف
 له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان
 شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، ويتأدى ابن الكيزاني :

يا حادى العيسِ اضطبر ساعةً فهجتي سارت مع الركب
 لا تحدُ بالتفريق عن عاجلٍ رفقا بقلبِ الهائمِ الصب

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها المضة في نفوس العشاق تعبيراً رمزياً عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلاً عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيراً حسياً بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلاً - ببكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكُمَا عَرَجًا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلَلِ الدَّارِسِ
فِيضُ الدَّمُوعِ عَلَى رَسْمِهِ يُتْرَجَمُ عَنْ حَرَقِ البَاسِ

ودائماً يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملحمة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هائم على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتَّبِعُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطِفْ عَلَى الصَّبِّ المَشُوقِ التَّائِهِ
أُضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لَأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ

ودائماً تلقانا عند ابن الكيزاني - ~~سورة ربه اني نوست ان تحرق والتي مايزال يذوقها~~ ويصطلي بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحبة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لخبه دواء ولا شفاء ، يقول :

أَضْرَفُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعَوْنِي وَحَسْبِي
عَلَّلُوا قَلْبِي بِذِكْرِي هُ فَقَدْ زَادَ لَهْيِي
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ النَّفْسِ سَ مَا دَامَ نَصِيبِي
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ سَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِسُحْبِي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً لأنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الربانية المصنئ ينسيه الحريق وناره المتلظية التي لاتنطفئ في سويداء قواده أبداً .

ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابته عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمرى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقِّب بالفاراض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولي نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأباها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر بتنسك ، وعنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سألحا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن يفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرا من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفرقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رُوح بمكةً روحى شادياً إن رغبته فى إسعادى
كان فيها أنسى ومِعراجُ قُدسى ومُقامى المقامُ والفتحُ بادية

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبِّحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للدكتور محمد مصطفى حلمى وكتابنا فصول في الشعر ونقده
ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات
مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسى وهو شرح
صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورينى على ظاهر اللفظ
دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجم
الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال
٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣
ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن
المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبه الإلهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تخرج بوجد ملتاع لاحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الهجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدته نفسه بسلك هذا الطريق المخوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُّ فاسلَّمْ بالحسنا ما الهوى سهَّلْ فما اختاره مُضِنِّي به وله عقلُ
وعيشٌ خالِياً فالحبُّ راحتهُ عَنَّا وأوَّلُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ في كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهجٍ
في نعمة العود والتأي الرخيم إذا تألقا بين ألحانٍ من الهزج (١)
وفي مسارح غزلان الخماثل في برِّد الأصائل والإصباح في البلج (٢)
وفي مساقط أنداء الغمام على بساطِ نورٍ من الأزهار مُنتسج
وفي مساحبٍ أذبالٍ التَّسِيمِ إذا أهدي إلى سُحَيْرٍ ، أطيَبَ الأرج (٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلا في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والتأي المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصباح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطه الطبيعة البيهجة ، وفي النسيم يملاً الجو سحرًا بشذاه وأريجها العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبثٌ في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٌ في كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه ووفه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جلاله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يصلى فيه من هجر ، هاتفا من قواده :

تَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ وَتَحَكُّمٌ فَالْحَسَنُ قَدْ أُعْطَاكَ
وَتَلَاْفِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّتْلَافِي بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ
فُقَّتْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي فِيهِمْ فَاقَةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري ، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلي في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزًا لهذا الحب ، ولا خمر ولا كتوس ولا دنان ولا سقاة ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسى مسكر ، فهو سكران دائما منتشٍ غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَّمُ
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو - إِذَا مَرَجَتْ - نَجْمُ
وَإِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلُ الْهَمُّ
وَلَوْ نَفَّضُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْرَهُ بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة الحمديدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرده

الهم ، وتحيى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينتشى بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول لإحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدس بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وانمحاءه حينئذ فى الحقيقتين : الإلهية والحمدية ، حتى ليتكلم فى بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه فى معراجة من أهوال وخطوب ومحن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها فى معراجة ، خالصا إلى الانمحاء والفاء فى الذات العلية حتى ليقول :

ولم تهونى مالم تكن فى فانياً ولم تفن مالم تُجْتَلَبْ فىك صورى
 كلانا مُصَلٌّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع فى كلِّ سجدةٍ
 وما كان لى صَلَّى سوائى ولم تكن صلاتى لغبرى فى أدا كلِّ ركعةٍ

وكانه يشعر فى البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهى لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول فى البيت الثانى إنها ينبغى أن تُمحي فيه حتى يفنى فى الذات الربانية وتتجلى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول فى البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا فى ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاح وجودى فى شهودى وبنتُ عن وجودِ شهودى ماحياً غيرَ مثبتٍ
 وفى الصَّحْوِ بعد المحوِّ لم ألكُ غيرها وذاتى بذاتى إذ تجلَّتْ تجلَّتْ

فهو قد انمحي وفنى فناء كلياً فى الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفاء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره فى حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الربانى ، بل أيضا يعتره فى حال الصحو ، فهو دائماً محوٌّ فانٍ فى الذات الإلهية . وهو دائماً يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنّة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ في اتحادى ثابتٌ روايته في الثقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب إليه بنقل أو أداء فريضة

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ماتقرب إلى عبدى بشئ أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها .. وإن سألتني أعطيتك ، ولئن استعاذني لأعيذته » . وفكرة الانمحاء والفناء واضحة في الحديث ، ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتنسك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

البوصيرى^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٩٨ وقى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفي قبل السنة السالفة قبيل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابيب حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله ينتظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية ، وعين في دواوين بلييس بالشرقية . ومربنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخطط الجديدة لعلى مبارك ٨/١٠ وكتابنا فصول في الشعر ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه (طبعة الحلبي) بتحقيق محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربى ٨١/٥ ترجمات. برده إلى اللغات الأجنبية وتحسينها وتشطيراتها وشروحها المختلفة وكذلك الهمزية .

(١) انظر في البوصيرى وحياته وأشعاره الفوات ٤١٢/٢ والوفى بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الهيثمى على شرح مدحة الهمزية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وطبقات الصوفية الشعراني ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليذ الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري ما مُقْتَضَى حِرْمَانِي دون غَيْرِي والألفُ لِلرَّحْمَنِ
أتراني لا أستحقُّ لكوني جامعًا شَمَلَ قارئِ القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائلةٌ في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعايات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنّي وحدي لكنتُ مريداً في رباطٍ أو عابداً في معارة

وكانه كان يشعر في أعماقه بأنه خلق لايكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسبها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يحلوه فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مزبديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية بمدحه بها ، ويعزبه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسلُكُ طريقَ مُحَمَّدِيٍّ شريعةٍ وحقيقةٍ ومحمدِيٍّ المَحْتَدِ
 إن الإمامَ الشاذليَّ طريقَهُ في الفضلِ واضحةٌ لعينِ المهتدي
 قطبُ الزمانِ وعَوْنُهُ وإمامُهُ عَيْنُ الوجودِ لسانُ سِرِّ الوجودِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم ينتج بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شاهت وجوهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديحه النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المحرّفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حاسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزية النور المحمدي المعنوي كُلب الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

محمدٌ حُجَّةُ اللَّهِ التي ظَهَرَتْ بِسُنَّةِ ما لها في الخلق تحوُّلٌ
 من كَمَلِ اللَّهِ معناهُ وصورةُ فلم يفتَهُ على الحالين تكمُّلٌ
 من آدمٍ ولحين الوَضْعِ جوهرُهُ الـ حكونٌ في أنفَسِ الأصدافِ محمول
 فللنَبْوَةِ إتمامٌ ومُبْتَدَأٌ به وللفخرِ تعجيلٌ وتأجيلٌ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد الملتهع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائماً يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سِرّاً في ضمير الغيب من قبل أن يُخْلَقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوان من أنواره كلما أودعها الله جبيننا
ختم الله النبيين به قبل أن يجبل من آدم طينا
فهو في آباءهم خير أب وهو في أبنائهم خير أبينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خلَقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجبل أو يخلق آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهي في نحو أربعمئة وخمسين بيتاً وعنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف ترقى رقيق الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء
إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضلٍ فما تصددر إلا عن ضوئك الأضواء

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أي نبي أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثل النجوم المترامية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . ويتوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذه الشاذلي وخليفته أبي العباس المرسي ، ويتضرع في أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه في محو ذنوبه . وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها ويبكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبي ﷺ يسبح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ، وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية من ذى سلم أشعلت الحب في قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جراح النفس وردّها عن شهواتها . ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم ويسترسل في تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فأقّ النبيّن في خلْقٍ وفي خلُقٍ ولم يدانوه في عِلْمٍ ولا كَرَمٍ
 وكلُّهم من رسول الله ملتَمِسٌ غَرَفًا من البَحْرِ أورشَفًا من الدَّيَمِ
 فإنه شمسٌ فضلٍ هم كواكبُها يُظهِرُنْ أنوارها للناس في الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من نوره ، فنوره يتجلّى في الأنبياء جميعا ومهما تعددوا في الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيري في بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن معجزته الكبرى كما يفيض في بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الخنيف حتى استسلموا صاغرين . ويضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به في دنياه وآخرته . ولانزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفي وله بجانبها في المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبي الحسن^(١) البكري الصديقي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إني عبدٌ ذليلٌ ضعيفٌ فليحلى باللطف منك تداركُ
كلُّ قطرٍ أصابني منك بحرٌ كيف والحالُ فيّ نجري بحاركُ
كلُّ جزءٍ مني لسركِ دارٍ عمَّرَ الله يا حبيبي دياركُ
من رآني رآك من غير شكٍ أيُّ شكٍ وقد جعلتُ مزاركُ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض :
وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحانية من مثل قوله :

حَبِيبُكُ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ فاذا البكاءُ وماذا التَّحِيبُ
نعم هو دَانٍ وَلَكِنِّي بَعِيدٌ فقيدٌ طريدٌ غريبٌ
بُكَائِي عَلَيَّ لِأَنِّي بُلِيْتُ بداء الصُّلُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائماً هو واله ملتاع يبغى الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويئن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

١) العيدروس (طبع بغداد) ص ١٤ وكتاب بيت الصديق للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن ربحانة الألبا للخفاجي ٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبي المواهب ص ٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا راجيا ويردد مارده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكرى استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لا يخيب أمله ، والذى ينال سؤله اللائذ . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّه وخيرَ من فيهم به يُسألُ
 قد مسنى الكربُ وكم مرة فرجتَ كربًا بعضه يُذهلُ
 وأنت بابُ الله أى امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريح الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر^(١) » . ولا يلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل^(٢) » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القسطاط) ص ٢٧٠ .

تتسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني إذ يلقانا فيه شاعرٌ لُقِبَ بِشَلْعُلَعٍ وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنساس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بغلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذر له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التنديد بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلا تزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونايه أو ناياته (١) :

وزامرٍ يكذبُ فيه عائبُهُ تكثرُ في صنعته عجائبُهُ
يجب صبرُ المرءِ عنه حاجبُهُ كأنما نايأته ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قمر الدولة جعفر بن دّواس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد (٢) :

هذا ابنُ أفلحٍ كاتبٌ متفردٌ بصفاته
أقلامه من غيره ودوائه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعاية مشهورة للقاضي الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طيبب تعهده وكان محمودا ، فلم يبر أعلى يديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ بِلْيَتِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِّ بَعْسَكَرِينَ
طِيبٌ طِيبٌ طِيبٌ كَغُرَابٍ بَيْنَ يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي
أَتَى الْحُمَى وَقَدْ شَاحَتْ وَبَاحَتْ فَرَدَّ لَهَا الشَّبَابَ بِنُسَخْتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرٍ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حَنِينٍ (٢)
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرَهَا بِمَجْدٍ نَوْبَتَيْنِ

والجليس يداعب الطيبب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاحت وباحت أو فترت فإذا هورِدُّ لها الشباب بورقتين من سَقُوفِ الدَّوَاءِ أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الدُّرُورِي في الحَقْبَةِ الأيُوبِيَّةِ ووصفه لحدبة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريف مانقرأ من دعابات في هذه الحقب دعاية البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَهُ
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيُو نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشَكَّلَهُ (٤)
وَتُخَالُ مَدْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعَجَلَهُ
مَقْدَارُ خُطُوتِهَا الطَّو يَلُهُ حِينَ تَسْرَعُ أَنْمَلَهُ
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتر واقفة لاتسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(٣) كتاب البهاء زهير للشَّيْخِ مِصْطَفَى عَبْدِ الرَّازِقِ ص

(١) الخريدة ١٩٢/١ .

٥٤ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرة من أطباء القرن

(٤) مشكلة : مقيدة .

الثالث ومثله حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل^(١) :

بِاللَّهِ قُلُّ لِلنَّيْلِ عَنِّي إِنِّي لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ غَلِيلاً
وَسَلَّى الْفَوَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ أَنْ كَانَ طَرَفِي بِالْبِكَاءِ بَجِيلاً
يَاقَلْبُ كَمْ خَلَّفْتَ نَمَّ بُيُوتَهُ وَأَظُنُّ صَبْرَكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفي غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبثينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزنة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان^(٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، وبعدهد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله^(٣) :

مَلَكْتَ الْخَافِقِينَ فَتَهَتَ عُجْبًا وَليْسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَقُرْطُكَ

فهى لامتلك قرطها الخافق المهتز وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور^(٤) :

أَقُولُ وَقَدْ شَتَوْنَا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً دَعَوْنِي فَإِنِّي آكَلُ الْخَبْزَ بِالْجَبِينِ

والتورية في الجبين واضحة . ومن توريات النصير الحامى قوله في بعض غزله^(٥) :

وَيَظُنُّنِي حَيًّا رَوَيْتُ بِرَيْقِهِ فَإِذَا دَعَا قَلْبِي يَجَاوِبُهُ الصَّدَى

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزنة ص ٣٠٠

(٤) خزنة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصنر ص ٣٠٨

(١) خزنة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

٣٠٠

(٢) خزنة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصدى المتصل بالدعاء وال جواب رجح الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمراً رديئاً غالبه نوى ، إذ كتب إليه (١) :

أرسلت تمراً بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسم فودنا باقى ونحن على النوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراد ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفي وفخر الدين بن مكناس وبدر الدين البشكنكي وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلاني المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لايفترقان . ويطبقنا فى أيام العثمانيين شاعر فكاه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وستترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن (٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مدحجه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما ت وكورت شمس المديح
ماذا أرجى فى حيا تى بعد موت أبى مليح

والخريدة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزنة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذي آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فاتق ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله في المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبتهجا والغيثُ في يده يَهْمِي فيجمعُ بين الشمسِ والمطرِ
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ جَلْمِهِ وَأَنَا تِهِ وَالسيفُ حاسدٌ بأسِهِ وَمَضَائِهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها أو سابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل في شكل عقرب :

قلتُ إذْ عَقْرَبَ الدَّلَا لُ على خَدِّهِ الشَّعْرُ
ما رَأَيْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ القَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ، وهي بحق صورة مبتكرة له قوله :

لا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَّةٌ مَحْمَرَةٌ رَقَّتْ فِي الباقوتِ طَبَعُ الجَلْمِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسْنُ فِي وَجَنَّتِهِ وَطَرْفِهِ يَفْتَحُ وَرَدًا وَيَغْضُ تَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة في الجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهي تُصَبُّ من إبريق :

إبريقنا عاكفٌ على قَدَحٍ كأنه الأُمُّ ترضعُ الولدا
أوعابدُ من بنى الجوس إذا توهَّم الكأسُ شُعْلَةً سَجْدًا

وكان في ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله في ذلك نواذر وأشعار كثيرة ، كان فيها يتاجن على طريقة أبي الشمقمق الذي عرضنا له في كتاب العصر العباسي الأول ، إذ كان دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبث الجردان فيها وبنات وِردان أو الصراصير ، ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقتها ، قائلا :

لِي بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرٍ لَابِنِ حِجَاغٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ
 أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ
 بَقْعَةٌ صَدَّ مَطْعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذَّ سَكَّتْهَا - فِي الْكُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقة الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حجاج المفحشة ، ويقول إنه - مذ سكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكاه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عشتُ خمسين بل تزيـ	دُ رقيقاً كما تـرى
أحسبُ المقلَّ بُندُقاً	وكذا المِلْحَ سُكْرًا
وأظن الطويلَ من	كلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
قد كَبُرَ يَرْ يَرْ يَبِرُ	تُ وعقلي إلى وَرَا
عجبا كيف كلُّ شـ	سببِيءٍ أراه تَغْيِرًا
لا أرى البَيضَ صَارَ يُوُّ	كَلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
وإذا دُقُّ بالحجا	رِ زجاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقااعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمدور ، ويحسُّ ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزائر (١)

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : ذكابين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصباً وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم به وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من برة ، ويذكر دعوته له مرارا للنزهة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحمامي وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذي يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهي مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التي يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن منزعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزائر بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهي ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمه ، فطبيعى أن لا ينجح في أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التي تصور صلة عامة

(١) انظر في الجزائر وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن العماد ٣٦٤/٥ ومطالع البذور للغزولي ١٩١/٢ وما بعدها ، وبمكتبة جامعة القاهرة مصورة لمتنجات من شعره بخط الصفدى في ١٨٠ ورقة .

الشعب المصري دائما بالشعر العربي صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون في الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد في الحقة الفاطمية ، وكثير من معاصري الجزائر كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحمامي ، وكان له حَمَام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ تيسٍ

وردّ عليه الجَزَار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا في الدعابة :

يرجينا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود في بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لأشكرُ الجزارةَ ما عِشْتُ ستُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّبُ نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامة مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزائر ميل متأصل في نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّه بابن مكنسة وأبي الشمقمق العباسي في الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهاً بمثل قوله :

لى من الشمس خِلعُهُ صفراءُ لا أبالي إذا أتاني الشتاءُ
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مُدَارٌ وسَقَفُ بيتى السماءُ
لو ترائى فى الشمس والبردُ قد أذَّ حلَّ جسمى لقلتُ إني هباءُ
كلما قلتُ فى غَدٍ أدرك السُّو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لا يجدها ، وبيتة الأرض وسقفه السماء ، وقد أمّحله البرد حتى صار شبعا لا يكاد يُرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

وَدَارٍ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِعَةِ
فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ أَنِي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجُدَ حَيْطَانُهَا الرَّكَعَةَ
إِذَا مَاقَرَأْتُ : (إِذَا زُلْزِلَتْ) خَشِيتُ بِأَنْ تَقْرَأَ : (الْوَاقِعَةَ)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقض حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ مِنَ الْعُمُورِ سِنِينَ غَسَلْتَهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقُّ مَرَارًا وَمَا تُقِرُّ بِعَمَلِهِ
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمِ وَذَلِكَ التَّسْبِيهُ فِيهَا وَخَطَرُكَ وَالشَّمْلَهُ
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْحَامِهَا قَطُّ وَصَلَهُ

فهي نصفية أو « جبة » طالما لبست وغُسلت وصبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجناية وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفح به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهي فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنّا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال تَوَا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسْمَاً فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَلَا تَسُومُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكَنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : المطلاق والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، فضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةٍ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تَبَصُّرَهَا الْجِنُّ
كَأَنَّهَا فِي فَرَشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ
وَقَائِلٌ قَالَ مَا سِئَهَا فَقَلْتُ مَا فِي فِئَهَا سَيْنٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا في رثائه لأتانه ، وجمع بعض معاصريه مرثيه لحماره في مجلد ، وهى مرث تدور على الدعابة الخالصة .
ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِبًا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لِقَالَ الْخَبِزُ أَكْبَرَ

وفى الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزممه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قَلْتُ لَسْتُمُ الْجِسْمَ مَنِ وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرَطُ ضَنَا وَاكْتِتَابُ
فَعَلْتَ بِي يَا سَتْمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتْبَسُ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لا تكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : ما لا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج^(١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخييل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعي ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، وما زال الشعر يصعد به حتى عيّن كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدّها للعلم مدرسةً غداً عراقٌ إليها شيقٌ وشامٌ
ولا تذكُرُنَّ يوماً نظاميَّةً لها فليس يضاهاى ذا النظامِ نظامٌ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دائرة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة في المعز أيلك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمٌ عليه مآتماً بعد مآتمٍ ونسفحُ دمعاً دون سَفْحِ المقطمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط المقرئ
٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية
ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات
الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨
وشنرات الذهب ٤٣١/٥ وخزانة الأدب للحسنى ص

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا أَلْسِنَاتُكَ أَمَ لِلرَّوْدِ نِسْبَتُهُ
فَذَاكَ بِالْحَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذَا دَلِيلُهُ أَنَّ مَاءَ الرَّوْدِ رَيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خدِّ صاحبه ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بدیعة ومعروف أن الشقيق قائم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبه الشبيه بمائه . ومن غزله أيضا :

لَا تَحْجُبُ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبْقَ مِنِّي لِفِرطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ
وَلَا تَثْقُ بِأَنْبِيئِي إِنْ مَوَعِدُهُ بِأَنْ أَعِيشَ لِلْقِيَا الطَّيْفَ مَكْذُوبٌ
هَذَا وَخَدُّكَ مَخْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ يَفِيضُ عَلَى خَدِّي مَخْضُوبٌ
تَأْوُدُ الْعُصْنُ مَهْتَرًا فَأَنْبَانَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خَلَقَ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخد صاحبه في حمرة . ويزعم أن ميلان العصن واهتزازهما إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبه . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله يفعل له لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصري كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ التُّحُورَا
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ فَاقَطَعُ لِسَانِي أَرِذْكَ نُورَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لساني » وهو إنما يريد النوال الذي يقطع لسانه ويزيده مدحا وتوحيها وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَإِخْجَلْتِي وَصَحَائِفِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضیحتی لمعنّف لی قائلی أكذا تكون صحائفُ الوراقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمہ : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجيبي عن أناسٍ لقاء الموت عندهمُ الأديبُ
وربُّ الشعرِ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لهمُ حبيبُ

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبتمام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُوْنِيَّ وانتصبُ واكتسبُ واكْدَحِ فنفسُ المرءِ كدَّاحَه
وكُنْ عن الراحةِ في عَزَلَةٍ فالصُّفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَه

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقله معروفة في مصر باسم « الرجلَة » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلاً :

وأحمقٍ أضافنا ببقلَه لنسبِهٍ بينها ووُضَلَه
إذ مدَّ في وجه الضيوفِ رجلَه

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجلَة على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فسَّر لي عابراً مناماً ففَصَلَ في قوله وأجْمَلَ
وقال : لا بد من طُلوعِ فكان ذلك الطلوعُ دُمْل

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعاً ، وصنع هذه التورية البارعة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموي توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لا نقل عنها لطفاً وبراعة .

ابن (١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى واضييعتى فيهم وإفلاسى
ماحال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على السنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى ، غم أنفـ رسول لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تعتقد في دكانه أغلب الليالى ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمه من أمثال الجزائر وابن النقيب والوراق والحمامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عصيات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم فى عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فلذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : يا حكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقلنا والعقلُ أى وثاقِ وصبرنا والصبرُ مرُّ المذاقِ
كلُّ من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابتها الفكاهة في مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ وما بعدها .

(١) انظر فى ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبدر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمى متحركة متحاوررة ، واسم أولاهها « طيف الخيال » والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهى مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع ككثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرآنا شديداً إلى عامية أهل القاهرة لئمنه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنيا بفضله وجده وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحذبتة بمن ترد .

قسماً بحسن قوامك الفتان يا أوحده الأمراء في الحدبان
يامشبه الغصن الرطيب إذا انتنى من حدبته يمس بالرمان
ياخجلاً شكلاً الهلال بقده حاشاك أن تعزى إلى نقصان

ويستمر في تحسين حدبته ، فهو صاحب ردفين ، وهو جمل جليل السنام ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافض الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة ففاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويعنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريسه في الطرقات وفي عنقه دن نبيذ أو نبادية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدًا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدًا
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدده

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحدث ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوانى الخمر ودنائه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - ياقوم - شَيْخَنَا إبليسُ وخلا منه رَبُّهُ المائوسُ
والقناني به تكسرنَ والخمَّ سارُ من بعد كسرها محبوسُ
وذوو القَصْفِ ذاهلون وقد كا دتْ على سَيْلِهَا تسيلُ النفوسُ
والحرافيشُ حولها يتباكو ن بنايَ تُراعِ منها الجوسُ
وقضبُ ونرجسُ وسُعادُ باكياتُ ونُزهةُ وعروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا واقتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُربِعَ انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُردَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شَرَى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورشَّ الطيب على الحضور ويُشدد :

أمسيتُ أفقرَ مَنْ يروحُ ويَعْتدى ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فى منزلٍ لم يَحِوْ غيرى قاعدًا فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممددٍ
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَقْصِدِ
والقارُ يَرْكُضُ كالخيلٍ تسابقتُ من كلِّ جرداء الأديم وأجرد
وترى الخنافسَ كالزئوج تصففتُ من كلِّ سوداء الأديم وأسود
هذا ولى ثوبٌ تراه مرَّقا من كلِّ لونٍ مثل ريش الهدهدِ

ومع ذلك يُرَفِّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها بصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما يتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه خطأ : وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالنُّوحِ والتعديدي بعد فقد العجوز أم رشيد
هلكت آخر الليالي السود ياليلى الوصال بالله عودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص . ويطرّد فيها التسلسل ، وشخصها في غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر (١) الأنبوطى

يقول الجبرتي في ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزناً وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان يفيد ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهّلها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى أحمد ربي لست بالقنوطى (٢)
وأستعين الله في ألفيه مقاصد الأكل بها محويّه
فيها صنوفُ الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم (٣)
طعامنا الصّانى لذيذٌ للنهم لحما وسمنا ثم خبزنا فالتقم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليأس .
(٣) الهائم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتي

فإنها نفيسة والأكل عم مطاعم إلى سناها القلب أم (١)
والأصل في الأخبار أن تُقَمَّرًا وجوزوا التقديد إذ لاضررا (٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يغرقون في الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائى تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تَرياقُ من العليلِ وَأَصْحُنُ الرِّزِّ فيها منتهى أُملى (٣)
ولا خليلٌ يدْفَعُ الجوعَ يرحمى ولا كريمٌ بلْحَمِ الضَّانِ يسمح لى
طال التلهف للمطعم واشتعلت حُشاشى بِحَمَامِ البَيْتِ حين قُلى
أريد أكلًا نفيسًا أستعين به على العبادات والمطلوب من عملى

وكانت لابن الوردى الشامى المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبصلٍ فى عشاءٍ فهو للعقل خَبَلٌ
وعنَّ البِيسارِ لا تُعَنَّ به تُمسِ فى صحَّةِ جسمٍ من عِلَلٌ
واحتفلْ بالضان إن كنت فى زاكىَّ العقلِ ودعْ عنك الكسلُ
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكتُ أكلها يَنبئُ عن القلبِ الرَّجُلُ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيسار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضانى وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه فى القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون فى الضحك ، بما يعرض عليهم فى أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة واللوان

(٣) أناجر: جمع أنجر ويطلق فى العامية على أوانى

الطعام وطلهه الكبيرة .

(١) أم: قصد .

(٢) قمر: كلمة عامية أى تعرض على النار

الخلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والحشاف . وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية ، ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تتمهن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والموالي استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربى وخاصة الزجل والموالي .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمّته مصر بَلِّغًا وجمعه على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سمّي قَرْفِيًا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ما سمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكانهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الحامس كان يختم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تُلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرک ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزلي ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليقي ، ومن بُليقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحفاني
نرجع لديني الأول عن التّسا لسنّ نتحوّل
إن كنت في ذا تتقول اصْفَعُ وقطّع آذاني

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره ^(١) . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق ^(٢) وممن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدروى له ابن حجر يُلبَقًا ^(٣) ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغري بردى بُليقا ^(٤) هزليا رقص به منشوده بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلقُ فقد صدق
عندي قبا من عهد نوح على الفتوح ^(٥)
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أي هرم إلى يلبغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . وبجانب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحلّي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجري على هذا النمط ^(٦) :

- (١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥
(٢) انظر بعض بُليقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص ٣٢٧
(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣
(٤) النجوم الزاهرة ١٠/٣١٧ - ٣١٨ .
(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .
(٦) العاطل الحالى لصفي الدين الحلّي نشر ولهم هو نرباخ بألمانيا ص ٢٧ .

مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْعِدَارِ
عَرَضْتُ لُو بِاللَمَّاحُ صَارُ وُرْدُوْ كَالْبَهَارِ^(١) وَتَبَدَّلُ لُونُو بِالصَّفَارِ

وأُشْد زَجَلًا مِصْرِيَا كَامِلًا ، قَالَ : سَمِعْتَهُ لِلْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ يَصُورُ خِفَةَ رُوحِهِمْ وَرِقَّتَهُمْ
وَلَطْفَهُمْ وَظَرْفَهُمْ ، وَمَا جَاءَ فِيهِ^(٢) :

لَسْ غَرِيبٌ مِّنْ فَارِقِ أَوْطَانُوْ أَوْ بَعِيدٌ عَنِ نَاضِرُو الْحَبِيبِ
إِلَّا مِّنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبِ عَنِ نَاضِرُو مَحْجُوبِ
حَبِيبِي عَنِّي حَجَبُوهُ أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حُفَّاطُو
وَالرَّقِيبِ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّي حَتَّى عَنِ قَيْدِ الْفَاطُو
كُلْ يَوْمَ لِأَجْلُو يَغِيظُ قَلْبُو رَبُّ غِيظُ قَلْبِ الَّذِي غَاطُو
مَآخِطَرُ إِلَّا وَهُوَ خَائِفُ أَوْعَبَّرُ إِلَّا وَهُوَ مَرَعُوبُ
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفِظَةُ لَا وَلَا يُرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبُ
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُحُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَثْرَابُو
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لِقَى أَحْبَابُونَسِي أَصْحَابُو
قَالَ لِي قَدْ ضَجَّتْ بِنَا أَعْدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

وَالزَّجَلُ يَسِيلُ رِقَّةً وَنَعُومَةً وَعَدُوْبَةً . وَقَدْ رَوَى صَاحِبُ خِزَانَةِ الْأَدَبِ قِطْعَةً مِنْ زَجَلِ ابْنِ
الْقَمَّاحِ فِي وَصْفِ الرَّجَسِ^(٣) . وَمَا تَوَفَى السُّلْطَانُ الْأَشْرَفُ شَعْبَانَ سَنَةِ ٧٧٨ حَزَنَ النَّاسَ عَلَيْهِ حَزْنَ
عَظِيمًا وَرَثَاءَ الشُّعْرَاءِ بَعْدَهُ قِصَائِدَ ، كَمَا رَثَاءَ الزَّجَالُونَ وَمِنْ قَوْلِ أَحَدِهِمْ^(٤) :

كُوكِبِ السَّعْدِ غَابَ مِنَ الْقَلْعَةِ وَهَلَّلُوْ قَدْ انْطَفَأَ بِأَمَانِ
وَزَحَلْ قَدْ قَارَنَ الرِّيحُ لِكُسُوفِ شَمْسِ الضُّحَى شَعْبَانَ

وَمِنْ أَطْرَفِ الْأَزْجَالِ الْمِصْرِيَةِ لِعَهْدِ الْمَمَالِكِ زَجَلُ نَشَرْتَهُ قَدِيمًا بِمَجْلَةِ الثَّقَافَةِ^(٥) نَظَّمَهُ زَجَالُ
مِصْرِي فِي رِثَاءِ الْفَيْلِ مِرْزُوقِ ، وَهُوَ فَيْلٌ كَانَ قَدْ أَهْدَاهُ تَيْمُورَلَنْكُ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِي
إِلَى سُلْطَانِ مِصْرَ ، وَتَصَادَفَ أَنْ الْغُلَّانَ الْمُوَكَّلِينَ بِهِ سَارُوا مَعَهُ نَحْوَ بُولَاقِ وَرَجَعُوا بِمَجَازِفِينَ بِهِ عَلَى

(١) البهار : زهر أصفر .

(٢) العاطل الحالى ص ١٠٩

(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩

(٤) النجوم الزاهرة ١١/٨٣

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبة هندية قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت جيرانها^(١)
من كثر مانحت ناخوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بودانها^(٢)
حتى الزرافة جاءت متحسره
تبكي على الفيل اللي مات في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفئات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعد في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حيثئذ بمصر . وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحوال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهي الفن الشعبي العامي الثاني الذي استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، وتجدده في ديوان ابن الفارض الصوفي ، واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري وكان إمام فن المواليا^(٣) لزمه وضروبه المتشعبة ، ومن موالياته :

للحِبِّ قالوا معنَّاك الذي اذْبَلْتُو
جُدُّو بَقْبَلْهُ فَقَبْلُو فيك خَبَلْتُو
فقال أقسم لو أنَّ البوس سَبَلْتُو
ومات ، للشَّرقِ ما دِرْتُو وقَبَلْتُو^(٤)

قد تكون من القبله بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبله بكسر القاف أى ما أداره نحو القبله بعد موته وهو المعنى المراد .

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزانة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أى أدرته . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضا في أيام العثمانيين . وكانت تنوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البليق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ الشمس الحفنى الشافعي الخَلَوِيُّ :

خَطَرَ عَلَى غزالي مَرَّ ما اتكَلَّم فوق جفونه وقلبي والحشا اكَلَّم
إيش كان يضره إذا بالراس لي سلَّم حتى أسرَّ مهجتي لولا السلام سلَّم

والنوع الثاني القرقيا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّة .

قالوا تحب المدمس؟ قلت بالزيت حارٌ والعيش الابيض نجبه قلت والكيشكار
قالوا تحب المطبق؟ قلت بالقنطار قالوا اش تقل في الخضارى قلت عقلى طار

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواعظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفنى أو الحضاوى وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بالله ياقلب دَع عتك الهوى واسلَّم من كلِّ مَيْلٍ ووافى عهدهم أسلَّم
والزَم حمى سادة من أمهم يسلم واسلَّم سبيل التقي يوم اللقا تسلَّم

ويقول صفي الدين الحلبي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالبا يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق (١) . ويحكى ابن تغرى بردى منه منظومة في وقعة قوصون ساق الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النمط (٢) :

من الكركك جانا الناصر وجب معه أسد الغابه

ووقعتك يا أمير قوصون . ما كانت آلا كدأبه

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا ، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذلك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق^(١) . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

إبراهيم^(٢) المعار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الحائك وقيل المعار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيا في الأزجال والبلايق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا في الأزجال والبلايق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القرحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ . ومن قوله فيه قبل موته .

فُبِّحَ الطاعون داءً فُقدتُ فيه الأُحبة
بيعتِ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحبِّه

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبراً على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبَّينِ
وأنتِ يادمعُ إن ظهرتِ بما يُخفيه قلبي سقطتَ من عيني

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوافي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخراتة الأدب ص ٣٨٥ .
وله زجل ماجن في كتاب عقسود اللال للنسراحي

(١) انظر الجبرتي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/١٠ والنبل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجته مداعبا :

لما جَلَوْا عِرْسِي وَعَايِنْتُهَا وَجَدْتُ فِيهَا كَلَّ عَيْبٍ يُقَالُ
فَقُلْتُ لِلدَّلَالِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: مَا أَضْمَنُ إِلَّا الْحَلَالَ

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفرع إلى التورية قائلا :

مَا كَانَ صَفْعٌ بِالرِّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفٍ أُذُنِي
لَوْلَا يَدٌ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنِي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ، وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وَخَادِمٍ يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
وإسمه - وهو العجيب - محسنٌ وكم دموعٍ في الهوى أسأها

وفي كلمة « أسأها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَصْرٌ إِلَّا مَنْزِلٌ مُسْتَحْسَنٌ فَاسْتَوْطَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا
هَذَا وَإِنْ كَتَمْتَ عَلَى سَفِيرٍ بِهِ فَتَيْمَّمُوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فتيمموا صعيدا طيبا) وهو لا يريد معنى الصعيد في الآية وهو وجه الارض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ، ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْحَزَانَ لَمَّا أَنْ رَأَى نَيْلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَبَلًا
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أُخْرِجَتْ سُبُلَاتِ ذَاتِ حَبِّ فَاخْتَبَلُ
وَبَكَى إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عَرِوْقًا وَسَبَلًا

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبيل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولى فراقه يومُ عيدي
فقليل شيعُ بستُ فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُعَنَّ كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَّجَتْ يوماً مع الحَبِّ الرَشِيقَ القَدُّ وقلت آهِي على من قَبَّلَكَ في الحَدِّ
فَسَلَّ سِيفُو من أَجْفَانُو لِقَتْلِي حَدُّ قلت انتهى الأمر يا حَيِّي لهذا الحدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّينِ وَأَصْبَحَتْ مُضْنِي قَلْبِي أَخْشَى حلول الحَيْنِ
وكنت قبلُ خَلِيٍّ لم أشكُ وشكُ البينِ سالمٌ من العشق حتى صابني بالعينِ

ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة الحب لمحبوبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

(١) العُبَّارِي

هو خلف بن محمد العُبَّارِي عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أزجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثذنة

للنواجي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بنية ص ٢١ .

(١) انظر في العُبَّارِي تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمناه ، فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمته في موضوعات كثيرة : في المديح والثناء والأحداث السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبَّ قَلْبِي شَعْبَانَ مَوْفِقَ رَشِيدٍ وَجَالُو أَشْرَقَ وَمَالُو حُدُودَ
 وَأَبُوهُ الْحَسَنُ وَعَمَّهُ الْحُسَيْنُ وَارِثُ الْمَلِكِ مِنْ جُدُودِ الْجُدُودِ
 زَعَقَ السَّعْدَ بَيْنَ يَدَيْكَ شَاوِيشُ فِرْحَ الْقَلْبِ بَعْدَ مَا كَانَ حَزِينِ
 وَنَصَبَ لَكَ كُرْسِيَّ عَلَى الْمَمْلَكَةِ وَظَهَّرَ لَكَ نَصْرَهُ بَفَتْحِ الْمَبِينِ
 وَالْعَصَابِ مِنْ حَوْلِكَ اشْتَلَتْ - خَفَقَتْ فِي الرُّكُوبِ عَلَيْكَ - الْبِنُودِ
 فَاحْكَمْ احْكَمْ فِي مِصْرَ يَا سُلْطَانَ فَجَمِيعَ الْجُنُودِ لِحَسْنِكَ جُنُودِ

والشوايش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤتمرا بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفعت البنود والأعلام كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظما الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمته في وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جَا الْحَبْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَا بَاتُوا فِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ
 جَا دَمْنَهْرَ عَرَبِ نَخْدَا سَوْقَهَا وَأَخْرَبُوا الْبَلَدِ
 وَابْنِ سَلَامٍ أَمِيرِهِمْ هُوَ الَّذِي لِلْجَمِيعِ حَشْدُ
 فَبَرِزَ أَيْتَمَشَ سَرِيعَ بِمَالِيكَ وَجُنْدَ تُوْبِ
 وَعُدَدَ مَا هَلَا عَدَدَ وَيَطْلِبُوا لَهُمْ طَلَبِ
 حَضَرُوا مَا التَّقْوَا أَحَدَ مِنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ حَضَرِ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :

فِي النَّاسِ رَأَيْنَا لِلْخَيْرِ مَعَادِنَ وَالذَّرَّ يَوْجِدُ فِي كَثْرٍ مِثْلُهُ

وَأَنْ رُمَتْ جَوْهَرٌ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِعْلَةٌ
وَأَنْ كَانَ تَرِيدَ صِحَّةَ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرَّرَ
خُدُّ فِرْعَ يَأِيدُكَ مِنْ أَصْلِ حَنْظَلٍ وَازْرَعْ جَذْوَرَهُ فِي أَرْضِ عَنَبَرٍ
وَاسْقِيهِ بَمَاءِ بَانَ وَوَرِدَ مَمْرُوجٍ وَعَقْدَ جُلَّابٍ وَحَلَّ سَكَّرَ (١)
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلَّ فَصْلُهُ
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرُّهُ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفِرْعَ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكتظ بالصور والاختيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياها في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَحْتَقِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَذُمَّ
كَمْ حَى خَامِلٌ تَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمِهِ
وَأَنْ جِيَتْ صَاحِبَتُهُ فِي يَوْمِ بَيَانٍ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفَهُ وَيَنْجَلِي عِلْمَهُ
وَيَشْبَهُ الرُّوضِ حِينَ يَبْدُو شُوكَهُ وَالْوَرْدُ مَسْتَوْرٌ مِنْ تَحْتِ سَيْلَةٍ
وَالْبَحْرُ تَلْقَى الرَّمَمَ تَعَوْمٌ بِهِ وَالدَّرَّ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرَمْلَةٍ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبيين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسُّلُّ في العامية : الشوك . وبمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان .

والجلاب : ماء الورد والزهر .

ابن (١) سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُين إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والمزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجبية والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تحملك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تُلويني	لما بدا زهره في حسن تلوين
قد عطر الأرض نشر الفول حين سرت	نُسِمَةٌ سحرا منه تحييني
كان زهرته أم الخُلول إذا	فلقتها فوق نَعْناعِ بصَحُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح بامية	لولا شعورٌ كأعراف البراذين (٢)
واعجب من الماء وَسَطَ البحر كريف غدا	يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطينِ
مُسَلْسَلًا قد جرى يا صاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الضِّلينِ في حين

نزهة النفوس ومضحك العبوس مطبوع في القرن الماضي وطبع حديثا .
(٢) البراذين : جمع برذون وهو البغل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧ ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمر في الحديث عن الجمال الهاجع في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات النول وإلى زهره الذي يشبه صدفة أم الخلول التي يطعمها المصريون وأضعين على الخلول التناع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا مايتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجباً لا حد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلاً إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجِبُ	عجِبُ	هذا	عجِبُ	بَقَرَا	تَمَشَى	ولها	ذنبُ
ولها	في	بُسْرِيْزَهَا	لَبْنُ	يبدو	للناس	إذا	حلبوا
من	أعجب	ما	في	مصر	يُرَى	الـ	كِرْمُ
					يُرَى	فيه	العِنْبُ
					أَيْضَا	وَيُرَى	فيه
					بَلْحُ	فِي	رُطْبُ
					مَاعِدَ	وَسَقَّتْ	تَسْحَبُ
					مَنْقَارَ	لَا	قَتْبُ
					وَالْوَزَّةُ	لَيْسَ	لَهَا

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البدهية ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقتنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرًا ورطبا ، والملاحون يجرون بجباههم المركب الموسوق ، والناقة لا منقارها وكأنه كان يظنها يجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تعتدى على منطقتنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلغَى فيه المنطق السديد إلغاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك . وصفه لحفل زواجه

وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السُرورُ بهذا العَقْد مبتدرا ونجْمُ طالعه بالسَّعْدِ قد ظهرا

و« الفلُّ » كَلَّلَ وَجَهَ الأَرْضِ فانهطفت
والطيرُ من فَرَحِها في دَوْحِها صدحتُ
تقول في صدحها : دام الهنا أبداً
هذا وعقلُ عروسى كان أصغر من
في السنِّ قد طَعَنَتْ ماضراً لو طُعِنَتْ
في وجهها نَمَشُ في أذنها طَرَشُ
ياحسَنَ قامتها العَوجا إذا خطرتُ
تظلُّ تهتف بي : حَسَنًا حَظِيَّتَ بها

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافه على عروسه ،
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطيير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجزوز شمطاء صمءاء في وجهها نَمَشُ وفي عينيها
عمش وقد حَتَّى قامتها الهرمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها ،
ويتمنى لوطُعنت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب .

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمي أرى الأحزان تحنيني
وطالما دلعتني حال تربيته
أقول : « مَمَّ مَمَّ » تجي بالأكل تُطعمني
إن صحتُ في ليلةٍ « وأوأ » لأُسهرها
كم كحَلَّتني ولي في جِبْهتي جعلتُ
ومن فقيني إن أهرُبُ ورام أبي
وزَعْرَدَتْ في طهوري فرحةً وغدتُ
وخَلَفَتني يتما ابنُ أربعةٍ
فظالما لَحَسْتني لَحَسَ تحنيني
خوفا على خاطري كي لا تبكينني
أقول : « أمبو » تجي بالماء تَسْقِيني
تقول « هُوهُو » بهز كي تُنَبِّئني
« صوصو بنيلي » وكم كانت تحببني
مَسَكِي وبعني له كانت تحببني
تشرُّ الملح من فوق وتُرَقِّبني
وأربعين سِنينًا في حَسَابيني

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف في
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعَة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأتما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرُها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكى على صدرها وهي تهزه في حنان ، كما يذكّرُها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّى من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحبّه حين يهرب من الكتاب . ويذكّرُها بيوم ختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثرفوقه الملح بركة ، وترقيه من شركل مايؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونتبادى معه في الضحك . وقد جاء في المراثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمُتّهى علقى ابتداء
بقيتُ أقول : نُؤو تُؤو تاتّه ودحو كخ وأمبو ممّ آء

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جعّبة هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلأهته ، ونشعر كأتما الأشياء من حولنا تهوى من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونسُرسل في الضحك .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديواني الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يحملهم الولاية معهم من العراق ^(١) ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتناقله الألسنة ^(٢) » . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاية لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي ^(٣) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خماروية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يتدبى بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسجع ، وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » (طبع)

(٢) صح الأعشى ٩٥/١

دار المعارف) ص ٣٤٥ وما بعدها .

(٣) صح الأعشى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

الازدواج من حين إلى آخر، وسجعه خفيف. ويمده بغير قليل من التصاور^(١)، وتوقف القلقشندی في كتابه صبح الأعشى ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبة الكتب^(٢). وكان أهل بغداد في زمنه يغبطون عليه مصر، ويقولون إن بها كاتباً - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله^(٣). وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجري^(٤).

ونخصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه، غير أن أحداً منهم لم يشتهر بشهرة ابن عبد كان، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيري، واشتهر برسالة طويلة له، ردّها على رومانوس حاكم بيزنطة، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتب إلا خليفة، فكال له النجيري الصاع صاعين، ولاعجابه برسالته كتب منها نسخاً وأرسلها إلى العراق مفاخرها بها مباهايا^(٥).

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجري ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصي المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطتهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي ونظموا الدعوة لها تنظيمًا دقيقاً، فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماماً واسعاً بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية، وفي ذلك يقول القلقشندی: «لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتبه، فارتفع بهم قدره، وشاع في الآفاق ذكره، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي^(٦)». وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندی - إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويخاطب بالأجلِّ ويلقب بكتاب الدُّست، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في المصدر من مناصب الدولة «وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات.. وله حاجب من الأمراء والشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والحادث والمسند والدواة العظيمة

(١) الفن ومناهبه في النثر العربي ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها.

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) صبح الأعشى ٩٦/١.

(٥) معجم الأدباء ٨٥/٦.

(٥) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد: القسم الخامس

بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها.

الشان ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة» (١) . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن برى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية (٢) . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث (٣) للقاضي الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل للديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاها لصالح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العماد الأصبهاني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدست وكاتب الدرّج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا في عهد المالك ، مما جعل الظاهر يبصر يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر (٤) . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة - لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المالك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرا بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه (٥) سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه (٦) سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى (٧) ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرا ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومررنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمضمر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسومون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٣٤/٧ وما

(٢) انظر كتابنا «المدارس النحوية» طبع دار المعارف

بعدها

ص ٣٣٨

(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للمقرئى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً^(١) : وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءاً من شعره ورسائله ليعرضها على الأديب هناك ، فإن استحسنتوها خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائى - فيما يبدو - برسائله^(٢) . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »^(٣) . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ^(٤) ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ^(٥) ولا يَكِفُّ ، ووزنك فى سدِّ ثَمِّ الفساد يَرِجِح ولا ينجِفُّ . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يَكِفُّ ويَكِفُّ وقد طابق بين يرجح ويحف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجرى ابن أبى الشخباة ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، وما زال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمن ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباة من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية^(٦) . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله^(٧) ، وعلى يديه تخرَّج القاضى الفاضل

(١) المغرب فى حلل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأديب ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يحف : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكف : يسيل .

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشنرات الذهب

٢١٩/٤ .

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة . وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهاني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن ممتق وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألّف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشؤونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن ممتق ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيّة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكان كاتباً في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) . وبلقانا إبراهيم^(١) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيك وقطر وبيبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كاتباً في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، ووظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح^(٢) الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيّطه شافع^(٣) بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكوجواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حرم على عساكره الغارات على البلاد^(٤) .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

الزاهرة ٥٠/٨

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم

(٤) صبح الأعشى ٢٣٧/٧

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشلرات الذهب

ويلمع في رئاسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمري . وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رئاسة الديوان عبد^(١) الوهاب بن فضل الله العمري ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثاني من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه^(٢) محيي الدين يحيى ، وكان يشركه في كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلهما الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادهما فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه^(٣) علاء الدين ، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين^(٤) إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكنس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع في أوائل عهد المالك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رئاسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنه كتابه .

ابن^(٥) الصيرفي

هو علي بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذه الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل في ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

الحاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقرئى
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة - طبع دار
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩
(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٤٦/٢
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢
(٥) انظر في ابن الصيرفي وترجمته ورسائله معجم الأدباء
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر في مواضع مختلفة وحسن

الزيدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجبالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رعوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجبالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهتئا فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلّح بن زريك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاة هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبليغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله ويتزج منزعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أربع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استهلّه بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آلّه الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمهم بالمرتلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جلة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخفى الذى

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجعة فيه ثم يقول :

«وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد لى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعال ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى لى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فىهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى ^(١) الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إثارة العدل ، وإنى - فى استرعيته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه .»

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آباءه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لى وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام منتقلاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أو لعل القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابغة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

أشرنا إليها وردّها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « مُلَحِّحُ الْمَلْحِ »^(١) وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لى قرحا ، وإذا كانت عازر فكن مسيحا . والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بليته النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاهى في الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ في هذا العيد من اللهو وشرب الخمر في أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لى جريحا ، يطلب منه أن يبث في دنائه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجبالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّبُ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَضده بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده^(٢) ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونقبت^(٣) فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت^(٤) بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على مآظهم سُمُوقة^(٥) فى البلاغة وسُمُوقة ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكننا السيد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(٤) نفق : راج .

(٥) سُمُوقة وسُمُوقة : ارتفاعه

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .

« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بَبْرِقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه ^(١) من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظْهر كامن قُوته ، ويُعْمَل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه ^(٢) العالی به ، مما يُطْرَب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة في لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كرازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نَقَبَتْ في البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : (فَنَقَّبُوا في البلاد هل من محيص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح في رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد نُقْرًا له في السيف على هذا النحو : « يبالغ في شكره إذا أقصد ^(٣) وجرح ، وتقبل في تركيته شهادة الجرح » . وفي كلمتي التزكية والمجرح توريتان واضحتان فالتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى عدَّهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة الجرح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو الجرح بالسيف في الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل في هاتين التوريتين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية في نثره أحيانا ومررنا أن شعراء القرن الخامس وفي مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبهم في ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها ^(٤) فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، ويهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول في نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغي أن يتحلى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) في المغرب : أفسد ، وأقصد السهم : أصاب

(١) في المغرب : يصنفه .

(٤) خزنة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(٢) في المغرب : محله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

القاضي^(١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلا ، العسقلاني مولدا ، اليَسَّاني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء ييسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سئى بعد قليل . وكان طبيعيا أن يُعنى أبوه بتربيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتَّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيرا من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتَّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظنا ان سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من ييسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلا وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمَّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لها الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُنِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سألَه في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أُنَى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فمكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسيبكي ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والحريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الكتب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوى ديوانه ومختارات محي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحسَّ أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورحَّب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظلَّ عنده ثمانى سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد. آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائز بن الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبثُ شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ ، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويُقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمشورات عن العاضد بين يدي الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاية بتقلد أعماهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضاً العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكتب له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيراً ، قلما يبرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى اثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقعه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، ويكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصبهاني فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللّسن واللسان ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النقّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديهة المطرزة ، والأفضل الذى ماسمع فى الأوائل بمن لوعاش فى زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبدكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النویری : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذور الفضائل واغرقت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان للاحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجية ^(١) ، وشيمة ، وسيمة ^(٢) ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونحائر ^(٣) ، لم يجز مثلها حائر ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن ^(٤) ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ^(٥) ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال ^(٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كإثم ^(٧) نورها تتفتح .. وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفح ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبي ^(٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود ^(٩) الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت وتبأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(٦) جلال : عظام .

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٧) كإثم : جمع كميمة وهي غطاء النور والزهرة .

(٢) وسيمة : جميلة

(٨) حبي : جمع حبة ، وهي الثوب يدبره الجالس

(٣) نحائر جمع نحيزة : طبيعة .

حول ساقه وظهره للاستناد عليه

(٤) آسن : متغير الطعم .

(٩) أود : اعوجاج .

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتى قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا يجمع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والثورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فماء المحاسن غير آسن والجدّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجعه فىأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فىأتى بسجعتين تداخلهما فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأتم نور المساعى وزهرها تفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعدوية .

ولعل فيما قدمنا مايصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسنها البيانى كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيم لياليه أدهم^(١) ، وقلدتم بيض أيامه صوارم^(٢) ، وأفنيتم شموسه وأقاره فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم^(٣) فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلى بالاستعارات والتشبيهاث الرائعة ، مع مايجف بها من الجناسات والطباقات ، ومع ماصيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلد الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(١) أدهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

«وهذه القلعة عُقاب في عُقاب^(١) ، ونجم في سحب ، وهامة لها الغامة عامة ، وأتملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة» .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرها ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُدَّتْ من الظَّفَرِ

غير أن القاضى أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأتملة إذا خضبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأتملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبيشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حطين وفتح العظيم لبيت المقدس .

وللقاضى الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وستقف عندها قليلا في غير هذا الموضع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحيا له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محيى الدين^(٢) بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصرى من بيت علم وفقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لِداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر . وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المالك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر القهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ و ٣٦٦/٨ و ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرها جمع عقبة وهي الرق الصعب في الجبال .

(٢) انظر في محيى الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطى ٤٧٠/١ و ٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدسّت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلي نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن الممالك ، وكان ابنه فتح الدين على غرارته مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديداً .

وقد أشاد بمجى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان مجى الدين أجمل كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدول ، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الرائق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاكر في كتابه الفوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمّنّها ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاویر والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حلّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبنى سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصري في جبال شامخة مدّلا فيها طريقه لايعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدوّنة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سناكب الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخنازل في الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائرين من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة (١) ، نسبق وَفْدَ الرِّيحِ من حيث ننتحى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن (٢) تمحى ، تحمل همتنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهَذَا الهَامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغَامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة المسوع ، وتسمى العين بها هجمة هجوع ، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفى الرفيق عن رفيقه ، وتشتغله عن اقتفاء طريقه ، يتبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حوطا مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أو جبالٌ تَفْطَرَتْ (٣) ، بينها مخاض لا بل مغائص ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعمت بالثلوج ، وعُميت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعدوية مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعراف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذى ما قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر يتنسم من مهاب تأميله الفلاح ، ويتبسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جلا بيهى جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روائه ويمن

(٣) تفتت : تشفتت .

(١) الثغبة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

آرائه يهيم ، وكم أبراً مورده العذب هيم^(١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روي واحد ، قد يكون الفاء أو
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفاً آخر كالدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتب هذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،
وهو لا يريد وإنما يريد بالكلمة أنه أبرأها أي عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى
صاحب اليمن مبشراً بفتح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أمواهم وهم صابرون
لا مصابرون ، وكم شكت منه حمة تنبئ بشكواها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة وما من
معرة خاف ، وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون
والصياصي^(٢) ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي » .
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : (حق
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآي الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما
يكثر حل الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرة الثانية من
العار مقدماً لها بذكر حمة والمعرة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع
العاصي » وهو إنما يريد نهر حمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه
يستمد من نبع فياض لا يغيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعنان ،
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود
لا تستبعد مفازة ، وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بخيولهم من جبال
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارض لامرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك
الجنادل الخطاط الأجادل^(٣) ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال^(٤) ، ولم يحفل أحد

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطاشاً شديداً .

(٣) الأجادل : الصقور .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو نيس الجبل .

(٢) الصياصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولا جبل شاهق ، فقال : هذا منخفض أو عال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثُر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأياتي بها إلا في الحين-بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخّم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمَ اللهُ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً ، وَمِنَحَهُ وَإِنْ غَدَتْ بِالْبَرْكَاتِ مُتَرَدِّدَةً ، وَمِثَّتْهُ وَإِنْ أَصْبَحَتْ إِلَى الْقُلُوبِ مُتَوَدِّدَةً ، فَإِنْ أَشْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا وَأَفْضَلَهَا ، وَأَجْرَلَهَا وَأَنْهَلَهَا ، وَأَنْمَلَهَا وَأَعْمَلَهَا ، وَأَضْمَلَهَا وَأَلْمَلَهَا ، نِعْمَةً أَجْزَأَتِ الْمَنَّْ وَالْمَنْحَ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرَكِ سَفْحِ الْمَقْطَمِ أَغْزَرَ سَفْحَ ، وَأَنْتَ بِمَا يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ ، وَيَعْجِزُ الْبَرْقَ اللَّمَّاعَ ، وَيُعِيلُ ^(١) الْقِطَاعَ ، وَيُعِيلُ ^(٢) الْأَقْطَاعَ ، وَيَأْتِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حَمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزُضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ ^(٣) ، إِذَا هُوَ فِي الْإِجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْجَارِي ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارِي ^(٤) . »

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قوهم سفح الماء إذا صبّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخاطب الليل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس تعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملاً مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح غبابه ويتأدى طوفانه ، فيبينا يدخل سُدَّةَ باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات :-

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(١) يعيل القطاع : يروى قطاع الأرض مرارا .

(٤) السواري : يريد الأعلى .

(٢) يغل الأقطاع : يحمل الضياع تعطي الغلّة والطار

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبيننا يكون في أسافل الأرض ومحاربيها إذا هو في السواري وأعلى الأعلى .

ولم يكن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلمت بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهي أحد مصادر المقرئ في خطه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئ وكذلك القلقشندى في صبح الأعشى . ولعل فيما قدمنا من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغية .

ابن^(١) فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ووليت أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى ، وقد ولد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علماءها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفرکاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقليات ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهبة وابن الزملىكانى ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والشذرات ١٦٠/٦ والوفى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئ ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتباً بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مستندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حادّ الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغيّر عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في الحرم سنة ٧٤١ وظل يبلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوّه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهّب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبّب ، ويتدفق بجره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتشدّى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروى القاضى الفاضل أن يدايه تشبيها . . . صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمّنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضا إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والناشير . والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافي . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضا الحيوان الأليف والوحشي والطيور ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالا قويا . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذة الكتاب إماما لهم وجعلوه نصب أعينهم في كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثلته ، واعتمد عليه القلقشندى في بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله في تقليد وزير ووصيته بما ينبغي عليه في وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر باب ، ويسهل حجاب ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدا الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر الماسي والمصايح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذي نحن أمانؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء آناؤه ، فلا يدع شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسّمح في تخلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئا إلا بحقه . »

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف في كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بجز يتدقق ، وفي تضاعيف تدققه ينثر جواهر المحسنات ، وهي تواتيه طبيعة ، تارة يطابق وتارة يجانس في يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف في كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفاً سالَ المَنُون من لُعا به ، وسار الموت في إهابه (١) ، وتناوم غِرَارُهُ (٢) ملء جفنيه فها هجع ، وتناوب (٣) للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرث دموعه دماء ، وتحرق على من سلم فتوقدت ضلوعه ناراً وترقرقت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنهما غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعدووته . وله في وصف قدح أوكاس : « تَكُونُ من جوهر مكنون ، وتجسّد من هواء مظنون ، وأتخذ خِذْرًا لابنة العنب (٤) ، وطاف به الساقى فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قَهَقَهُ عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقيل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بدیعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذى وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر ، ومنها صُباية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك في العالم الإسلامى وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربى بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٤) الخدر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار السيف : حده .

الرسائل الشخصية

تزوج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدياء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهنئة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتخيير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تديجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخياء العسقلاني الكاتب الديواني لزمين الخليفة المستنصر ، وسنخسه بحديث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن^(١) بن زيد الأنصاري الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعراً ، وهو علي بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفي في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخياء ، وقتلها بدر الجمالي وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنا كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنا أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام » ويقول العماد الأصهباني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدِمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، ونخلصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإينار ، والمتحابَّان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسو ، ومتشاركين فيما نفع وضر ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء

مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

ومعجم السلفي ص ٤٤٨ .

كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرقت بين شخصين ، فأما ألها فقد مضى وأزعجنى ، وأما برؤها فقد سرّها وأبهجنى .

ومهارته فى صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعاقد وتعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة فى السجعة الثانية تعانق أختها فى السجعة الأولى فى عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له فى تعزية :

« الخَطْبُ الحادِث ، فادحٌ كَارِثٌ ^(١) ، كادت له القلوب أن تتبرأ من أضالعهما ، والعيون أن تتعوّض بدمائها من مدامعها ، والضحى أن يدّرع ^(٢) جلباب الدُّجْنَة ، والحوامل أن تُجهضَ بما فى بطونها من الأجنّة . وإن المنية حوّض كل الناس وارده ، ومنهل كل الخليفة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر . . ولا فقير خامل الذكر .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع فى الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ . ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه ^(٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالته التى يبيح قشبيها ^(٤) ، ويضوع ^(٥) طيبها ، ولا يتزف قلبها ^(٦) ، فخلت أنى أختال أىّ اختيال فى حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرضاب ^(٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدّ والاجتباب :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَنْ لَمْ أَقْزُ بِهِ
وَعَيْشًا كَأَنْى كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثَبًا

ثم نزهت ناظرى ، وجلوت خاطرى ، بيداع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أنى أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كى أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجنى مثل تلك

(٥) بضوع : يفوح

(٦) قلبها : مبيتها

(٧) الرضاب : الريق

(١) كارث : عزن .

(٢) يدرع : بلبس . الدجنة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة فى ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظافر يعنى في رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقبينا القاضى الفاضل أهم كتّابهم يدبج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محبى الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التى سماها « الدرّ النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شردَّ بردُّها ، ووردَّ وردُّها ، واخضرَّ نباتها ، وحسَّنَ نعتها ، وصفا ماؤها ، ووضفاً ^(١) رداؤها ، وتغنت أطيَّارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافتتر ^(٢) زهر أبقوانها فحكى ثغور غزلانها ، ومالت قُضْبُ بانها ، فانشئت ثننى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فسحُ ميادينها ، وتوسطت جنة واديتها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرد ، وهزاراً ^(٣) ينشد ويردد ، وقمرياً ^(٤) ينوح ، وبلبلا بأشجانه بيوح . »

وأسلوب القاضى الفاضل واضح في هذه القطعة لأبسجاعه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضاً بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيفة وما عرف به من العناية بمراعاة النظرير . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول و عقود العقول » ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندى في الجزء الأول من صحيحه ^(٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتّاب الديوان حينئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن ممانى ، وسنترجم له عما قليل .

(٤) القمري : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(١) ضفا : سبغ .

(٥) صحيح الأعشى ١/٢٧٦ .

(٢) افتتر : تفتح .

(٣) الهزار : العندليب .

ونمضى في زمن المالك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردّ على عائبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة ^(١) ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنّفه تعنيفا شديدا ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضٌّ منى .. وزعم أن إناء إبانى غير مُفعم ^(٢) ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة ^(٣) ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُتلقح بأقلامى ، وأنى لا أعدّ في جملة الكتّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم في باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى ^(٤) به إليه مجابوا : ما كل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولا كل المراعى تُنصبُ بها الحبالل ، ولا كل زخّار ^(٥) يُخاضُ ، ولا كل جناح يُهاض ، ولا كل جامع يُراض ، ولا كل سابعة تُفاض ^(٦) .. ولا يضرُّ الزناد الواهى ^(٧) اقدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نبجُ النابح . »

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح في عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر في الرسائل الشخصية حينئذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرّظ ابن نباتة . ومرّ في ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرظوا كتابه « مجمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه ^(٨) :

(٥) زخار : النهر الزنخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابعة ضافية

(٧) الوارى : المتقد .

(٨) خزانة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

(١) انظرها في نهاية « تمام المتون في شرح رسالة ابن

زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملىء

(٣) قريحة : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

« لاغرو أن فضح بديع^(١) الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمشور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا ، وأعلى هممه التي لا ترصى الشهب جياذاً والأهله سُروجا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية^(٢) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العاد) وراقت محاسنه التي (لم يُخلقُ مثلها في البلاد) .. وطالما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام^(٣) ابن سُكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباقي فوجدها مسكُره^(٤) ، وعلم المنتبى أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمترسل الذي نهض عنه بأعباء كل رساله . »

والتقريظ زاخر بالافتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العاد . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذاً من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم تركيب فعل ربك بعاد إرم ذات العمام) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وراعى النظرير مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباقي يريد شعر ابن نباتة الحلوى . وحين ذكر المنتبى أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المنتبى تاريخياً غير أن القيراطى رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه من مراعاة النظرير والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضاً للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة^(٥) طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكناس يدعو له مجلس أنس وشراب ، واصفاً له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول : « هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مَصُونَة ، كالدرة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغنى عن الزمير ، بلقيسية الجمال لها (صرْحُ مُرْد من قواريير) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلتفت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتقت يغلو ،

(٤) مسكرة : مغلقة .

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٥) مطالع البدر للغزولى ١٥٢/١ والأدب في العصر

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد (انظر ترجمته) .

الملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمنتبى .

ووردها كلما مرَّ يجلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرف » في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية العصر .. لانتزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تلخع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان .

وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقتراس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنِّ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمّرت بلفيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير) أي من زجاج شفاف لا يجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التي دعا ابن مكناس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذاً للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلاً وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنبها وكرمها . وفي السجعتين التاليتين بأخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد بلفظة « راحتها » كقها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذي يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حينئذ من رسالة محمد بن أبي الحسن البكري الذي مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور المُسَيَّلِي ليتسلى بمجلسه في منزله نُصْرِي لنتقي في شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول (١) :

« سيدنا البرّ الذي يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورد والصدْرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهراً لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سيف (٢) زخّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدنية بولاق هي مجتمع البحور ، ومدار فُلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لا جُزَرَ عن الجزر مدّه المديد ، واستلّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ في السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلوني من كتاب القرن الحادي

(٢) سيف : شاطئ .

عشر المهجري وشعرائه رسالة^(١) هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رث ، وحديثه غث ، ياكثر النباح ، ياخائباً في الغدو والرواح ، ياتارك السنة والقرص ، يامن سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع القى والملاهي .. ياكثر الشكوى ، يا أثقل من رضوى^(٢) ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصبيان ، ومن كراً^(٣) الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحب مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، ولما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

ابن أبي الشخياء^(٤)

وقيل ابن الشخياء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلاني ، ولا نعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكراً بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لا نمضي إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالي وزير المستنصر هو الذي أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن علي كما مر بنا آنفاً في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبي الشخياء شاعراً بارعاً كما كان كاتباً بارعاً ، ولذلك لُقّب بالمجيد ذي الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « المجيد مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمد ، وبها اعتد .. كتب في ديوان

(١) نغمة الربحانة للمحبي (تحقيق عبد الفتاح الحلوطية

الجلبي) ٦٠٥/٤

(٤) انظر في ابن أبي الشخياء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والنخبة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثاني) ص ٦٢٧ وابن خلكان

(٢) رضوى : جبل بالمدنية

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرآء زمانه « ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحيرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطُولَى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام في الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطف : « المودآت إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المرمضة ^(١) ، ولم تنزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها ألسن مختلفة ، وعلمتها برود من اللفظ مفوَّقة ^(٢) ، ولما زأيت زيارة مولاي قد صارت مرقعة ، وجنوب ^(٣) مودته قد عادت مروعة ، وصرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عاهدته :

تُبَيِّى طَلاَقَةٌ وَجَهٍ عَن وَجَهٍ فَتَكَادُ تَلْقَى التُّجَحَّ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءَ وَجْهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرٌ صَادَى الْجَوَانِحِ ^(٤) لَارْتَوَى مِنْ مَائِهِ

لم أنجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتباب بؤده ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دفائنه ، ويخبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يُسمَّه - نقل إليه عني فشنَّ الغارة على وفائه ، وزلزل أواخى ^(٥) وده وإخائه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكاية ولا نكايه ^(٦) ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لا إسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ^(٧) ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَفْتُ ^(٨) ، وتألفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصوفة ^(٩) جديدة ، فحسن بتلك الشبائل ، أن تجمع شمل الفضائل .

والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(٦) نكايه : غلبة وقهر .

(٧) الماحل : الساعي بالنيمة .

(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .

(٩) محصوفة : عككة متينة .

(١) المرمضة : الموجعة .

(٢) البرود المفوفة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٣) الجنوب : ريح لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .

(٤) صادى الجوانح : عطشان .

(٥) أواخى : أواصر .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلتها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يحفظ كلامه ويستحضره فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرته لى بالأمس قد قطَّب (١) حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحنى ، أم غضب (٢) به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه ، والفيطن صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفّع به ، والخور العين (٣) تشكوا لعج حبه ، وثمار الجنة تدلّت إلى يده ، ونار جهنم تُقتبس من زنده ، والكوثر يمدّ من معينه ، والسموات مطوياتٌ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمع بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكباراً ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا أمراً ناهياً ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله يجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفّع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكوا بتأريخ حبه ، وأن ثمار الجنة مدّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السموات مطوياتٌ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطوياتٌ يمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجاً له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شععاراً لهم وسُنناً فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلاً قد استعار من قلب العاشق حراً ورهجا (٤) ومن أخلاق مالكة ضيقاً وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقط على جدرانه بالقار ، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتها .

(٤) رهجا : غاراً

(١) قطب : عيس وضم حاجبيه

(٢) غضب به : ضم إليه .

الخِوان^(١) ، فرأيت أرغفة قد أحكت في الصغر والإطاف ، ولم تتعوذ^(٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، واسعة الأكتاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة كل منها ما لا يدفع السَّعْب^(٣) ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقنا ولم تقارب الكفاف ، وقد ظنَّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورسائته والقدرة البارعة على الملاءمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو يحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن مَمَّانِي^(٤)

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَمَّانِي ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّانِي جوهريا واشتهر بأنه كان يصيغ البُلُورَ صبغة البياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه في سوق الصاغة تشوفت نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسَلِّمُ هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما ييده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

لللفظي ٢٣١/١ وخطط المقرئزي ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة
١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات
الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية
للنسكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقبله
في المغرب .

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام
(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها
(٣) السعْب : الجوع الشديد
(٤) انظر في ابن ممانِي وترجمته ورسائله الخريدة (قسم
مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم
القاهرة) ص ٢٦٩ . وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباء الرواة

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن ممتقى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديوان الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفي بن شكر أخذ الجويكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستتر فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوماً وظل يسبغ عليه عطاياها حتى توفي هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن ممتقى مصنفات كثيرة عدّ له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذي نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئ في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن ممتقى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربها ومتحصلها من عين (نقد) وعغلة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطي في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضوع . وكان له ديوان شعري سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد في المغرب .

وكان ابن ممتقى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أجد الكتاب في الديوان الفاضلي ، ذو الفضل الجليل ، والشعر العلي ، والنظم السيوي ، والخط القوي ، والسحر

المانوى^(١) ، والروى^(٢) الروى^(٣) ، والقافية القافية^(٤) أثر الحسن ، والقريحة المقترحة صورة اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدّد^(٥) البراعة ، والفظنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد أن أشدّ العماد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نور^(٦) نثره البديع ، ونور فجره الصّديق^(٧) وغرر درره التّصيّعة^(٨) ودرر غرره الصّنيعة^(٩) ، ما تحذى^(١٠) له بهائم التمام . وتحدّى^(١١) به كرائم المكارم ، ويرتّع الحسن في روضه ، وتكرج الحساء من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه^(١٢) ، وترتبط الألباب بيباه . »

ومن طريف مادونه له العماد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق^(١٣) فراق الشمس اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تمّ في المغارب على الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النّار ، كدراهم النّار^(١٤) وتشابهت زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف^(١٥) ، ومرّت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعيل صبر التّسرّين^(١٦) فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفوا الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأفاح^(١٧) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزاة من أس الكيناس^(١٨) طلقة الحيا . »

- (١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي قبل الإسلام
(٢) الروى الأولى : الحرف الذي ثبني عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أي شافي الغلة .
(٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشيء أي تبعه .
(٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر
(٦) الصديق : المنشق نورا (٧) التصيعة . الناصعة
(٨) الصنيعة : البديعة .
(٩) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٠) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١١) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٢) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٣) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٤) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٥) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٦) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٧) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد
(١٨) تحدى : تقطع . بهائم : مبهات . التمام : التعاويد

ويدل هذا الفصل على أن العباد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممتق الكتابية ، وهي براعة تكاد تبدو في كل سجة من سجات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فرقا وفزعا لهول الفراق . وتواري ذهب الأصيل وراء نار الشفق اللتاع ، وليست المشارق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثار ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغيب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقدا صبرها فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم نغر الصباح عن أضواء كالأفاح . وظلما شبه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالمنقود . ويستغل ذلك ابن ممتق ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممتق الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزنا على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممتق مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجاته من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفات سوام تتصرم^(١) ، وعبرات هوام تتصرم^(٢) ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيا فيتدمم^(٣) ، بالصمت عن أن يتحرز ويتحرم^(٤) ، وأفكار تنزّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلدّه ، فجلده بالقلق لما تجاوز حدّه وحدّه^(٥) ، وأجرى من سوابق دموعه عسكريا أجرى فشق

(٤) ينحرم : يجده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لاتبرح . تتصرم : تشغل

(٢) هوام : سائلة . تتصرم : تتقطع

(٣) يتدمم : يتوسل

خَدَّهُ وَخَدَّهُ (١) .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوِّدةً، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعَدَّهُ ، وإخلافه وُدَّهُ (٢) وَدَّهُ (٣) ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كافَّة أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلم المودة قد رُفِع ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِع ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملائدُ ملاذًا (٤) . وتناوله بيد الإجلال ، وفضَّه بيد الإدلال ، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرصعة لما لاح مداده مُداماً ونقطة حَبِيًّا . وألغى تبيح للخواطر طرباً ، وتعريضاتٍ لو كان التصريح فضة لكنت ذهباً ، ومنى ملاحت سحائبها حتى وَكَفَّتْ (٥) وأباید ما استكفت فواصلها حتى عَمَّتْ وَكَفَّتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تتصرَّم والعبرات تتصرَّم بينما يتدم بالصمت ويتحرم . ولاتلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حدَّهُ ومنتهاه ، ويحدُّه كما يحدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموعه فتشق خده وتحدُّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتخلق وتبلى مودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت وُدَّهُ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجناس التام بين « الملائدُ وملاذًا » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواصل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظير والطباق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف ما أثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عمَّ البِقاع (٦) ، وطبَّق (٧) ، والبِقاع ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُتلف بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوبٌ إلاياه . »

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت في آخر الفصل من

الكفاية

(٦) البقاع هنا : مرتفعات وادى النيل

(٧) طبَّق : عمَّ

(١) خده : شقَّه وأثر فيه

(٢) إخلاق الشئى : جعله باليا

(٣) وده : زاره

(٤) ملاذًا : ملجأ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . شعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين ^(١) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غراره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلهت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السُّرِّيَّاق منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلَّقتُ بالسُّرِّيَّاقِ منكسا
لكنني مذ نفثتُ السُّحرَ من أدبي
لِجَرمِ أوجبتُ تعذيبَ ناسوقِ ^(٢)
عُلَّقتُ تعليقَ هاروتِ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم بعينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليل الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضوع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(٢) جرمة : لجرم أى الذنب . ناسوق : جسدى .

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحا بليغا .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرفقة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس « وكان كثير التورية فيه على نحو مايتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عاليا وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلا :

« ربَّنَا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلامٌ على نوح في العالمين . ما تأخيرُ مولانا بحرُ العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الحجر بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ماحقق أنه المعنى بقول القائل : حدَّث عن البحر ولا حرج .. وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسئل ابن أبي الرِّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلاَ الياب (١) ، وهال العباب ، كال فطفف ، وزار فما خفف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح (٢) ، وغداَ التيار ينساب في كل يم كالأيام (٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنماهي قطع الغيم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرج مائي ، وتغيَّرت الألوان فكل مافي الأرض سمائي .. وتحالى إلى أن أقرف (٤) الليمون الأخضر ، واحمرت (٥) عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرًا (٦) ويزيد .. ولكم قال الهرم للسارين ، ياسارية الجليل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفي من الليل ، وكم قال أبو الهول : لا هول إلا هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء (٧) النهر .. ولو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار ، ليكى بعينى عروءة (٨) ، وأوى من الرِّصد إلى رُبوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلا ترجعنى ،

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(١) الياب : القفر والحزاب .

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرق

(٢) يريد السفن

(٨) عروءة هو عروءة بن حزام العاشق المشهور في صدر

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

الإسلام

(٤) أقرف هنا : عطَّر ، من القرقة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كناية عن الحمرة في طمى النيل

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماءُ أقملى ^(١)) .. ولقد طار النَّسرُ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر
البحر من السُّكاري بالشخاتيت ^(٢) إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجسُ البساتين وقد
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصنُ البان وقد قيل له
طوبى لمن عانقك ولا باس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهي رسالة بديعة في وصف فيضان النيل
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى في شواطئ النيل حتى كادت أن تتمزج بالبحر في السماء
كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للابل يلتقي بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانها وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطرَّ الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّؤام . ويستمر ابن مكناس في هذه الاستعارات ،
فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب في الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر
الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو
يحارب في الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانها فقال متمثلاً بشطر من
الشعر : أنا الغريق فما خوفي من البلبل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان في أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .
والمعشوق بستان ورباط عظيم كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان في
القرآن الكريم : (ياسماءُ أقملى) . وتلقانا في الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منشورة . وما أسرع
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وايضت عيناه من الحزن فهو
كظيم) . وورى في كلمة آس فهي تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطيب
الداوى . والاستعارات بديعة هي وما تتحلَّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس
وظباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص فيروانى ضرير إلى أبي بكر بن العجمي أحد الكتاب النابهين في ديوان الإنشاء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

(١) أقملى : أمسكى عن الماء

بأن صديقه ابن مكناس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك .
وتأذى ابن مكناس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغني - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب
الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجّة زين الدنيا والدين ، قرّة عين الكرام الكاتبين ؛
لازال زينة يَحَلِّي به العاطل ، وَيُظَلِّ تحت جناح أدبه القائل^(١) - من غيبة ذلك الضرير ،
مالاخشي الله فيه بظهور الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من
الرَّيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ،^(٢) ولا بد من نهلة اعتذار على
سبيل التعلل .. ولو اختلف الأديب على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس^(٣) ، لقال
لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمسئول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه
يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالی فإبنا بكر
أول من تصلّب^(٤) في الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمّية كهذه
فأصمى^(٥) ، وتردّد إليه مرة أخرى فدعبس وتولّى أن جاءه الأعمى) .. »

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل »
تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظَلُّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما
يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائذين وملاذ المعوذتين المحتاجين .
واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق متلطفاً بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولاً
على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن
مكناس إلى التورية بأبي بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لا يفتح باب اللواشى مقتدياً في
ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر
الحكيم آية تصور ما ينبغي على ابن العجمي من لقاء اللواشى لقاء متجهماً على نحو ما تصور ذلك
الآية : (عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل في كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكناس
وعذوبة سجعه وما يشيع فيه من سلاسة .

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهي وسط النهار

(٢) التنصل : التبرء

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

(٤) تصلب : تشدد

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتمل أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوَّاب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذاة الأدبية مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشرين سنوات مقامة (١) ، صوّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرَّ إليه غلام أن ليس عندهم للإفلاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلَّ جَنَانِي وَبَنَانِي وَلِسَانِي وَإِنْسَانِي (٢) ، من الدَّأبِ فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

خطُّ أرقمه ^(١) ، فتاقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع . فقلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : ويحك عَجَلُ بفتح الباب ، وأذُن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد ^(٢) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنّف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكلمة لكتاب اليتيمة للثعالى وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهاني عنه : « أوجد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويًا لغويًا عروضيًا مؤرخًا منطقيًا . مهندسًا ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفناً » . ومن كتبه كتاب منية الأملى وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصور معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصيبة ^(٣) ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يذير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حوارُه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزيى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أمواهم ، وهم لا يقدرّون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصّر سرياله ^(٤) ، وقصّ سياله ^(٥) ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضًا للاستفادة فى معرض

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية

ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

(٤) سرياله : ثوبه (٥) سياله : شاربه

(١) أرقمه : أكتبه

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر)

٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحطام ^(١) ، ويجلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تتناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على السنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة ^(٢) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوماً مامع أناس ، وصل برهم بليناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف ^(٣) أرومة ، على خيل مسومة ^(٤) ، مثقفة مقومة ، مابين جؤن أدهم ^(٥) ، أدكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سينان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كريم ، له سالفه ريم ^(٦) ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج ^(٧) إن زجرته ألب أديمه ^(٨) ، روضة بهار ^(٩) ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم ^(١٠) ، ويمر مرور القيم ، لا ينبه النائم إذا عبّر به ، ولا يحرك الهواء في سيره ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فرش قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لجبن وعسجد .. تهدي للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق . »

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيل وللكلاب الصيد .

(٦) ريم : طلي أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه

سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس في سيره بخفة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : معلمة لأصالتها

(٥) جؤن أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام المالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نسي أصلها عند الهمداني والحريري نهائيا ، فلا بطلٌ صاحب جيل ، ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين ، مع السفسة والمغالطة وقلب المحاسن مساوئ بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة ^(١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة ^(٢) أجنحته الطائفة ، ومطلق أرزاق عُفاته ^(٣) المتواترة ، وأعملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رقم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل وسنةُ نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطر ^(٤) .. إن نُظمتُ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع ^(٥) . »

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف نائمٌ في قرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعلَى فضله على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيالاته والخيلاء وكبرياته . وينبرى السيف مدافعا عن حياه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورأسه بالغيب إن الله قوي عزيز) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتفض القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف في حدة وعنف .

« أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضرب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(٤) الخواطر : الحائدة عن الصواب

(٥) النقع : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإيجاد

في الشر

(١) خزانة الأدب للمحمي ص ١٣٠ ، ٤٤٥ .

(٢) قادمة الأجنحة : ريشات أربع كبار في مقدمة

الجناح

(٣) عقاته : طلاب معروفه .

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْ مِنْ يُثَسِّبُ فِي الْحِلْيَةِ) وهو في الخصام غير مبين) لقد تعدّيت حدّك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيئات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب .

ويرد عليه السيف مَغِيظًا مَحْمَقًا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيرا بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبِجَتْ بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذة ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والروثق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حوارا بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية ، وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعا له ، من ذلك مقامتان ^(١) لمصطفى اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كتنخدا ، وإحدهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة ^(٢) في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلقوي ضمّنها سائر الفنون الشعرية من النسب والموشح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن ^(٣) أبي حَجَلَة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل . ولد بزاوية جدّه أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

(١) تاريخ الجبرتي ٢٢١/١ وما بعدها

(٢) تاريخ الجبرتي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(تشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والتجويد الزاهرة لابن

نفرى بردي ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤

والحجلة : طائر في حجم الحمام أخير الرجلين والنقار .

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكتابا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإرزاء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . وما زال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و« ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سبكردان إناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكي السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور في معظمه حول العدد ٧ وأهيمته في تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله في مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر في الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث في الباب الثاني عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين في أسرته . ويعرض في الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود في الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة في البابين السادس والسابع . ويتبع ابن أبي حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول في أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثاني لقصة موسى وفرعون ، والثالث لملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمي ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة ، والسابع للزهرة السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمي ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبَّات بعضها فوق بعض . ولاريب في أنه بالغ في ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والمهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو في ثلاثين بابا ويشرح باختارات الشعرية والنثرية في الحب والصبابة ، ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحاديث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدا لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبته إلى الطيور ^(١) محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرّياش ، وكان ابن أبي حجلة سمّى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصرات ثمّجّاه ^(٢) ، وأعسى طبيب الغيطان ^(٣) علاجه :

وشرّق حتى ليس للشرّق مشرقٌ وعَرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فما فعل التّعير ^(٤) ، بجزيرة الطّير؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشّر بالصبح ، ولا ساعٍ يسعى برجلٍ (ولا طائر يطير) بجناح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سلماً في السماء) أو آوى (إلى جبل يعصمه من الماء) فأذاق بها الحمام الحمام ^(٥) في المروج ، وترك أرضها كسماها ما لها من فروج ، وتلا على الحمام : (أيّنا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُروج) وكم في سماء ماها من نسرٍ واقع ، وبؤمةٍ تصفّر على ديارها البلاقع ^(٦) :

ومتهلّ فيه الغرابُ ميّتٌ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فمصر؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطّيار ، قلت فالجزيرة؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجمّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسّر ، فأصبح بعد اخضرار برّته ^(٧) شاحب الإهاب ، ناصل الخضاب ، غارقا في قعر بحر (بغشاء موج من فوقه موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطّالِح كالالِح يمشي على الماء (فتنادوا مُصْبِحِينَ) : (أن لا يدخلئها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغيطان : الحقول

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٤) النغير : طائر صغير كالعصفور

(٢) المعصرات : السحاب المطر تعتصره الريح .

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

ثمّجّاه : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عتوه حتى صافح

(٧) برّته : شارته وثوبه .

السحب

وأدرکہم الغرق فآیسوا (١) من الخلاص (فغشیہم من الیم ماغشیہم) (ولات حین مناص (٢))
 و (خر علیہم السقف من فوقہم) فہدّت قواہم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذین آمنوا وعملوا
 الصالحات (وقلیل ماہم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الکمام (٣) بزهره ،
 والکأس یحباب (٤) خمرة :

فکأنها فیہ بساطٌ أخضرٌ وكأنه فیها طرازٌ مذهبٌ (٥)
 فلم یکن لها بدفع أصابعه یدان ، وکم أنشد مرّجها حین (مرّج (٦) البحرین یلتقیان) :
 أعینی کفّا عن فؤادی فإنه من البغی سعیٰ اثین فی قتل واحد (٧)

قلت : فدار (٨) الثحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ما علیها وما لها ، فدخل من حمامها
 الطهر ، وقطع الطريق بالجامع الطهر ، فألحق مجاز بابہ بالحقیقة ، ورقي منه علی درجتین فی
 دقیقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلّ ثمارها ، وأتی علی مغانیها (٩) فلم یدع شیئا من
 رذیئها وخیارها ، أخلق دیباجة روضها الأنف (١٠) ، وترك قلّقاسها فی الجروف (١١) علی شفا
 جرف (١٢) :

بعینی رأیت الماء یوما وقد جری علی رأسه من شاهق فتکسرا
 طالما تضرّع بأصابعه إلى ربّه ، ولطم برعوسه الحیطان مما جری من الماء علی قلبه ، وتمثّل بقول
 الأول :

وإن سألوک عن قلبی وما قاسی فقلّ قاسی وقلنّ قاسی وقلّ قاسی
 لم یفیده تحصنه من ورقه بالدرق (١٣) والستائر ، ولاحنّ علیہ حین تضرّع بأصابعه فصحّ أن

-
- (١) آیسوا : یسوا
 (٢) مناص : ملجأ ومقرّ
 (٣) الکمام : جمع کم بکسر الکاف : غلاف الزهرة قبل
 أن تتفتح
 (٤) الحباب : الفقاقیع علی وجه الکأس
 (٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما کان بصحبه فی
 فیضانه من الطمی
 (٦) مرج البحرین : أرسلها فی مجریها متجاورین
 (٧) یشیر إلى أن البحرین يأخذان بخناق جزیرة الروضة
 حتى تکاد تلفظ أنفاسها
 (٨) تسمى الآن دیر النحاس وهی أمام النيل بمصر القديمة
 (٩) مغانیها : منازلها .
 (١٠) الأنف : الجلید
 (١١) الجروف : شقوق الحراث وجماریه
 (١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان یجره
 الماء
 (١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر» .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى علين فرقا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القسطاط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجزيرة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بزته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الغرق في عبايه ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارد مجريه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بحريه من حولها آخذين بخناقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عم ما بها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويمضي ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهي تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزا لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثاني جناسا طريقا مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى الثمالة . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبر الى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهي تورية بديعة . ولعل فيما قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

القلقشندى^(١)

هو شهاب الدين أحمد بن علي ولد بقلقشندة بالقرب من قلوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي . ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و « قبائل الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترفا بفضلله أنشأ القلقشندى مقامة طويلة في تفريلظه صورّ فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف توّأ على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتبدئ القلقشندى صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندى ومفاخراته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،
٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار
الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندى الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢
وشذرات الذهب ١٤٩/٧ والمثل الصافي لابن تغرى بردى
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ
الأدب الجغرافي لكرانشكوفسكى ٤١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشرطاً غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشرط الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتفاويض والتواقيع وخاصة مايتصل بزمن المماليك . وتحمل هذه المقالة كثيراً من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشرطاً من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقریطات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرّظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية أمروية على لسان النائر بن نظام ويلقانا في فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمري مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصِبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونس من شوارد العقول وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرَدُ عن روايض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرفها ، ومؤثرًا من الفنون ألطفها ، معتمدًا من ذلك ماتألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلًا منه على ما يستجلى حُسْنَةُ النظر وَيَسْتَحْلِي ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حَقُّه ، ومَوْفياً لكل علم مستحقُّه ، قد استغنيت بكتابي عن خَلَى ورفيقي ، وآثرت بيت خلوتي على شَفِيق وشقيبي .. إلى أن أتيج لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لا تكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصع كلامه على نحو مانرى في التكليف والكلف ، وأشراك (جبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيقي وشفيقي وشقيبي ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروايض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد به ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضاً لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتزويه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئء بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة مورياً بذلك عن الفتح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماماً فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهه . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا بد لكل إنسان من حرفه يكتبب بها معاشه . وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان المملكة الناطق ، وسهما المفقوق الراشق . ويحاور الناثر بن نظام في كتابة الإنشاء والخراج أيها أفضل ؟ ويجيبه أنني لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكان القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعداى مالا تتاله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناثر بن نظام في بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطيبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والنحل وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهؤدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندى عمن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ ويجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر في سليلة البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بجدتها الذى ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندى مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهى تتزع متزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ما سبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامه ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَضْعَةٌ ^(١) منى ، تُسَنَدُ إِلَىّ وَتُنْقَلُ عَنى ، لم يزل علمك بابا من أبوابى ، وجملتك داخلية فى حسابى ، حتى ميزك المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جنىّ فبعبه فى التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوىّ ضمن كتيبى ، نَسَبْتُكَ متصلة بنسبى ، وحَسَبْتُكَ لاحقٌ بحسبى . أنا ملحُ الكلام ، ومِسْكُ الحتام ، لا يستغنى عنى متكلم ، ولا يلىق جهلى بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبس عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندى البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندجحين بعضها ببعض في كتاب سيويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازنى علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جنى . ومضى المؤلفون في العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندى يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقل عنه ويُسند إليه وأنه مطوى في كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول ، معبرا بهما عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندى مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونمّقت محالا .. وإنى - وإن صغر جرّمي - إني لكبير الفعال ، وإن نحف بدني إني لشديد البأس عند النزال . وإن عرى جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي إني بسعة المجال مشهور ، وإن قصر باعني فكم أطلقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور » . ويمضى القلقشندى بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودأما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

السيوطي^(١)

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفى أسيوطى هو همام الدين السيوطى ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسيوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

ويروكلمان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السيوطى النحوى تأليفًا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السيوطى وترجمته حسن المخاضرة ١/٣٣٥ والضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للزغرى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ١/٢٢٦ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٤ والبدرد الطالع للشوكانى ١/٣٢٨ والنور السافر للعيدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنه من ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانتة على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين الشبلي في الحديث والكافيحي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشاف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبهر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاربه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبع في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالماثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإقتان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلكة كما كانت عند الهمداني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمود ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الوردية والثقل بمقامته الفستقية والعمود بمقامته المسكية ، وخص الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصلوة . وواضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يُدَلَّ بفوائده الطبية ، ويرد عليه الزرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجْر .. فاحفظ بالصلت حرمتك ، وإلا كسرت بقائم سبني شوكتك . وإني القائم لله في الدياتي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : الزرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه بى عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح . »

وللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أى المدينة وقدمتها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير ؟ » ويجب أبو يزيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويَجْتَنَّبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادى والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت أقتحم المهامه ^(١) الخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة، فحططتُ الرِّحالَ بعِتابها ^(١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصبح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّى بمسامرته العُربة ، وأديبا يُبَيِّل بمحاضرته الإربة ^(٢) ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تَسَمَّرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذ معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِمْتُ ^(٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيت ببهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبر سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يمسح أمه ؟ فقال : لم يصحّ يا أمة .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لان المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على أغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لئلا يتخذ نجاة أبوي الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوي الرسول من النار لايشوبها أي شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيّران . ولعل فينا قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

الشهاب (١) الخفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ، ولد لفقير شافعي بسريا قوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعرائي والفقير الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضياً في الروملي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضياً للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتياً بحجي بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضياً في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي ، ومن أهمهم عبدالقادر البغدادي صاحب الخزانة ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سبباً في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالماً ومؤرخاً كبيراً ، صنف حاشية على تفسير البيضاوي طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طبع مرارا . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه « ريحانة الألبا » الذي نذكره كثيراً في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطاً . وكان شاعراً مجيداً ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطاً ، وقد أنشد من شعره كثيراً في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيراً المحيي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دون الشهاب الخفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلاطة العصر ص ٤٢٠

(١) انظر في الشهاب الخفاجي ترجمته لنفسه في نهاية

ريحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونفحة الريحانة ٣٩٥/٤ -

بينما تقبّل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفتها وعلماءها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعشٍ إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عارٌّ على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذارا لإبليس في ترك السجود ، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربية راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كذبية واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له في قسم إيران كتبها نعيمن كان يزاحمه في أدوات ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا ، ونسج الشهاب الخفاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصيصة مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجو هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثّل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الخفاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغربية ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسج عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجماميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نبانة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن ^(١) علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطينية ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبها مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواظله في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة ^(٢) خطيبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه ^(٣) . ويبدو أن الخطب والمواظب كانت تُعدُّ لهم - ولبن ينيونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظب لعلها كانت خطباً أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجمالي ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقططف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول ^(٤) :

« أيها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة ^(٥) ، ولا تُسِيمُوا ^(٦) أطعكم في رياض الأمانى المشعبة ، ولا تُمِيلُوا صَعُوكُمْ ^(٧) إلى زيارج ^(٨) الدنيا الحبيبة .. أين الجبايرة الماضية المتغلبة ، والملوك المعظمة المرجبة ^(٩) أولو الحفدة ^(١٠) والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرارة اللجة ^(١١) .. طرقت - والله - خيامهم غير منبهة ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية ^(١٢) محتضبة ، وأكلت لحومهم هواماً الأرض السغية ^(١٣) ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبلُ فيه عُذرٌ ولا مَعْتَبَةٌ ، وتجاوزى كل نفس

- | | |
|--|---|
| (١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر | والاستعارة واضحة |
| ٢٤٧/٢ | (٧) الصغر: الشق والجانب |
| (٢) انظر سيرة الأستاذ جودر (طبع دار الفكر العربي) | (٨) زيارج: جمع زيرج: الحلية والزينة |
| ص ٧٦ | (٩) المرجبة: الموقرة المعظمة |
| (٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤ | (١٠) الحفدة: الأعداء |
| (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة | (١١) الجرارة: الكثيفة. اللجة: ذات الجلية والصوضاء |
| ١٩٢٩) ٤٥٥/١٠ | (١٢) قانية: حمراء. محتضبة: مصبوغة بالخصاب |
| (٥) الآصار: الذنوب. المستحقة: المرتكبة | الأحمر |
| (٦) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء | (١٣) السغية: الجائعة |

بما كانت مكتسبة ، فلإما سعيده مقررّة ، تجرى من تحتها الأنهار مثنوية ^(١) ، وإما شقيّة معدّبة ، في النار مكبّكة ^(٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخياء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثير . وخصائص ابن أبي الشخياء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أمّ وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهريعى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المهركة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقرقة ، ويصرفوا أطاعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرّبهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأثم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتنا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فإلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور ^(٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تلقى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ ^(٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وكان في الكتاب مواظ بلغة في الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لساعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها ونخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) الخطط ١/٤١٣

(١) مثنوية : مكافأة

(٢) مكبّكة : مجمّعة .

ونلتقى في زمن المالك بـابن المنير^(١) الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابتها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق^(٢) العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، ويطلق مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخميم بالصعيد ، وفيها يقول^(٣) :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على المغرور ، ونذكره بأيام الله (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ونخدره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحُجْرته عن النار ، والمقتضى لإصدارها مالمخناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبد الآخرة وراءه ، واتخذ إله هواه ، وقصره من همته على حظ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الحياه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فَوَرَبِّكَ لِنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

ولعل في هذه القطعة ما يبصرون وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالتيل بالعذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفائق وعظه وكلمه التى كان يجلب بها وبما يضمها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم واهلوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن المنير فوات الوفيات ١٣٧/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومراً بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عُنيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام المماليك ، وكانت دوراً كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومراً حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطاً . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخسه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعاً الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم^(١) الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد^(٢) البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضاً سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كـله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على ألسنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجياً ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقدرة واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجارى الأفلاك . بالكبرى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لذغة المنافق » .
وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس^(٣) المرسي المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن وراجع الشعراي ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والوقاي ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراي (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١
(٢) راجع ترجمة البدوي في الشعراي ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنّه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوّجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقي دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقاته فى الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، وتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسي وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا نقتطف من إبتهاياته وأدعيته قوله^(١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبه والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخُصّصنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدنيّ والعمل الصالح والرزق الهنيّ على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخرّلى الرزق واعصمّنى من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهبّ لى لسانا لا يفتعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبغض لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نُحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف

المن والأخلاق للشعراني (طبع المطبعة اليمينية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية .
ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك
ما جعلها تشدّد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئاً مما في أيديهم من مال
أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك
وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسي بترجمة
قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز^(١) الدّميرى الدّيرينى ، ولد بقرية
دميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف
مصر شمالاً وجنوباً ، وكان فقيهاً شافعيًا ، ونظم كتاب التنبية لأبي إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة
نبوية ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً مخشوشنا ، وله في التصوف كتاب « طهارة
القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :
« إلهي ، عرفتنا بربوبيّتك ، وغرقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا
بذكرك وأنسك .

إلهي ، إن ظلمة ظلّمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز
شامل ، والحصر^(٢) حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهي ، ماعصيناك جهلاً بعقابك ، ولا تعرّضاً لعذابك ، ولكن سوّلت^(٣) لنا نفوسنا ،
وأعانتنا شقوتنا ، وغرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من
يسْتَقِدُّنا ؟ وبِحبل من نعتصم إن قطعتم حبلك عنا ؟ واخجلتنا من الوقوف غداً بين يديك ،
وافضحتنا إذا عرّضت أعمالنا القيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ما سترت .

إلهي ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب
ولأبيالي .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العى .

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

(٣) سوّلت : أغرت ، وتقال في الشرور والسوء .

المخاضرة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاة المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس ^(١) الدين بن اللبان محمد
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن سخته (والد زوجته) ياقوت العرشي
تلميذ أبي العباس المرسى ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المشابه في الربانيات »
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جَلَّتْ عَظْمَتُكَ أَنْ يَعْصِيكَ عَاصِي ، أَوْ يَنْسَاكَ نَاسِي ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَمْرِكَ
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بَعْصِيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يَسْبُحُ بِحَمْدِكَ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِكَ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،
وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

ويبدو أن كتاب المشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن
العاصي يطيع الله بعصيانته وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعد
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مَنَ إِشَارَاتُ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،
وَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ لَفْظًا وَفِي الْمَعْنَى سَمِ قَاتِلٍ .

وكان يعاصره يوسف ^(٢) بن عبدالله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد
دفن بزوايته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي
بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان
شيخا حقيقَةً ومُفْتَدِي طريقتة ، كان إمام المسلكين (آخذى اليهود على المريدن) في عصره وله
رسالة في التصوف سماها « ربحان القلوب والتوصل إلى المحبوب » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخزقة أو المرقعة الصوفية وتلقين
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١
والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشعراني ٧١/٢ وحسن
المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي
٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوفاء بالوفيات للصفدي
١٦٨/٢ ومراة الختان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أورداد وأذكار هائلة » وهذه الأذكار والأورداد سقطت من يد الزمن . وهو وأورداده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام الماليك وما كان لهم من أورداد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونغضى إلى أيام العثمانيين وولتقى في مطلعها بأبي السعود ^(١) الجارحى المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعراني ، وأهم منه الشعراني ^(٢) نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سنى نراه يدافع عن أستاذه الروحى : ابن عربى ، محاولا تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضوع ناشطة بمصر . ويعلوشأن الطريقة الخلتوية النسوية الى الشيخ محمد الخلوئى منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى ^(٣) بن كمال الدين البكرى الناشئ ببيت المقدس ، وقد طوّف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجيزى قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلك ، تأليفه تقارب المائتين ، وأورداده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله ^(٤) :

« إلهي ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : (ادعوني أستجب لكم) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، اين القمر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف البراح عنك وأنت الذى قيّدنا بلطائف الإحسان .

والشعراني إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة الشعراني كتابه « لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوى الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/٢٤ وكتاب الشعراني والتصوف الإسلامى لطفه عبدالباق سرور ،

(٤) انظر في ورد السحر للبكرى مجموع الأورداد الكبير

(طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعراني ١٤٣/٢

(٢) انظر في ترجمة الشعراني كتابه « لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوى الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/٢٤ وكتاب الشعراني والتصوف الإسلامى لطفه عبدالباق سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قُتت به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمتها ألبابُ
العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك
أعلامه ، افتح لنا فتحة صمَدانِيَا وعِلْمًا ربانِيًا ، وتَجَلِيًا رحمانِيَا ، وقِيضًا إحسانِيَا .
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ
الحفني شيخ الجامع الأزهر وهو ملتحق أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد
الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري .

أبو الحسن ^(١) الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣
للهجرة بقرية تسمى غارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ
حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبّ على العلوم الإسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو
العشرين من عمره حتى أحسّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى
العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَة طريقة الصوفى المغربي
أبي مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين
والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب
سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفى هو
عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذَه إمامًا وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف
ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أدمن على الشرب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما
أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تنيب بجماله عن المحبة وعن الشرب
والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في
العصر الاسلامي للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١
والأدب في التراث الصوفى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشاذلي في كتاب « لطائف المنن في
مناقب أبي العباس الرسى وشيخه أبي الحسن » وحسن
المخاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهيمان ص ٣١٣ والشعراني في
الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلية
في الآثار الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلي وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسي وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبه حتى قال له الشاذلي يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلي وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافي الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقي دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانهاك المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبي العباس المرسي منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهي تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطني الصوفي .

وهاجم الشاذلي بقوة حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش الرحل ، فعنده أن الصوفي الحقيقي لا يكون سائلا ولا طقيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحيي الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبي الحسن ، فتكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانبهر الشيخ العز بن عبد السلام ، فقام هاتفا منبها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . . وأنزل الجيش المصري بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يكفون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسن بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه في أورداه على أنه كان يملك ناصية العربية مصرفاً أزمته كيف شاء ، وله أورداد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المنن أربعة أورداد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستله ويتخلله آيات قرآنية كثيرة ، وبناجى ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفرلى إنك على كل شيء قدير . يارزاق يا قورى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأولياتك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمننا من أرواحنا ، ومسخرنا من أنفسنا (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك ديننا قتيما ، ونسألك العافية من كل بليّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس .

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن يفرّه من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال فى الورد يتمنى أن يبهه الله رضاه وحبّه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبِعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم فى العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم فى التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا فى الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان أوفائية والخلوتية .

ابن عطاء ^(١) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفاً عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وأثر تلاميذه عنده ، ولما توفي سنة ٦٨٥ خلفه على رئاسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيهاً كبيراً ، كما كان صوفياً شاذلياً كسناً ، فجلس مجلس أستاذه يدرس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائماً مبادئها الأساسية وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء القرائن والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يستؤون به رمتهم

(١) ١٣٥١ هـ . ص ٧٠ والوافي ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابه عنه للدكتور الفتازاني وأعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعراي ١٤/٢ والبدرد الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويحني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألّف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق » . وصنّف ابن عطاء الله « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأبق ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح ^(١) الفلاح ومصباح الأرواح » . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتبٌ صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دَوّنها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفى بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة ^(٢) آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حفلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء العامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختم ، والحائز للمقامات العلية بالتقام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنيهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب

في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقي فيه أحيانا بعض مواظفه

لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق للشعراي (طبع الطبعة اليمينية)

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بال تكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟
 كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟ »

ياعجبا كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ «
 والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهَر الكائنات جميعا وموجدها ،
 وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسبحته ، وإن وجوده
 لأبدى أزلى ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،
 أقرب إليه من حَبْلِ الْوَرِيد . وياعجبا كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلى . وهو يُسَرُّ
 في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن
 الشكر ، فأجابته توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر
 اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) . وشكر الأركان : العمل
 بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو
 المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله) . وسأله لاجين : ما الذي يصيربه الشاكر شاكرا ؟
 فقال : إذا كان ذا علم فبالتيبين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبدل والإيثار للعباد ، وإذا كان
 ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد . » وبحق ما قاله الشعراني من أن لكلامه حلاوة
 وجلالة .

أحمد (١) الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد بينى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبَّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلوقى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعا سليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحنفى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعدي شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدّد الجبرتي فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورد الشيخ كريم الدين الخلوقى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات (٢) والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، ومما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شتاة الأعداء ،

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرتي ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد

وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجاءة النقمة . .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْق وهم الرِّزْق ، وسوء الخَلْق .

اللهم إني أعوذ بك من الرِّزْق والجِرْع ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطعم . .

ويظل يستعيد من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يُظلم أو يبغى على إنسان أو يبغى عليه ذو سلطان أو يطغى أو يُطغى عليه . ويستعيد من الشرك الظاهر والخبئ ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائماً في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودينه .
وتنتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث
عنها عند البوصيري ، إذ يقول :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً ، وأتمى بركتك سرمداً ، وأزكى تحياتك فضلاً وعدداً ،
على أشرف الخلائق الإنسانية ، وجمع الحقائق الإيمانية . . شاهد أسرار الأزل ، وترجان لسان
القدم . . وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .
اللهم صلّ على مَنْ مِنْهُ انشقت الأسرار ، وانفلق الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت
علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاعلت الفهوم فلم يدركه مناسبق ولا لاحق ، فرياض الملكوت
بزهرة جماله موقنة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .
اللهم صلّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار .
ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال . .

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدي وأن وجود الكائنات مستعار
منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود
العلوي والسفلي وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئي في كل نور ،
ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعني أزلية النور المحمدي أو قل أزلية الحقيقة
المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع
الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واسلّم بنا طريق الرشاد .
وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واخلع علينا خلع الرضوان والوداد ،
وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وتوجنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلَّى وَسَلَّم وبارك على سيدنا محمد وأرأف بنا رافة الحبيب بحبيبه يوم التَّناد (١) «
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكان الدردير يستمد من معين
لاينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعدوبة .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأفاصيص القصيرة التي تروِّح عن النفس أو
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلق نبيل ، وتارة يراد بها أفاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم
أو قاض أو بخيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة
الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه في ديوانها ،
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه وليس ذلك
فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتاباً في الأقواس

(١) واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (تسم الفسطاط)

كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه . وكتابه
المكافأة طبع مرارا .

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥

وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسان تثير أموالها في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سؤنهم وشرهم لما يجرآن من أوحم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العقبي وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفضحي جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلى على الباب أى الحقى - اعتذرت إليه من تقصيرى في حقّه - امرأة تُطلق (أى أصابها المخاض) - ست (أى سيدة) - امرأة مقربة (أى قربت ولادتها). واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتها على صبيانى حلواء في العيد » والفصيح أن يقال « اشتهى على صبيانى » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نضع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبى في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيبويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن (١) زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد (٢) بن موسى الكندي المعروف باسم سيبويه المصري ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رءوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمنتزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبيلا على كتاب الكندي : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكملة ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيبويه مشاهد مختلفة لقد سيبويه للحكام وللناس في عصره ممزوجا بشيء من التباله ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزر وينهر بالفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ما هذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سلطت عليهم قاصفة (يوم ترجف الرأفة تتبعها الرادفة) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرغ ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمن البدن ، قطع الله منه الوتين (٣) ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولاصحابان ، ولا حاجب ولاحاجبان ، ولاتابع ولا تابعان ؟ لا قِيلَ الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمرَ بجثته الفلاة » .

(٢) راجع في سيبويه المصري معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيبويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أوقل فى هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مامر بنا أنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ماكان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمناه فيضحكون ويفرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقربه ويجالسه أملا فى أن لايكويهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتّابه ، ولفق أصحابه ، وحشد بين يديه حجّابه ، وشمر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرق فخرج لهذا الأمر ينكره » ١ . ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصحى فلقطت ما بين يديه . وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصّ فيه طائفة من النوادر نسبا إلى قراقوش ^(١) التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أتاه عنه مدة بالديار المصرية وقوّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتهر ابن ممانى ذلك فيه ، وأصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » ^(٢) فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوفه بمعرفته وكفايته ما قوّضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمّة ، لا يقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكتاب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ -

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤ -

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يردّ كلمه ويشطط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . ويأخذ ابن ممتى في سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هي الجارية ، والجارية البيضاء هي السيدة ، وهمّ بجسها لولا أن شفعت فيها جارتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ في الرجلين قائلا : إنهما اللذان اعتديا عليه بتف لحيته ، وصاح في غلماه أن يزجوا بالرجلين في غياهب السجون حتى ينبت الشعر في ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بجدّاد له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقبل له إنه حدادك الذى يُعَلُّ لك الفرس ، فنظر أمامه بابه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشتقوا القفاص وسبيوا (تركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممتى قراقوش متصرفا في القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُتفت ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ وبرى يقتل .

وما نطن أحدا في مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممتى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسعها في مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممتى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحمق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمق ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لإلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من العجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأى الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضعف والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادى فكاهية عما كان يعانىة أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من القول يسمى البيسار والميش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الربى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعنزتين وحصاة فى ثوز الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيليات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادى لاذعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسواته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومررنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتى تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية (٢) وبجانب هذا القصص الدينية الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنشيا ترجمة الدكتور

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألّفت في مصر - أو أخذت بها شكلها
النهائي - وهي سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أبناء فروسيته
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره في السيرة بطلا عظيما للمحمة عربية تمتد فيها بطولاته من
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية
النفس في أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهبهم عن الكلام فيها ، فألّف لهم
سيرة عنتره وشغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره في الزمان فحسب ، بل
تتعد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام
وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من
قديم أن ينشدوها الناس على الرابة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقتطع الكلام في كل جزء من أجزائها
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عبس قبيلة البطل ، وتعرض
السيرة مولد عنتره وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحيايته لقبيلته ضد القبائل المنافسة
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورماندياً إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا فى السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابها منها الجوفران وربما كان تحريفا لجود فرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره فى السيرة تتسع لالتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنتره أنه جد أمه زبيبة . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصيرة بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورؤى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة (١) الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسلم ورياح وعدى وربيعة والأثبيج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجيين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

للهلالية والزناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابه فى للسيرة الهلالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر فى السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعاراً

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطى . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمى فى عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها فى المستقبل . وحانت الفرصة لذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكى السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة فى تلك الأثناء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره البيازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يملكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبّته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت فى سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغبة فى سنة ٤٤٦ . طرابلس ، وانجهدت هلال ورياح والأنبج وعدى إلى إفريقية وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعض الإمارة بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلايون أو زنانيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها فى الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها فى هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبّت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصّ للسيرة أو قصاصها استغلّوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوّجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبيها فى نجد ، حتى إذا قدمت معهم

مضوا مع أبيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زوّجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له . وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمّي القصاص بطلها أبا زيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناتي خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، كما غاب زعيم القبائل يحيى الرياحي وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلّفت في القرن السابع الهجرى . أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة في المقاهي والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يحيى ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التغريبة وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكثها سعدى ابنة ملكها الزناتي خليفة من دخولها وتفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتي خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس^(١)

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى انجهموا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزما وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التتار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه القروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الدينارى وكاتم السراى كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويدارى (تحريف للدودار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطر . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شичه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، وترجع كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجرى .

سيرة ^(١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والمعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن في سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألقت بمصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف ^(٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخرافات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليلالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتميّز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائى وإبراهيم المهدي . ويشيع في الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدينه البالغ وجهه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

(١) راجع في هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال ياربه عنها في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات في

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصور حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويز. وتلقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضاً حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب. وأهم من كل ما سبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى صاغته بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ القرن الثامن الهجرى ، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السَّير الشعبية: سِير عنتره والهلالية والظاهر بيسرس وسيف بن ذى يزن. وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم. وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف فى عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرف قديم.

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضُم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية، وأوضح كيف أن قبط مصر رحبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث ولها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. ومايكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جمعهم سحقاً في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم المماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقاً ذريعاً، ويطردون حملة الصليب نهائياً من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعاً لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيمارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضاً فإنه بنى بالقاهرة قلعة المشهورة ومارستاناً كبيراً سوى ما شيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بمصر لعهد المماليك وتتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتتسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهدي وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفي يمثله ابن الفارض واتجاه سُني شعبي تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي، وقد تعددت فروعها لعهد المماليك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشاهقة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمي ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدمة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضيائها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضي على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضيائها وشرورها إلى العالم العربي، على نحو ما هو معروف عن ابنها ورش وحمل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعي ويعني تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاظرة فيه، ويأخذه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربي جميعه مغرباً وغير مغرباً.

ويعني حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإنمائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما بينون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس فى هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذًا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفى كل مجال يلقانا علماءها فى الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقهاء بمختلف مذاهب الكبرى وعلم الكلام، ويُورِّخ لكل علمائها الأعلام فى العلوم جميعا تاريخا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا فى السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر فى التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها فى الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بعبارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون فى التعرب ويتم تعربهم فى القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر فى مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها فى أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر فى زمن ولاة العباسيين أو يأخذ فى النشاط، ويصبح لها شعراء نابهون مثل المعلّى الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الخصب والى الخراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصرى الإخيمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكهاها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا فى أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا فى عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلس وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا فى شعراء مصر سماه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها فى القرن السادس الهجرى العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين فى كتابه الخريدة، ترجم فيها لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها فى أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هى وشعراءها وكتّابها وحكامها ووزراءها وقضاتها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الخاصان بالفسطاط والقاهرة، وحققا ونشرا. وتظل كتب التراجم فى عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابهين بمصر. وتألقت حينئذ أساء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء فى العهدين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى فى القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا فى شعراء زمانه سماه: «ريحانة الألباب» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى فى كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمّطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها فى أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك فى أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له فى الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذيع والانتشار. فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة.

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى في كتابه «سجح الورق المنتخبة في جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثمانين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة في أذكارهم، ولعلى بن وفاشيخ الطريقة الوفاية في أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبيه والمملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على الألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أطل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المرمي القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبي فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المنتبى حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابهون، وقد ترجمت لخمسة منهم عارضا روائع مدائحهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاقس الشاعر الاسكندرى المادح لشاور. الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريفة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانين وله مدائح كثيرة فى ولايتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بديعة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والحسف ومن العوز والبؤس، وعبدالله الإدكاوي أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويبيكيها وقد حمله النعش إلى مثواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مقبّين، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتموج أشعاره في المعز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصرى من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آباؤهم سنين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدما لا تحبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين بوجود لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزليين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي الملتاع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتغنّت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكتظ بالهلفة واللوعة والرقّة واللطف. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولا ابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودماثة وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها المحب لوعة وهياما، وتلتقى في أيام العثمانيين بالهسيلى وما يتميز به غزله من رهافة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالأس والشجاعة، ولابن سناء الملك فيه منظومة رائعة جسّد فيها روحا قوية عاتية : روح بطولة صلاح الدين وجيشه المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يمثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في السنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعاية. وتلتقى في الفخر بتميم بن المعز الفاطمى المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرا بشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسى وأسرته العباسية، ولطلّاح بن رُزَيْك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرورى من كبار الهجائين، وله أهجية في أحذب مليئة بالسخرية الموجهة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحى، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى الحجازى إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المربى شاعر حمارويه، وتكثر مجالس الأتس واللهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف فى أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلى شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثمانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مر بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه - كما مر بنا - اتجاهان: اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت التزل فى ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الربانى، وفنائه وانحائه فى الذات الإلهية إنحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر مادح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحته النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تتشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. وتلتقى في العصر العثمانى بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بعامر الأنبوطى فى أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعيار وتورياته المستملحة، والغبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء فى وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو فى رثائه لأمه أو فى حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق فى الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين فى عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. وتلتقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية فى أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب فى أيام المماليك محبى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتها الديوانية بطوايح كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخباء فى زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ وصرانته. ولابن مماتى كاتب الدواوين فى عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكاس فى أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعذوبة والسلاسة..

ويُعنى غير كاتب بضع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحاذة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الحفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختمها بمديح السلطان العثمانى. وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم. وتحدثت عن كتاب القاشوس فى حكم قراقوش لابن ممتى، وكتاب هز القحوف ليوسف الشربيني وما يحملان فى نوادرهما من سخرية لاذعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنترة والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

الفهرس

صفحة

١٢ - ٥ مقدمة
٦٨ - ١٣ الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١٣ ١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
 (أ) فتح العرب لمصر
 (ب) زمن الولاة
 (جـ) الطولونيون
 (د) الإخشيديون
٢١ ٢ - الفاطميون - الأيوبيون
 (أ) الفاطميون
 (ب) الأيوبيون (صلاح الدين)
٣٤ ٣ - الماليك - العثمانيون
 (أ) الماليك
 (ب) العثمانيون
٤٤ ٤ - المجتمع
٥٦ ٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
٦٠ ٦ - الزهد والتصوف
١٦٠ - ٦٩ الفصل الثاني : الثقافة
٦٩ ١ - الحركة العلمية
٨٨ ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
 (أ) علوم الأوائل
 (ب) علم الجغرافيا
١٠٨ ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

صفحة

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ١٢٨

٥ - التاريخ ١٥١

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ١٦١ - ٢٥٦

١ - تعرب مصر ١٦١

٢ - كثرة الشعراء ١٦٦

٣ - شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات ١٧٢

(أ) الشعر الدورى

(ب) الرباعيات

(ج) الموشحات : العزازى . ابن الوكيل

(د) البديعيات

٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير، ابن قلاقس، ابن سناء

الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوى ١٨٥

٥ - شعراء المراثى والشكوى ٢١٩

على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .

عبد الله الإدكاوى

٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية ٢٣٩

ابن هانىء . المؤيد فى الدين الشيرازى . ظافر الحداد .

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ٢٥٧ - ٣٩٩

١ - شعراء الغزل ٢٥٧

ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطى .

نور الدين على العسيلي .

٢ - شعراء الفخر والهجاء ٢٩٧

تيم بن المعز . طلائع بن رزّيك . ابن الذرورى . أحمد بن

عبد الدائم . حسن البدرى الحجازى

٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ٣٢٢

ابن وكيع التنيسى . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي

الإسحاقى

- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٢
ابن الكيزاني. ابن الفارض. البوصيري. محمد بن أبي الحسن
البكري
- ٥ - شعراء الفكاهة ٣٦٧
ابن مكنسة. الجزائر. السراج الوراق. ابن دانيال. عامر
الأنبوطي
- ٦ - شعراء شعبيون ٣٨٦
إبراهيم المعمار. الغباري. ابن سودون

الفصل الخامس: النثر وكتابه ٤٠٠ - ٤٨٩

- ١ - الرسائل الديوانية: ابن الصيرفي. القاضي الفاضل. محبي
الدين بن عبد الظاهر. ابن فضل الله العمري ٤٠٠
- ٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٤
ابن أبي الشخياء. ابن ممان. فخر الدين بن مكاس
- ٣ - المقامات ٤٤٢
ابن أبي حجلة. القلقشندی. السيوطي. الشهاب الخفاجي
- ٤ - المواعظ والابتهالات ٤٦٠
أبو الحسن الشاذلي. ابن عطاء الله السكندري. أحمد الدردير
- ٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ٤٧٧
(أ) كتب النوادر
كتاب المكافأة. أخبار سيبويه المصري. كتاب
الفاشوش في حكم قراقوش. هز القحوف.

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

سيرة عنتره. السيرة الهلالية. سيرة الظاهر بيبرس. سيرة سيف

ابن ذي يزن. ألف ليلة وليلة



كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- التنظور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر
بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
● في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة
- في الدراسات القرآنية
● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
● العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٦٦ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية- العراق- إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة



الترجمة الشخصية

● تجديد النحو

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
General Publications of the Alexandria Library (GOAL)
مع نهج تجديده

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

الطبعة الأولى ٢٠٨

Bibliotheca Alexandrina

في التراث المحقق

في مجموعة نوايغ الفكر العربي

● المغرب في حل المغرب لابن سعيد

● ابن زيدون

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

● كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

● الرثاء

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

● المقامة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

● النقد

الطبعة الثانية ٣٥٦

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

في سلسلة «اقرأ»

الطبعة الثانية

● معى (١)

الطبعة الخامسة

● العقاد

الطبعة الأولى

● معى (٢)

● البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

● الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٩٠ / ٣٣٥٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-2911-3	الترقيم الدولي

١/٩٠/٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Tārīkh Al-Adab Al-‘Arabī

7

Dr. SHAWQĪ DAYF

‘Asr
Al Dewal wa’l Imārāt
Miṣr



DAR AL-MAAREF

1-Asr

12